رواية

الطفل المسروق

« معرّبة بتصرف عن الافرنسية »

بقلم

يوسف شديد ابي اللمع

****

الجزء الثاني

****

« طبعة ثانية ـ سنة ١٩٢٢ »

طبعت في مطبعة جريدة الهدى اليومية ـ في نيويورك · الولايات المتحدة

Al-Hoda Press, N. A. Mokarzel, Prop. 81 West Str. New York U.S.A.

PC1 = 0

رواية

الطفل المسروق

« معرّبة بتصرف عن الافرنسية »

بقلم

يوسف شديد ابي اللمع

****

الجزء الثاني

****

« طبعة ثانية ـ سنة ١٩٢٢ »

طبعت في مطبعة جريدة الهدى اليومية ـ في نيويورك ، الولايات المتحدة
Al-Hoda Press, N. A. Mokarzel, Prop. 81 West Str. New York U.S.A.

الجزء الثاني

الفصل الاول

غرام اسبارنس

في احد ايام آب المحرقة كان شاب يمشي على مهل في الطريق العمومية الى ارجالاه في اعالي جبال البيراناه قرب قرية سان سافان الصغيرة وكان في نحو العشرين من العمر حاملا على كتفيه كل ما يلزم له من ادوات التصوير ومرتديا ثوبا خفيفا يساعده على الجري بين تلك الجبال لمشاهدة جمال الطبيعة وفيما هو في منتصف الطريق جلس طلبــا للراحة بقرب قصر شاهق يختفي وراء غيضة من الاشجار الكثيفة التي يفصلها عن الطريق العمومية سور من الحجارة تهدم بعضه بكرور الايام وكانت كل هذه الاثار والمناظر قد زادته رغبة في دخول الحديقة ما بين تلك الممار الموجودة في السور فازاح بعض اغصان الورد والياسمين القائمة هنالك وتقدم في داخل الحديقة الى ان كاد يصل الى القصر وهناك اخذ يتأمل جمال المكان وفخامة القصر

الذي يدل منظره الخارجي وفخامة عضداته على قدمه ومنعته وعزة ساكنيه وكان يناجي نفسه بان ذلك المكان غير مأهول وانه في مأمن من ان يقلقه احد فيما لو اخذ رسم تلك المناظر الجميلة فجلس بقرب شجرة كبيرة وركز هنالك الة التصوير وشرع يدير ريشته الخفيفة فوق قطعة من القماش ويرفع يده من حين الى اخر متنفسا الصعداء ومسرورا بعمله وكان القصر قد بدأ يظهر بفخامته وضخامته والحديقة باشجارها وازهارها والافق ببهائه وصفائه ظهورا واضحا حتى استغرق ذلك كل افكاره ولم ينتبه لوقع اقدام خفيفة كانت وراءه

كان في احد مسار تلك الحديقة المغطاة بكل انواع الازهار الجميلة فتاة تتقدم وهي بارعة الجمال ومرتدية حلة ناصعة البياض وعلى رأسها قبعة من القش متدلية فوق وجهها تحجب عنه حرارة الشمس وفي يدها كتاب مغلق وعلى وجهها دلائل الافتكار وما زالت تتقدم الى ان رأت الشاب وقدصارت بقربه فاجفلت وتراجعت قليلا الى الوراء اما هو فانه كان منجذبا بكليته الى الرسم الموجود امامه حتى انه لم يشعر بها فعادت وتقدمت نحوه بخفة واخذت تتأمل تلك الصورة الجميلة وبينما هو يرفع نظره طلبا للراحة القليلة وقعت عيناه على ذلك الوجه المشرق والمقلتين الدعجاوين فجمد في مكانه مسحورا من ذاك الجمال الباهر والحسن النادر فتبسمت له الفتاة وقالت

ــ ارجو منك ياسيدي ان تكمل رسمك ولا تضطرب لوجودي هنا·واذا كنت تتفضل وتسمح لي بالوقوف لاعاينك فانك تزيدني

شكرا لك · لانني ارى على قدر معرفتي بهذا الفن ان الصورة متقنة · قالت ذلك وهي تنظر الى الصورة التي كان قد بدأ يلفها

ــ اني اذيل رسومي باحرف ــ ك · د · قال الشاب

ــ اه قالت وهي تمر يدها فوق جبينها كأنها تتذكر شيئا · انت اذن كوتياه دكسون الذي احرز الجائزة الاولى من رومية هذه السنة ؟

ــ نعم سيدتي

ــ كان يجب اذن ان تدخل من مدخل القصر وليس من هنا · قالت ذلك وهي تشير بيدها الى الممر الذي دخل منه فاننا نكون سعداء بمقابلتك ولعلك تسمح لي ياسيدي بان اقدمك الى والدي الدوق دوبان فانه يسر ولا شك كثيرا بمقابلتك لانه يقدر اربـاب الفنون الجميلة حق قدرهم

ــ اذن لي الشرف بان احادث مداموازال دوبان

ــ نعم ياسيدي واسمح لي ان اقدم لك ذاتي واقول لك ان اسمي اسبارنس او الرجاء ــ اليس غريبا هذا الاسم ؟

ــ اي انك موضوع امل الناس ورجاءهم · قال كوتياه

فاحمر وجه الفتاة خجلا اما هو فبقي مبهوتا امام ذلك الهيكل البديع والابتسامة الجذابة واللحظ الفتان

نعم ان اسبارنس التي عرفناها في الجزء الاول من روايتنا بلغت

الآن السادسة عشرة من سنيها على انها قد اخذت كل جمال خلق والدتها وُخلق والدها

ست سنوات كانت قد مضت على حصار باريس وكوتياه في خلالها يتقدم في مهنته تقدما عجيبا حتى احرز الجائزة الاولى من رومية وتعود ان يحب جوست ويحترمه كوالد له وكان اسمه قد اصبح مشهوراً ومعروفا في كل مكان ومع ذلك فانه بحضرة هذا الملاك الارضي ومحادثته كان يشعر بسرور لم يشعر به من قبل

ـ وهل انت مزاول هذا الفن الجميل من مدة طويلة ؟

ـ منذ ست سنوات ولكن لا اخفي عنك انني كنت منذ حداثتي مولعا به ولكن الظروف عاكستني في بادىء الامر لانني كنت مضطرا الى العمل للقيام باودي الى ان قضت الظروف ونجوت من الفاقة فعدت للدرس · قال ذلك وهو يستعد للانصراف فقالت له

ـ ولكن اراك ياسيدي تستعد للرحيل قبل ان تتمم رسمك فانا ارجو ان تتممه بدون انزعاج لانك موجود هنا عندي

ـ اذن تسمحين لي بان ارسم مع جمال هذه الطبيعة جمال هذه الطلعة واضع صورتك بين هذه الازهار ليتم جمال الطبيعة بشخص جمالك

ـ اذا كان ذلك يرضيك فانني لا اتأخر عن اجرائه ·· قالت ذلك وهي ترفع قبعتها عن رأسها الجميل فتساقطت غدائرشعرها الذهبي فوق كتفيها ووقفت امامه بكل هدوء

اما هو فلدى روءيته هذا الوجه الجميل بل مثال الجمال الخارق بقي مبهوتا جحظت عيناه وارتجفت يداه وبصوت متقطع قال

ـ اسمحي لي ياسيدتي فانا لا اقدر الان على اتمام ما تكرمت به وارجو منك ان تنسي جسارتي لانني اشعر بالمقدرة على اخـذ رسمك بدون حضورك٠قال ذلك واطبق عينيه وهو يردد في نفسه

كلا لا يجب ان انظرها لاقدر على رسمها ولا يجب ان اقف بعد امام هذه الحورية الخارجة من هذا الحرج لسلب الفوءاد٠ ثم لف الصورة وهو لا ينظر اليها وذهب دون ان يجيبها ٠ امـا هي فبقيت مبهوتة من تصرفه وظلت في مكانها الى ان توارى بين الادغال واخيرا راته ازاح اغصان الازهار عند السور وخرج من الطريق التي توءدي الى سان سافان ٠ حينئذ اسرعت كالغزال النافر الى احدى شرفات القصر فابصرته وقد جلس في ظل شجرة منفردة عن الطريق ووضع راسه بين يديه فجلست تنظر اليه عن بعد وقلبها يتقطع وهي لا تعلم لذلك سببا وما زال في موضعه الى ان مالت الشمس نحو الغروب فنهض وسار في طريق ارجالاه فاضطربت اسبارنس

وبينما هي تنزل من الشرفة ابصرت والدها الذي قال لها

ـ بحثت في كل مكان ولم اجدك فما الذي خطر لك لتحضري الى هنا

ـ لا شك ان حضوري الى هنا كان غريبا ٠ قالت اسبارنس ٠ على انني كنت اشعر بشدة الحر حتى اني لم اعلم اين اتقيه قالت ذلك

وهي تقدم له جبينها فقبله بشوق ونزل الاثنان الى الحديقة يتنشقان نسيمها العليل وهناك التقيا بروسكوف وعاد الثلاثة الى القصر وبعد العشاء جلسوا قليلا في قاعة الطعام ثم انصرف الدوق باكرا الى غرفته وكذلك كلاديس فانها تظاهرت بالنعاس وذهبت ايضا وبعد ان تأكدت ان الدوق واسبارنس قد ناما انسحبت بخفة الى الحديقة وكان الليل هادئا جميلا والنجوم ترصع القبة الزرقاء والقمر يرسل اشعته الفضية فتنير الجبال والبطاح وتطبع صورة الاشجار والاغصان على الارض كالاشباح · وكانت كلاديس مسرورة لانها عما قريب متجتمع بروسكوف وتقدر في تلك الخلوة ان تشكو اليه حبها المبرح وهي امنة من كل رقيب وبينما هي تتقدم على مهل محاذرة وقع خطاها شعرت بيد طوقت خصرها فالتفتت واذا هي يد روسكوف فتقدم الاثنان الى خيمة هناك وكانت كلاديس قلقة مضطربة لغير سبب تعلمه فنظرت الى مرآة معلقة في الحائط ثم جالت في مخيلتها كلمات والدتها الاخيرة التي قالتها وهي على فراش الموت

« ان هذا الحب سيكون شوءما عليك فاذكري كلامي »

وكانت المرآة قد ارتها بعض تجعدات فوق جبينها فمالت الى روسكوف وقالت

— ان دلائل الهرم بدأت تظهر بوضوح فوق وجهي وانا اخشى ان يكون ذلك سببا لنفورك من حبي · نعم ان روح الشك كانت تقلقني كثيرا ولكن حينما كنت انظرك مشغوفا بي كنت اعتقد ان حبنا لا

ينقضي الا بالموت اما الان فانني اخاف من انقضاء هذا الحب وكم اشتهي لو قدر لي ان اكون زوجتك حيث اكون امينة من اعين الرقباء آه ياروسكوف ليتك يوم احضرت الدوق جريحا في اثناء الحرب الى شارع ميات احضرته جثة هامدة فلو تم ذلك لكنت الان مدام روسكوف ولا اضطر الى اختلاس محبتك وقبلاتك

وفي هذه المرة ايضا تجلت في نفسها وقلبها وفكرها كلمات والدتها المائتة

« ان هذا الحب سيكون شوءما عليك فاذكري كلامي »

ـــ اه من هذا الصوت صرخت كلاديس انني اكاد افقد شعوري لانني اسمع باذني صوت والدتي تنهاني عن هذا الحب وتنذرني بالسوء · قالت ذلك ووضعت راسها الجميل بين يديها واستخرطت في البكاء

اما هو فكان ينظر اليها بكل هدوء ثم اخذ يدها ووضعها فوق شفتيه وقال

ـــ لماذا البكاء والحزن وانا هنا اجثو على قدميك واحلف لك بالبقاء على هذا الحب ولو لم يكن ذلك لما كنت احضر الى سانسافان وفوق ذلك فانك امراة سعيدة ومحسودة من الجميع ومحاطة باناس كلهم امناء على حبك يطلبون رضاك وربما تزوجين اسبارنس في وقتٍ قريب ويكون من زواجها وما يرزقها الله من البنين عائلة كبيرة تتسلين بها

ــ انك تسخر مني بهذا الكلام لان اسبارنس لا تزال في السادسة عشرة من سنيها ولن ازوجها لاول غني يطلب يدها بل اترك الامر لارادتها ومع ذلك لنا الحاضر فلنغتنم فرصته ونتمتع بعشقنا ومحبتنا ولا يزعجنا المستقبل الذي لا نعلم عنه شيئا

وفيما هما يتباثان لواعج الهوى سمعا وقع اقدام في الحديقة فارتجفا كلاهما وقالت له اني اسمع حركة في الحديقة فما العمل ؟

ــ يجب الهرب بكل خفة . قال روسكوف وهو يرتجف ايضا لانه اذا كان الدوق هو القادم فاننا نهلك كلانا

وكانت الاقدام تتقدم نحو الكوخ وهما واقفان فيه لا يبديان حراكا وبدأت ظلمات الليل تتمزق باسهم ضوء الصبح والانجم في الافق تسارع بالانحجاب وهما لا يدريان في اية ساعة من الوقت لان ساعات الحب تنقضي بسرعة كلية واخيرا تقدم روسكوف الى النافذة ووضع راسه بين الستائر ليرى من هو الطارق في تلك الساعة فوجد شابا يتقدم على مهل وبكل تحذر فقال لكلاديس

ــ لا يجب ان تخافي بل اسرعي وعودي في الحال الى غرفتك قبل ان يفيق الدوق لان الساعة الخامسة سوف تدق قريبا وحينئذ ينفضح امرنا

ــ وانت ؟

ــ انا ابقى هنا لانه لو قدر وراني احد فان وجودي منفردا لا يكون فيه مظنة

واذ بقيت جالسة في مكانها تقدم هو الى النافذة ورفع عنها الستائر قائلا

— اذهبي في الحال لان ضوء النهار قد بان وقريبا ينهض كل من في القصر من الرقاد ويرونك خارجة من هذا المكان

اذهبي في الحال

فجالت في عينيها دمعتان كبيرتان وتقدمت على مهل في طريق القصر وهي تشعر بشيء داخلي يقول لها ان حب هذا الرجل لك قد انقضى اما هو فبقي هنيهة في مكانه يتأمل موقف تلك المرأة وحبها له ويشعر بالخطر المحدق به من جراء ذلك فعقد النية على مفارقة القصر والعود الى باريس قبل حدوث حادث مكروه ثم عاد الى النافذة وحول نظره الى الحديقة ليرى ذلك الغريب الذي نبهه وقع اقدامه الى سرعة الانفصال ولم يكد يقع نظره عليه حتى ارتجف وتراجع في الحال الى الوراء قائلا

— كوتياه دكسون · هنا في سان سافان · وفي هذه الحديقة · ماذا تراه يفعل هنا في مثل هذا الوقت من الصباح · نعم يجب ان اعلم سبب حضوره قال ذلك وتقدم بين ظلال الاغصان التي كانت لاتزال مرتسمة على الارض

•••((•))•••

الفصل الثاني

كان كوتياه لما ترك اسبارنس في المساء السابق قد شعر بقوة غريبة جذبت فوءاده نحوها ووجد نفسه غير قادر ان يبعد كثيرا عن ذلك المكان حتى انه لم يكد يصل الى نزل فرنسا في ارجالاه حيث كان يقيم الا اضطر الى مجاراة اميال الفوآد وخرج من الفندق متقدما بطريق القصر وكان الوقت ليلا والجو رائقا والاغصان التي اثملتها حرارة شمس النهار قد تمايلت بتلاعب النسيم العليل وترنحت بخرير الماء الذي يتدفق من نبع بقرب ذلك المكان · وكانت صورة القصر بدأت تظهر امام عينيه مغطاة بغطاء كثيف من ظلال الاشجار· هنالك في احدى غرف القصر كانت تنام اسبارنس البارعة الجمال —الحورية التي كانت قد اقبلت عليه من بين الاغصان والازهار فازدرت بجمالها الفتان حواري الجنان · تلك التي البستها الطبيعة خوذة من الذهب الابريز مصوغة بسلاسل الشعر فوق جبين يفضح البدر وعينين تهزءان بمقل الغزلان

هنالك كان ينام ذلك الجمال الذي اراد كوتياه ان يأخذ مثاله فارتجفت يداه وخفق فوءاده وعاد متراجعا الى الوراء والآن تحت جنح الظلام يعود الى مكانه الاول يحسد التراب لانها تمر عليه ويستنطق

الاشجار عليها ترد صورة ذلك الخيال اليه · وما زال جالسا هناك وهو حائر الفكر مسحور القلب الى ان بدأ الفجر يذهب الافق وتبدلت اوائل حبال غزالة الصبح الى الارض حينئذ تقدم في الحديقة الى ان مر امام الخيمة التي كانت مختبئة فيها كلاديس مع روسكوف فوقف هناك مبهوتا لانه سمع صوتا في داخل الخيمة فظنه اولا صوت بعض الخدم الا انه تبين غلطه في الحال اذ رأى امرأة مهيبة الطلعة مياسة القد فاخرة اللباس خارجة من ذلك المكان وهي تمشي بخفة وتحذر فوقف في مكانه ليرى من هو عاشقها وبعد قليل رأى روسكوف خارجا من المكان نفسه ومتقدما في الطريق التي سلكتها هي فجمد في مكانه حذرا من ان يراه احد

اما روسكوف الذي كان قد تخايل له انه رأى كوتياه دكسون في الحديقة فقد وقف ينظر ذات اليمين وذات اليسار عله يجد ذلك الشخص ويتحقق امره واذ لم يرَ احدا هناك ظن انه كان واهما لانه لم يكن يخطر له في بال ان كوتياه يحضر الى ذلك المكان وهو لا يعرف احدا فسار متقدما في طريقه

اما كوتياه فانه كان قد عرفه وعرف ان تلك المرأة الجميلة لم تكن الا معشوقته فتأثر لحالها وجالت في فكره كلمات والدته الاخيرة التي وان تكن قد تممتها فانه عرف مغزاها وتامل تعاسته الاولى وما كان قد حل به لولا جوست مسمر ومادلين برامون فجاشت في نفسه كوامن الاحقاد على هذا الرجل وجالت في عينيه دمعتان كبيرتان

وكانت الاطيار فوق رأسه بدأت تتغنى على الاغصان واصوات القطعان يسمع صداها بين تلك الاودية والطبيعة بكاملها استفاقت من سبات الليل وقامت تسبح الواحد الديان فمشى اذ ذاك عائدا في طريقه

اما روسكوف فكان قد صعد الى احدى شرفات القصر ونظر كوتياه عائدا في طريق ارجالاه فتأكده حينئذ وتعجب من وجوده هنالك واخذ يفكر في واسطة يستميله بها اليه ويثير نقمته على مسمر ليقدر بواسطته ان يطالب بالارث العظيم

وبينما كان كوتياه يتباعد على مهل عن قصر سان سافان كانت اسبارنس قد قضت الليل محرومة الرقاد تتأمل ذاك الذي كان قد خلب منها اللب وسلب القلب وهي جالسة في نافذة غرفتها تنظر اليه وفوءادها يخفق مع كل خطوة من خطواته كلما تباعد عن عينيها وهي تحاول متابعة النظر اليه

وبينما هي في هذه الحالة رأت والدتها عائدة من خلوة عشقها وابصرت ايضا روسكوف عائدا بعدها بلحظة الا ان نقاوة قلب الفتاة وانشغالها في تلك الساعة بكوتياه عن كل شيء سواه شغلاهـا عن التفكر في سبب وجود والدتها في تلك الساعةمن الصباحمع روسكوف في ذلك المكان · ولما رأت ان كوتياه توارى عن عيانها عادت من مكانها وهمت بالنزول الى الحديقة واذا بروسكوف وقف امامهـا وقال لها

— ماذا كنت ترقبين منذ الصباح ?

— الا اقدر ان اوجه اليك نفس السؤال ؟

— انا كنت ارقب شابا جميلا اظن انه قضى الليل في الحديقة.

— ومن اين تعلم ذلك ؟

— لانني اقوله لك

وانت ايضا قد قضيت الليل في الحديقة

— انك لفي ضلال مبين ياعزيزتي اسبارنس · قال روسكوف وقد ارتجفت اعضاؤه وحالما همت ان تقول له · وقد رايت والدتي ايضا تعود من الحديقة باكرا · شعرت بشيء خفي ضغط على فؤادها فضبطت الكلمات بين شفتيها · اما هو فتباعد عنها وهو يقول في نفسه ان صح ما لحظته من ان اسبارنس تهوى كوتيـاه فهو اقوى واسطـة اقدر بها على امتلاك عواطفها وبواسطتها احصل على ثروة دكسون

وبينما كان روسكوف يفكر بهذه الاحلام الجميلة كان كوتياه قد وصل الى مقره في فندق فرنسا ولم يكد يصل حتى بادرت الخادمة تعرب عن قلقها لغيابه وتقول له ان زائرا حضر لرؤيته من باريس وما اتمت كلامها حتى تقدم جوست فنظر الى كوتياه نظرة الرأفة وترامى على عنقه وهو يقول ياولدي · وبعد ان تبادلا التحية بكل حنو ومودة اخذ كوتياه يقص عليه ما راه من جمال المناظر الطبيعية في تلك البقعة الجميلة من الارض

فاجاب جوست · انني اعرف هذه النواحي معرفة تامة

— اذن انت تعرف قصر سان سافان ؟

ــ نعم اعرفه جيدا لانه كان يخص احد اصدقائي القدماء وهو الدوق دوبان

ــ ان الدوق لا يزال رب ذلك القصر ونقدر ان نعود لمقابلة ذاك الصديق القديم

ــ لا احب ان افعل ذلك ياولدي لانني وجدت ان العزلة خير للانسان وقولي هذا هو نتيجة اختبار طويل فاوصيك به وانا اعلم ان مهنتك تضطرك الى مخالطة الناس ولكن كن متحذرا

ــ اذن انت تعرف الدوق وكان صديقا لك من قبل وقد عزمت الان على ان لا تراه ؟

فسكت جوست هنيهة ثم قال

ــ نعم · ولكن في ذاك القصر سيدة شريفة الخلال جميلة الطلعة رغما عن عرج خفيف في رجلها اليسرى وهي التي كنت احب ان اراها

ــ ليست هي اذن السيدة التي نظرتها خارجة من الخيمة · قال كوتياه في نفسه وبعد سكوت قال

ــ يوجد شيء احب ان اقوله لك وهو انني في هذا الليل لم انم مطلقا لانني كنت اترقب بزوغ الفجر فقادتني الصدف الى امام قصر سان سافان وهناك من ممر في السور الذي يحيط بالحديقة دخلت اليها وكم كان اندهالي عظيما اذ رأيت امرأة جميلة القامة خارجة عند الصباح من كوخ هناك وعائدة الى القصر

ــ وهل كانت منفردة ؟

ــ كلا · فقد كان يرفقتها رجل هو ليونال روسكوف او كاي دكسون

ــ روسكوف هنا وكان خارجا من الكوخ ? قال جوست متعجبا

ــ نعم سيدي

ــ اعلم ياولدي ان في هذا المكان الفخم تقطن امرأة شريرة فاسدة الاخلاق وملوثة بالعار · امرأة متزوجة من رجل شريف وشجاع وهي بالاتفاق مع كان دكسون يخونان ذاك الرجل في وسط بيته وهو يحاول ايضا ان يجعلك تطالب بورثة رجل لم يكن والدك كما قد كتب لك مرارا

ــ ولكن انت تعلم بانني لم احفل به

ــ انا اعلم هذا ولكن يجب ان اعلمك بانني قد قسمت هــذه التركة ثلاثة اقسام قسم لك وقسم لولد تعس اضحي حياتي لوجوده وقسم للفقراء

ولكن كوتياه كان في تلك الساعة شارد البال نحو الفتاة التي قابلها البارحة في الحديقة · تلك التي كانت قد ملكت فوءاده والهته عن كل ما في العالم من الاموال التي لم يكن يهمه منها شيء لانه كان يعتقد بحصوله على الغنى من حرفته الشريفة انما الشيء الذي كان يقلقه هو وجود تلك السيدة مختبئة مع والده في الليل وخوفه من ان تكون هي الدوقة والدة اسبارنس ولكي يريح باله من ذلك قال

ــ هل السيدة التي قلت عنها شقراء ام سمراء ?

ــ هي شقراء كسنبلة القمح وجميلة كالبدر وطاهرة كالملائكة

ــ وما اسمها

ــ روجينا

ــ اذن ليست هي التي نظرتها خارجة من الخيمة

ــ ان التي نظرتها سمراء وطويلة القامة ؟

ــ نعم

ــ هي الدوقة دوبان

فاضطرب كوتياه في داخله لان هذه المرأة الفاسدة التي كانت ترتكب العار في وسط منزلها هي والدة معبودته اسبارنس ثم قال

ــ ومن هي روجينا اذن ؟

ــ روجينا ابنة يتيمة اخذت اولا من والدة الدوقة لتكون الة بيد ابنتها التي تحمل اليوم اسما من اشرف الاسماء في فرنسا وقد كانت روجينا ولا تزال تحتمل كل انواع الشقاء والعذاب وبعد سكوت قليل قال

ــ وهل نظرت ابنة الدوقة ؟

ــ فارتجف كوتياه لهذا السوءال غير المنتظر وقال . نعم نظرتها

ــ اه وكيف وجدتها ؟

ــ جميلة للغاية على انني لا اقدر ان اقول شيئا عن ادابها لانني لم احادثها الا قليلا

ــ وقد حادثتها ايضا ؟

ــ نعم حادثتها · وسرد باختصار كلي حكاية تعرفه اليها

ــ لا شك انها ان كانت تشبه والدتها فهي اية في الجمال على انني اخشى ان يتم فيها قول الشاعر · ان الاصول عليها تنبت الشجر

ــ فارتجف كوتياه لهذا الكلام وقال عرفت انك تعرف الدوقة جيدا وانك تعرف كثيرا عنها

ــ قلت لك كل ما اعرفه عنها على انني اعلم ايضا ان الناس تخطئها كثيرا

ــ ولكن هل يعلق اهمية على كل ما يقال ؟

ــ هذا حقيق اذ كثيرا ما تخطيء الظنون ولكن كل ما يقال عن هذه الشقية هو صواب

وكانا وهما يتحدثان بهذا الكلام قد قطعا مسافة وابعدا عن فندقهما فقال جوست

ــ قد ابعدنا كثيرا فلنعد لئلا نتعرض للزوبعة البادية طلائعها في الافق · قال ذلك ورجع الاثنان في طريق الفندق

ــ ربما صادفنا في احد البيوت القريبة شيئا نأكله · قال كوتياه ولكننا لا نعلم اية طريق تؤدي الى موضع قريب

وبينما هما واقفان على مفرق الطرق يفكران اية طريق يسلكان وقد اكفهر وجه السماء بالغيوم وامتدت زوبعة قوية في الفضاء مر بهما رجل فسألاه عن الطريق فقال

ــ اما التي على اليسار فانها تؤدي الى اوبول ولا يمكن الوصول

اليها في اقل من ساعتين · والتي على اليمين تؤدي الى سان سافان التي لا تبعد اكثر من نصف ساعة على انني اخاف ان لا تتمكنا من الوصول اليها قبل مرور الزوبعة وربما اضطررتما للالتجاء موقتا الى احد الكهوف

— اذن فلنتقدم الى سان سافان · قال كوتياه وهو يعلل النفس بلقيا اسبارنس هناك ولعلنا نجد عربة تقلنا الى الجارا التي لا تبعد كثيرا على انهما لم يكادا يتقدمان قليـلا في طريقهما حتى قصفت الرعود القوية ولمع البرق وتساقط المطر بغزارة غريبة فبللهما الى العظم وهما لا يدريان ماذا يعملان ولا اين يتخذان لهما ملجأ وما زالا سائرين في طريقهما الى ان ابصرا عن بعد بيتا قائما في وسط حرج فسارا اليه بكل قوتهما الى ان وصلا وقرعا بابه وقبل ان ينتظرا الجواب فتحاه ودخلا الى غرفة هي عبارة عن كل البيت فابصرا بقرب النار التي تتأجج في موقد بصدر الغرفة سيدتين تنشفان اثوابهما المبللة من المطر وكانتا قد انتبهتا الى فتح الباب ونظرتا اليه وللحال سمع صوت يمازجه الفرح والتعجب قائلا

— جوست ! جوست ! —

— روجينا ! روجينا الحبيبة !

وللحال تقدمت الفتاة نحو جوست تضم يده بين يديها بينما كانت اسبارنس لا تقدر ان ترفع نظرها عن كوتياه

— مداموازال دوبان · قالت روجينا وهي تشير بيدها الى جوست نحو اسبارنس

— ابنة كلاديس · قال جوست · وهي جميلة كوالدتها بل اجمل

— اما اسبارنس فكانت وهي واقفة بقرب النار لا ترفع نظرها عن كوتياه وهي تقول في نفسها ان الله قد ارسله الي ثانية بواسطة هذه الزوبعة وانني اشعر بانه سوف يعطيني اياه · وهكذا فان قلب تلك الابنة كانت تتأجج فيه في تلك الساعة نار المحبة التي كانت تزيد ضراما عن نار الموقد

اما جوست وروجينا فتقدما الى قرب النافذة الوحيدة التي كانت تضيء الغرفة تاركين كوتياه واسبارنس لوحدهما وكانت روجينا تفتخر في تلك الساعة بتربيتها اسبارنس وتقول انني انا وحدي التي ربيتها ياجوست فكيف تجدها

— بديعة للغاية

— انني اوءكد انها ليست كوالدتها تجلب الشقاء الى من يتزوجها بل هي ملاك ارضي تجلب الهناء والراحة للذي يقترن بها

— انا لست من رأيك · قال جوست · واخشى ان تكون الابنة كالوالدة لان دم الشر يجري في عروقها ولذا فترينني لا اقدر ان انظر اليها دون ان يقوم في فوءادي شيء من الحقد لانها تشبه والدتها

— اه · ان من الاثم الحقد على هذه الابنة الملائكية التي تقاسي انواع العذاب من اهمال والدتها المشغولة عن كل شيء بمسرتها

ــ وكيف حال الدوق ؟

ــ هو مسرور على قدر ما يكون السرورلرجل يموت غما

وكانت اسبارنس وكوتياه لا يزالان واقفين تجاه بعضهمـا يترعان كأس المحبة طافحة وهما صامتان لا يسمع بينهما الا خفقان القلوب ولا يرى الا مغازلة العينين وكان جوست وروجينا بمعزل عن هذه الزوبعة التي كانت ثائرة بين هذين الفوءادين اللذين كانا لا يزالان خليين من تباريح الهوى ولواعج الغرام يشغلهما ذكر تلك الايام الماضية فقالت روجينا

ــ لا ازال ياجوست افكر فيك وفي الولد فهل وقفت له على اثر

ــ ابدا

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت · لقد تعبت كثيرا لايجاده وبكيت على حاله فيجب ان يكون الان في الثامنة عشرة من سنيه

ــ نعم ثماني عشرة سنة ربما اضطر الى قضائها بالشقاء والتعاسة رغما عن كونه ابن دوقة ورجل غني يجب ان يفتديه بكل غناه · نعم ان المال وحده لا يجعل الانسان سعيدا فانني مع كل هذا الغنى لا اشعر بالسعادة مطلقا واحس ان فوءادي قد جمد من يوم انهيت كل علاقة مع كلاديس

ــ ومع ذلك فان الرجل الذي يصرف الاموال الطائلة لراحة الناس وينشيء المعاهد العلمية ويبني المستشفيات والملاجيء ويصنع كل

انواع المعروف والاحسان يجب ان يـكون سعيدا · قالت روجينا · وانت هو ذاك الرجل

— ان هذه الماتي جميعها يجب ان يعود الفخر بها الى المرأة التي اسعفتني بذلك

— هي مادلين برامون · قالت روجينا

— نعم هي بالذات وانت تعرفينها لانه لا يوجد احد لا يعرف الابنة التي تكرس كل مالها واوقاتها لاعالة المنكوبين واغاثة البائسين

— نعم لم انسها · قالت ذلك ووضعت يدها بلطف على كتف جوست قائلة اراك لما لفظت هذا الاسم قد ارتج صوتك وابرقت عيناك فانك ولا شك تحبها

— اه ما هذا الكلام ياروجينا · الم اقل لك ان كلاديس اماتت فوءادي

— انت تحب مادلين قالت الابنة ضاحكة وعسى ان يكون هذا الحب المتبادل واسطة لمكافأتك على كل حسناتك

— اعيد لك القول ان فوءادي قد مات

— ان كنت شططت بحكمي فاسمح لي ياجوست بظني هذا الذي كنت اعتقده لخيرك

وكان المطر قد توقف عن الانسكاب فنظر جوست الى كوتياه وكان هذا لا يزال جالسا تجاه اسبارنس ينظر اليها بكل هدوء واشار اليه بالذهاب

ــ ان والدي يستدعيني ٠ قال كوتياه ٠ وهو يهم بالنهوض

ــ اتذهب الان ؟

ــ نعم ٠ وكان هذا كل ما دار بين هذين الفتيين من الحديث في كل مدة محادثة جوست وروجينا

ــ ربما متتركان الجارا عما قريب

ــ قد لا يكون ذلك قريبا لان لدي عدة رسوم اريدان اخذها ومن جملتها رسمك الذي اريد ان اتممه رغما عن انك لا تكونين حاضرة فاستعيض عن حضورك بوحي فوءادي

وبينما جوستوكوتياه يهمان بالخروج اذ بالباب قد فتح غفلة ودخل منه روسكوف

الفصل الثالث

ــ لم اكن اتوقع ان اراكم محاطين برفقة كهذه٠ قال روسكوف وهو ينظر الى الابنتين

ــان الزوبعة قد جمعتنا كلنا هنا ٠ قالت روجينا

اما مسمر فبقي جامدا في مكانه دون ادنى تغير او حركة بعكس كوتياه الذي كان قد تراجع الى اخر الغرفة واصفر لونه اصفرارا اقلق اسبارنس فسألته السبب

ـ لا شيء اوجب ذلك الا دخول هذا الرجل على غفلة · قال كوتياه وهو ينظر اليها نظرة الرأفة ويفكر في نفسه ان هذا الرجل هو معشوق والدتها الذي كان قد رآه خارجا واياها في ذاك الصباح من خيمة الحديقة وللحال تذكر كلام مسمر · ان الابنة قد تكون نظير الوالدة · فمال اليها وقال

ـ لقد حانت ساعة الذهاب فاستودعك ياسيدتي

ـ بحرامة الله ياسيدي · قالت الابنة · وقد تهدج صوتها واثرت فيها المفارقة المرة

ثم تقدم كوتياه نحو روجينا وانحنى امامها وخرج هو وجوست من الغرفة · ولما صارا خارجا مال روسكوف نحو الابنتين وقال بلهجة المستهزىء · حقا ان هذا الاجتماع غريب في مثل هذا المكان الا ان يكون له سبب

ـ انا ارجو منك ياسيدي · قالت روجينا · ان تذكر انه يوجد هنا ابنة يظهر انك تتجاهل وجودها

ـ ابنة لا تهتم الا بعقد الاجتماعات السرية · قال روسكوف

ـ انا ارجو منك بل اتوسل اليك · قالت روجينا ان تذكر وجود ابنة الذين قبلوك ما بينهم بكل اكرام واعتبار · وكن على ثقة بانه اذا علم الدوق دوبان بطريقة الحديث الذي تسرده بحضورها لا تقدر بعد ذلك على البقاء ساعة في قصر سان سافان

ـ في كل الاحوال لن يصل الخبر اليه منك انت التي تسعين

للاجتماع برجل غريب وتساعدين على ايجاد الحب بين ابنته وبين شاب لا يزال يخطو خطواته الاولى في طريق العلم

فاثر هذا الكلام في اسبارنس وقطبت حاجبيها ومالت نحو روجينا قائلة

ــ هيا بنا لنذهب

ــ اذن انت ايضا تغضبين علي · قال روسكوف · انا صديق والدك لانني اعترض على وجودك في هذا المكان مجتمعة برجل غريب حقا انك متسعدين بمرافقة روجينا

اما الابنتان فكانتا لا تريدان ان تسمعا شيئا فذهبتا

ــ اتذهبان · قال روسكوف

ــ نعم اجابت اسبارنس · واننا نطلب اليك ان لا ترافقنا

بعد ذهاب الابنتين وقف روسكوف مدة يتأمل فيما اذا كانت روجينا قد عرف قلبها الحب من قبل وفيما اذا كانت زوابع الغرام تثور في قلب ذينيك القتسيين كوتياه واسبارنس وعند هذا الفكر الاخير اخذ يبني من وراء حبهما الامال

اذا كان كوتياه حقيقة يحب اسبارنس فالفوز على جوست مسمر وانتزاع ورثة دكسون منه يكون امرا مقررا لانه بنفوذه على قلب الدوقة والدتها يقدر ان يدفع الابنة لاجبار كوتياه للمطالبةبورثة ذاك الرجل الذي يحمل اسمه وكان المطر قد انقطع تماما فتقدم في الطريق وهو يسرع الخطى عله يلحق بهما الا انهما كانتا قد ابعدتا عنه

وبينما هو سائر في منتصف الطريق التقى بالدوق دوبان يمشي على مهل فقال له

ــ نظرت الان روجينا واسبارنس مبللتين من المطر

ــ وانا ايضا قد مررت بهما ولكن كيف تركتهما تعودان منفردتين

ــ انهما كانتا على اهبة الذهاب لما دخلت بيتا مبللا ايضاوفوق ذلك فقد عرضت عليهما رفقتي فرفضتا

كان الدوق رغما عن مظاهر القوة والشباب التي كان يتمتع بها قبلا قد تقوس ظهره وابيض شعر رأسه وظهرت على وجهه دلائل الغم والكدر من تصرف كلاديس معه الا انه مع كل ذلك لم يكن يخطر في باله قط انها مع الرجل الذي كان اصل سعادته ونعيمه يلوثان شرفه وكان كل اهل الجيرة هناك وكل خدم القصر يعلمون بذاك العشق ولا يجسر احد منهم ان يبوح به الى الدوق بل كانوا ينظرون اليهما وهما عائدان من بين تلك الخمائل والادغال يقتــلان الوقت بتنشق النسيم البليل فيحيون الدوق بكل احترام واكرام ويحولون نحو رومكوف نظرات البغض والاحتقار الا انه كان حينئذ بعيدا عن كل هذه الملاحظات يفكر في حاله وهو يأمل الحصول على كل ثروة دكسون بواسطة عشق كوتياه لاسبارنس

ولما عادا من نزهتهما في ذاك النهار كانت الخدم قد اعدت مائدة الغداء فولجاها وبعد ان قضيا مدة على الطاولة مجموعين يتحدثان بامور شتى صعد الدوق الى غرفته يقرأ تحاريره وجرائده وذهبت

روجينا واسبارنس الى غرفة الموسيقى تقضيان بعض الوقت حينئذ اخذ روسكوف الدوقة من يدها وتقدم بها نحو الحديقة قائلا

— يوجد اشياء كثيرة اريدان اطلعك عليها وهي على جانب كبير من الاهمية

فارتجفت الدوقة وقالت · حقا انك دوما تأْتيني بامور غريبة

— اسبارنس عاشقة

— اسبارنس ? قالت الدوقة مندهلة·ولد·ابنة ست عشرة سنة ان ذلك لا يكون

— ولكن هي الحقيقة

— اه • انت احمق فان اسبارنس لا تعرف احدا ولا تنظر احدا هنا فكيف يكون ذلك

فضحك روسكوف وقال

— اذا كنت لا تعلمين شيئا فاسأْلي روجينا لعلها تطلعك على واقع الحال

— روجينا تعلم بعشق ابنتي !

— نعم تعرف ذلك

— اذن يجب ان اعرف كيف اتصرف فقل لي في الحال كل ما تعلمه بهذا الخصوص

— في هذا الصباح وجدت روجينا واسبارنس في كوخ منفرد

— لا شيء من الغرابة في ذلك لانهما تخرجان سوية

— ولكن لم تكونا وحدهما بل كان هناك ايضا جوست مسمر وكوتياه دكسون وقد لاحظت ان وجودي هناك كدر هذا الاجتماع

وكانت كلاديس حين سماعها اسم مسمر قد ارتجفت واصفر وجهها فقال لها روسكوف ضاحكا

— لا اعلم لماذا اضطربت حين سمعت اسم مسمر

— لم اضطرب لاسم مسمر بل ربما كان ذلك من تأثير هذا الحديث

اما هو فلم يقتنع بهذا الجواب ولاح له ان كلاديس تعرف مسمر وانه يجب ان يقف على كل شيء · اما هي التي كانت قد عرفت ما يجول في خاطره فقد خافت ان يكون مطلعا على شيء من سيرة حياتها الماضية غير انها كانت متيقنة بان سرها لا يعرفه احد الا روجينا التي لا تبوح به لمخلوق فقالت

— انا واثقة بان ابنتي اذا كانت حقيقة عاشقة فهي غير عاشقة مسمر

— كلا انما هي عاشقة شاب في اول العمر وصاحب شهرة واسعة فقد نال الجائزة الاولى في فن التصوير من رومية هذه السنة واسمه كوتياه دكسون

— مصور ? رجل عديم الشرف لا يقدر ان يطلب يد مداموازال دوبان

— ولماذا ?

— لانني اريد ان اجعل ابنتي سعيدة ولا اوافق ابدا على هذا الحب

ــ ومع ذلك فان هذا الحب واجب وضروري

ــ نعم . انك غير عاقل ما دمت تقول ذلك ومع هذا فبما اننا منفردان الان وبمأمن من كل احد فاشرح لي زيادة عن هذا الحب وعن ضرورته

فسكت روسكوف قليلا ثم قال

ــ انا اعرف جيدا عشيق اسبارنس

ــ انت الذي عرفتها بكوتياه دكسون او رافال الموهوم ؟

ــ ان كوتياه هو ولد امرأة عرفتها في صباي واحببتها كثيرا

ــ هذا خبر جديد · قالت كلاديس ولاحت على وجهها دلائل الغيرة

ــ لا شيء يوجب الاستغراب · قال روسكوف لانني لما عرفت والدة كوتياه كنت لا ازال بعيدا عن جمال هذه الطلعة فقد كان ذلك من نحو العشرين سنة

ــ اني مقتنعة بذلك ولكن يهمني معرفة سيرتك فارجو منك اتمامها

ــ متعلمين كل شيء قال ذلك وتقدم نحوها وقال بصوت خافت

ــ ان كوتياه هو ولدي

ــ ولدك انت ؟ ولدك ؟

ــ نعم

ــ وقد حلمت بــان تزوج ابنتك اسبارنس ؟ حقا انك جاهل

يااليونال فهل تحسب انني ازوج ابنتي هكذا ؟

ــ ومع ذلك فهما يحبان بعضهما كثيرا ورضاك عن ذلك يجعلهما سعيدين

ــ ان ذلك لا يكون · قالت كلاديس وقد جحظت عيناها · فانا اولا لا ازوج ابنتي وهي في السادسة عشرة من سنيها وفوق ذلك هل تظن انني قضاء لماربك ارمي بها هكذا ؟

ــ انا اعلم لماذا لا ترضين · قال روسكوف ضاحكا ؟

ــ لماذا ؟

ــ لانك تخشين ان تصيري جدة

فجالت في عينيها دمعتان كبيرتان وتذكرت كلمات والدتها عند موتها

« ان هذا الحب سيكون ويلا عليك يا كلاديس »

وكانت هذه الكلمات ترن في اذنيها بكل وضوح حتى انها تراجعت الى الوراء وقالت

ــ انك تجلب لي الشقاء

ــ ولماذا ؟ الانني قلت لك بان ولدي كوتياه يعشق ابنتك اسبارنس · وانك اذا رضيت بوقوع هذا الزواج توءلفين بين قلبين وتجعلينهما سعيدين · او انك لا تزالين متأثرة غيرة على عشقي الماضي لوالدة كوتياه التي كنت احبها والتي كانت تحسب اجمل امرأة في كل اوستراليا · وهل يجب ان اقول لك ان والدة كوتياه هي امرأة

المثري الشهير دكسون الذي يعرفه كل اغنياء العالم والذي لما عرف ان كوتياه ليس ولده طرده مع والدته ولكي يتم الانتقام من هـذه الخيانة اوصى عند موته بثروته كلها الى جوست مسمر

فبهتت كلاديس لدى هذا الكلام واذ رأى روسكوف اهتمامها بحديثه قــال

ـ وقد اهتدى مسمر الى كوتياه وتسنى له التسلط على ارادته وافكاره حتى لا يطالب بورثة دكسون الذي هو وريثها الوحيد بنظر الشرع قال ذلك وهو يحاذر ان يبين لها علاقته مع دكسون ثم قال . ومع ذلك فان ثروة دكسون وافرة تبلغ نحو المائة مليون من الذهب وعدد وافر من الحجارة الكريمة والوف من المعادن والبضائع والمزارع والمراكب والعبيد كل هـذه الامـلاك تخص الان جوست مسمر ويرفض ولدي المطالبة بها وكلها تكون لنا لو اردنا

فاندهلت كلاديس لهذا الكلام وقالت

ـ كل هذا الغنى هو الان لجوست ؟

ـ نعم هو متمتع الان بكل هذه الثروة والا فمن اين له ان ينشيء المستشفيات ودور العجزة ويعول الفقراء والنساء كما تذكر الصحف كل يوم ؟

ـ اهذا ممكن ؟

ـ ليس هذا ممكنا فقط بل هو الحقيقة بعينهـا ولهـذا السبب وجدتني اشيد من الامال قصورا حينما نظرت كوتياه دكسون يحادث

امبــارنس ومتى جــاء يطلب يدها نشترط عليــه ان يحصل اولا على ورثة دكسون الذي هو والده تجاه الشريعة لنجيب طلبه

— واذا تم له ذلك ؟

— كل شيء يكون له · اي لنا

— حينئذ قالت كلاديس منذهلة ؟

— حينئذ ربما تمكنا من تحقيق رجائنا بالاجتماع الدائم وعدم الانفصال

— ما اجمل هذا الحلم ولكن قبل التمكن من تحقيقه يجب ان يصادق الدوق على هذا الزواج وانا اخاف ان لا يفعل نظرا لما اعلمه من تعلقه بمبادئه

— الويل له اذا رفض · قال روسكوف وقد احمرت عيناه

— سانظر في ذلك واذا قدر كوتياه ان يحصل على الورثة فانني اقنع الدوق بان يسمح باقترانهما لانني اعلم مقدار حبه لامبــارنس ورغبته في رضاها وراحتها قبل كل شيء وحينئــذ نأمن شر الفراق ونثبت في حبنا · اليس كذلك ؟

— نعم حينئذ نثبت دائما

•••((•))•••

الفصل الرابع

بينما كانت الدوقة وروسكوف يبنيان من الاماني قصوراشاهقة كان جوست وكوتياه وقد صفا الجو من الغيوم بالهواء النقي الذي هب من وراء الجبال يتمشيان على مهل في حديقةالفندق وكل منهما غارق في بحار من الافكار وشد ما كان افتكار كوتياه وانزعاجه لروءيته في ذاك النهار الرجل الذي قدر بحكم الطبيعة ان يكون والدا له والذي لاجله احتمل مع والدته كل انواع الشقاء والعذاب وهو الان عاشق لوالدة الفتاة التي حلت في سويداء فوءاده واذ لحظ جوست ما كان يجري في افكاره قال

— قضت الظروف ان تجتمع مرة اخرى بهذا الرجل لتعلم مقدار دناءته وخساسته فوق ما علمته عن عشقه الدوقة دوبان كما شاهدتهما خارجين عند بزوغ الفجر من كوخ في الحديقة وانا اعلم ايضا انك قد علقت بحب ابنة الدوقة الجميلة التي اجتمعنا بها حينا قصيرا وان كانت لم تقر به بعد الشفتان فان اثاره ظاهرة بوضوح في عينيك واني اخشى ان يورث لك هذا الحب كثيرا من المتاعب فهل انا واهم ؟

— كلا . فانا احب مداموازال دوبان ولكنني اقدر ان اقتلع بذور حبها من فوءادي لانه لا يجوز ان اعشق فتاة تكون والدتها معشوقة لوالدي

ــ اه . لقد حققت ظني الحسن فيك ياولدي . اذن يجب ان تتجنب هذا الحب قبل تمكنه منك وسنترك الجارا في هذه الليلة بالقطار هربا منه . قال ذلك ودخلا الفندق فاستراحا قليلا وسافرا في ذات الليلة الى باريس

مضت ايام لم يحدث فيها تغير في قصر سان سافان الا اضطراب داخلي في صدري روسكوف وكلاديس لعدم نظرهما كوتياه بعد ذلك الحين لان هذه المرأة بعد ان فكرت طويلا في حديث روسكوف وارائه وجدتها الواسطة الوحيدة لضمان اجتماعها به فصار الاهتمام لاتمامها من اهم واجباتها وكانت تخاف ان لا يكون كوتياه يحب اسبارنس فتنهدم كل تلك الامال فقالت لروسكوف

ــ اتظن انه قد قضي الامر ولا يجب ان نفكر بعد بتلك الاحلام اللذيذة مع كون رجائي باتمامها كان كبيرا . نعم ان كوتياه قدذهب من هنا ولكننا لن نبقى منفردين في هذا القصر فقد قارب فصل الشتاء الذي نعود فيه الى نزل شارع ميات في باريس وهناك لا يصعب علينا الاجتماع بكوتياه بالنظر لمهنته وشهرته وانا اعلم ان ما تريده المرأة يريده الله واذا كانت اسبارنس تحب كوتياه حبا جما فانها بجمالها تقدر ان تستجلبه اليها

ــ انا اعلم ما تقدر عليه المرأة العاشقة

ــ ولكن يجب ان تتحذر من مسمر

ــ نهلكه اذا اقتضى الامر

— حسن · ولكن مسمر يملك الآن الثروة والشهرة فمن الصعب اهلاكه وفوق ذلك فقد تمكن من امتلاك ارادة كوتياه تماما حتى اصبح يديره كيف شاء ولولاه لكان كوتياه الان معنا يكتب الى مسمر بقطع كل علاقة معه ولكن حضوره الى الجارا قد هدم كل تلك الامال

كانا يتكلمان بهذا الحديث وهما في طريقهما الى الجارا حتى وصلا الى فندق فرنسا فنظر روسكوف هناك ولدا تقدم اليه وقال له

— اراك قد حضرت الى جهاتنا

— نعم سيدي وقد وجدت عملا في الفندق هنا منذ خمسة عشر يوما وكان هذا الولد خادما في احدى قهاوي باريس وقد عرفه روسكوف سابقا فقال له

— انني مسرور لوجودك هنا واحب ان استعلم منك شيئا

— اكون سعيدا بخدمتك فما الذي تريده· قال الولد

— هل ان كوتياه دكسون لا يزال باقيا هنا ؟

— ذهب من مدة وقد تأسفت لفراقه لانه كان كريما وسخيا

— اشكرك على افادتك هذه · قال روسكوف وترك يد الولد فرنكا وذهب نحو الدوقة

— ماذا وجدت ؟ قالت له

— تهدم كل شيء لان كوتياه قد ذهب

— انا متيقنة باننا سنجتمع به في باريس

— ان جوست مسمر سيرقب خطواته وتصرفاته

ــ اه من هذا الرجل · قالت كلاديس وقد قطبت حاجبيها ·

ــ يجب ان نسلو كل شيء · قال روسكوف لان بذهاب كوتياه تهدم كل امل

ــ فسكتت كلاديس هنيهة ثم هزت كتفيها وقالت

ــ ان كوتياه سيعود

ــ لا اظن ذلك

ــ انا متيقنة من عوده وسترى

وبعد ان قضى كوتياه برفقة مسرخمسةعشر يوما عادفاستفرص الفرص وانقاد لاهوائه ورجع الى الجارا لان صورة اسبارنس الجميلة لم تبرح من مخيلته في كل تلك المدة فكان دائما يتصور تلك الطلعة الجميلة والمبسم اللطيف · وترن في اذنه تلك المحادثة اللذيذة ولذا خدع جوست اتباعا لاهواء فوءاده وعاد الى الجارا واول شيء فعله بعد نزوله في فندق فرنسا كان الذهاب الى ضواحي قصر سان سافان ولكن عبثا كان يحاول ان يرى احدا هناك فان المكان كان مقفرا لولا بعض الحرس القليلين الذين كانوا يقيمو نعلى حراسة القصر فدخل الى بيت هناك وسأل اصحابه عن سكان القصر

ــ كل العائلة في لورد · قالت ربة البيت · ومن المنتظر عودهم في اخر هذا الاسبوع

فخطر له ان يعود الى باريس غير ان رغبته في مقابلة اسبارنس كانت فوق ارادته حتى انه لم يقدر على حفظ ما تعهد به لجوست

بعدم الرجوع لروءيتها فعاد الى فندقه حائرا في امره حزينا كيف ان الظروف تحول دون روءيته تلك التي كان يحبها واخيرا قام متجولا بين القهاوي المتفرقة هناك فدخل احداها وجلس الى طاولة يفكر في امره وكان جالسا الى جانبه على طاولة ثانية شا بمرتد ثوبا باليا يشرب كأس حليب ولوجودهما منفردين في تلك القهوة كانا يتبادلان النظرات من حين الى آخر وكان هذا الشاب الغريب يضع يده فوق فمه ويسعل سعالا قويا يورد لوقت قصير وجنتيه المصفرتين فقال له كوتياه وقد احب ان يقتل الوقت باي شيء كان

ــ اراك متعبا من هذا السعال وارى ان هواء الجبال البارد لا يوافقك

ــ ماذا يهم · قال الغريب ضاحكا · فالموت لا يأتي الا مرة واحدة وبقدر ما يكون سريعا يكون فيه راحة للمتعبين نظيري

ــ ولماذا تقطع الرجاء وانت لا تزال شابا · قال كوتياه وهو يتقدم نحوه · وكانا لا يزالان ينظران الى بعضهما بعضا وكأن غشاوة بدأت تتمزق عن اعينهما قال الغريب

ــ اظن انني اعرفك ياسيدي فقد قابلتك منذ ست او سبع سنوات في باريس

ــ وانا ايضا اجاب كوتياه

ــ على انني لم اكن في ذاك الوقت الا ولدا صغيرا· قال الغريب

فهل تذكر وقت حصار باريس كيف ساعدتك على الوصول الى بيتك وانت جريح خارجا من المستشفى

ــ الان تذكرت جيدا واسمك كوكوس · اليس كذلك · وكنت تبيع تماثيل

ــ نعم سيدي · وانا ابيعها الان ايضا لدى سنوح الفرص · وفوق ذلك ...

ــ وماذا فوق ذلك ؟ لماذا لم تقل لي بحريــة ؟ السنا اصدقاء من قديم ؟

ــ انني في اوقات الفراغ ارسم بعض الصور التي تروقني

ــ اذن نحن اخوة في الصنعة ايضا

ــ ولكن انا لا اظهر رسومي الا لكازال فقط لان من الحماقــة المحاولة لاكون مصورا بينما انــا مرات كثيرة احتــاج الى القوت الضروري

ــ واين تسكن الان ؟

ــ اتنقل في كل موضع وقد حضرت الان اطلب اذنا من شيخ البلد لتمثيل بعض الالعاب المضحكة غدا هنا وقد حصلت على الاذن فان كنت لا تزال باقيا الى الغد فارجو منك الحضور لتشاهد ما يسرك وهل انت باق في صنعتك القديمة ــ حفار ؟

ــ كلا · فقد تركت تلك الصنعة وانا الان استاذ في التصوير وقد حصلت على الجائزة الاولى من رومية

ــ فاحمر وجه كوكوس وقال

ــ استاذ في التصوير · الجائزة الاولى من يومية · اه احلام حياتي اللذيذة · وهل فقدت والدتك وانت وحدك الان ؟

ــ نعم منذ ست سنوات

وسكت الاثنان غارقين بالافتكار في الماضي وبعد قليل قال كوتياه

ــ وانت هل لا تزال والدتك في قيد الحياة ؟

فانطبع فوق شفتي كوكوس ابتسامة محزنة وقال

ــ انا لم اعرف والدتي مطلقا

ــ ووالدك ؟

ــ آه · هذا انشده ولا اجده ـ قال كوكوس متبسما ابتسامة تمازجها الدموع · فان كل ما لي في العالم هو كازال التي متراها غدا مرافقة لجوقنا

ــ والى اين تذهبون من هنا ؟ ·

ــ سنمكث هنا بضعة ايام وبعدها نتوجه الى القصور المتفرقة قال ذلك واخرج من جيبه دفترا صغيرا وقال

ــ يوجد هنا عدة اسماء وقراء · سان سافان قصر اللبوق دوبان هناك في ذلك القصر الشاهق حيث يوجد ابنة جميلة يقال انها على اهبة الزواج بسفير

ــ فاصفر وجه كوتياه وقال · ومن اين تعلم ذلك

— سمعت امس هذا الخبر في سان سافان

— وماذا كانوا يقولون ?

— كانوا يقولون ان هذا النصيب هو بغاية الموافقة فان الابنة جميلة وشريفة والرجل غني وذكي وفوق ذلك فانهم كانوا يمتدحون من كرم اخلاق وادب الدوق على قدر ما كانوا ينكرون ذلك على الدوقة

— وهل كانوا يقولون عن هذا الزواج انه مقرر ?

— على قدر ما عرفت انه مقرر

— اه · قال كوتياه · ووضع يده فوق فوءاده ليسكن ضرباته · سيزوجون اسبارنس · ولاول مرة قدر ان يعرف كم كان يحب ابنة الدوق وللحال دفع ما عليه ومال نحو كوكوس قائلا

— ساراك غدا بدون ريب الا انني ارجو الان ان تقبل هذه القيمة الزهيدة كذكر مني وناوله ورقة مالية بمائة فرنك فاسود وجه الفتى ورد بيده كوتياه قائلا

— انني لا استعطي ياسيدي

— قصدت ان افي بعض معروفك واسعفك قليلا كما اسعفتني انت سابقا · قال كوتياه · فلماذا ترفض تقدمتي الزهيدة المتقدمة بقلب صاف ونية حسنة

— كن دوما تحت معروفي · قال كوكوس · واعذرني على رفضي

فودعه كوتياه متعجبا من افكاره اما هو فبقي مدة جالسا في مكانه يتأمل كيف ان هذه الحياة هي سعادة لاناس وشقاء لاخرين واخيرا سأل الخادم عن حسابه فقال له

ــ لا شيء · لان الشاب الذي كان هنا دفع المطلوب منك

ــ هذا لا يعنيني فانني لم اطلب اليه ذلك فخذ هذه الدراهم وابقها لحسابك ان احببت · قال هذا ومضى لمقابلة فنطوش ورفيقه بوادو وكازال الذين كانوا في انتظاره وحين وصوله اخبرهم بانه اخذ اذنا لاقامة الالعاب في الغد

الفصل الخامس

لا بد لنا لبيان قصتنا من الرجوع الى السنين الماضية لنعرف ماذا كان قد حل بذاك الولد الذي رأيناه الان شابا يتجول برفقة فنطوش وبوادو وكازال بعد ان كان قد تخلص منهم على ما بينا سابقا

كان كوكوس بعد ان اصابت تلك القنبلة محبسه خرج منه خائر القوى من الضعف والخوف والجوع وسار وهو لا يدري كيف يتوجه حتى وقع الى الارض مغشيا عليه وبقي على حالته مدة طويلة الى ان صودف مرور احد الناس فراه على تلك الحالة فاخذه الى مستشفى القديس انطونيوس وهو غير بعيد من هناك وبقي الولدتحت الخطر نحو اسبوعين وفي صبيحة ذات يوم افاق فوجد بالقرب من

سريره رجلا ينظر اليه بكل غضب والى جانبه فتاة تتأمل ملامح وجهه الضعيف وتذرف الدموع السخينة

— ها نحن ٠ قال فنطوش فقد قرأنا نهار البارحة في اخبار الجرائد ان ولدا فقيرا وجد ملقى بحالة الاغماء على الطريق وانه نقل الى هنا فقالت كازال لعل ذلك الولد يكون انت وقد وقع ظنها في محله ٠ اما الابنة فكانت قد تقدمت اليه ووضعت رأسها فوق جبينه تبرد حرارته بدموعها السخينة فقال لها فنطوش

— كفى بكاء ٠فانحالته حسنة وسنحضر يوم الاحد القادم لاخذه واذا كان ولدا مطيعا ومجتهدا فانني اعده بتناسي كل هفواته الماضية

وبعد ان مكثا عنده هنيهة وتوسلت كازال الى الراهبة الساهرة على تمريضه وملاحظته موصية به انصرفا عازمين على العود في الاحد القادم لاخذه ٠ وهكذا صار وعاد كوكوس الى كوخ فنطوش الذي كان قد اتفق مع بوادو على الشغل بالاشتراك والتجول في تلكالجهات للشعوذة والاستعطاء وكان قد تعزى على وجوده مع فنطوش وبوادو بقربه من كازال

ومضت الايام وهم يتجولون في تلك الجهات حتى ساقهم الطواف الى ارجالاه القريبة من قصر سان سافان

وكان كوتياه منذ سمع الخبر بقرب زواج اسبارنس قد انفرد في غرفته كئيبا حزينا وقضى معظم ليله وهو بين اليقظة والرقاد وطيف اسبارنس لا يبرح من امام مخيلته

ولم تكد تتمزق غياهب الظلام باسلاك الصبح الفضية حتى خرج من غرفته وهو يشعر من نفسه بعصيانه نصائح جوست وحضوره ثانية الى ارجالاه رغما عن ارادته وتبعا لاحكام الحب الشديد . وكانت خطواته تقوده عن غير قصد منه في طريق سان سافان والصبح قد طلع والطريق الموءدية الى هناك محاطة بكل جمال الطبيعة ومخصصة بطبيعة الجمال فكان يتقدم على مهل وهو مطرق براءسه الى الارض وفكره حائم حول قصر دوبان رغما عن وقوفه على عشق الدوقة لروسكوف . نعم كان يعلم جيدا بانه يتقدم نحو جحيم . وان عائلة الدوق دوبان بوجود كلاديس فيها وروسكوف هي غير طاهرة . ومع ذلك لم يكن ليقوى فوءاده وكان في منتصف الطريق قد وصل الى مقبرة هناك محاطة بسور من السرو ومطوقة بطوق حديدي على الدائر فوقف قليلا امام الباب الذي كان مفتوحا ثم دخل يتقدم بين تلك القبور وهو يحاذر ان يزعج ساكنيها بمروره على رفاتهم ويتاءمل كيفية انتهاء هذا الكون وتلك المساكن التي كانت الزوابع الكثيرة قد هدمت بعض ما شادته الاحياء من التماثيل والصلبان على ارماس انسبائهم تذكارا لهم واعتبارا لمماتهم . ورأى في وسط تلك المدينة الساكتة في وسط تلك المحطة التي يمر بها المسافر الى دار الابدية ضريحا فخما والى جانبه امراءة جاثية تصلي وتضع فوقه باقة من الازهار . من هي هذه المراءة عرفها للحال . هي اسبارنس . اما هي فانها نهضت من موضعها وتقدمت على مهل نحو الباب تنظر بعين جامدة الى تلك الاثار التي

توجب التأمل والاعتبار فجلس خلف صخرهناك يتأمل محاسن وجهها وجمالها وهو يضبط انفاسه خوفا من ان تشعر به وتراه ٠ وكانت هيئتها تدل على القلق والخوف كأن مصائب واحنا كثيرة كانت قد مرت على ايام حياتها وتركت فوق ذاك الوجه الجميل اثارا ٠ وبقيت سائرة تتقدم نحو القرية وهي غارقة في بحار تأملاتها ٠ اما هو فكان يحرسها بنظره ويتبعها عن بعد والشوق يقدم خطاه اليها رغما عنه ٠ لم تكن اسبارنسن تخرج منفردة ولكن في هذا الصباح بعد ان تخيلت لها صورة كوتياه كل ليلها احبت الانفراد وزيارة ضريح جدتها الدوقة دوبان وكانت فوق ذلك تحب مشاهدة هذه الطريق التي سار فيها كوتياه وتوارى عن عيانها والبيت الذي اجتمعت معه فيه فبقيت متقدمة في طريقها الى ان وصلت اليه على انها لم تدخله . . . . . .

الى اين هي ذاهبة ٠ كان يفكر كوتياه وهو لا يجسر على الدنو اليها ٠ ثم راها نزلت في منحدر يوءدي الى واد ثم وصلت الى امام كنيسة منفردة في وسط ذاك الغاب ودخلت اليها فبقي مقتصا اثرها وهناك امام المذبح الذي كانت حجارته قد اسودت بمرور الايـام والذي كان يقرا عليه بعض العبارات فعلى واحدة من تلك الحجارة كان مكتوبا « احفظ يا الله خطيبي » وفي الوسط تمثال العذراء بيدها الطفل الاله وهناك امام ذاك التمثال جثت تصلي بحرارة فجثا كوتياه ايضا وخفض رأسه الى الارض ومن وسط صلوات وتوسلات هـذا الملاك الارضي سمع اسمه يذكر من فمها مرتين فرقص فوءاده فرحا

وسرورا ولما افاقت من صلواتها نهضت فوجدته واقفا امامها فتقدم الاثنان من المذبح حيث كان قائما شخص والدة الاله كأنه يباركهما

— قد نظرتك بدون ان انتظر ذلك او ان اسعى اليه فان الله ارسلك الي . قالت وهي تمد اليه يدها

— انت هو النور الذي يضيء حياتي . قال كوتيساه منذهلا فلذا انا اعبدك

وكانت وهي تسمع هذا الكلام وعيناها الجميلتان شاخصتان اليه واجفانها مبللة بدموع الفرح التي كانت تسكبها في تلك الساعة ودم والدتها الخبيث كان يجري في عروقها ويملأ فوءادها غير ان التربية الصالحة كانت قد حولته الى دم حب طاهر شريف

— انا ايضا اعبدك وقد جئت اصلي لوالدة الاله واتوسل اليها لتساعدني على الاجتماع بك لانني اشعر بمصاعب كثيرة تحول دون اجتماعنا ولذا فانا اتوسل واصلي وكانت وهي في ذاك المكان المهيب بقرب من تهوى وتحب تتراءى لها الارواح الطاهرة الشريفة التي فارقت هذه الارض صاعدة في العلاء للاجتماع بمن تهوى بمساكن الفضاء فتملأ هذه التخيلات فوءادها املا ورجاء ثم خرجا معا من الكنيسة وذهبا الى قرب النبع الذي كان ماءوه يتشعب كاسلاك فضية على تلك المرجة الخضراء وهناك على احدى ضفتيه جلسا يتحدثان عن كل شيء وهما في الحقيقة لا يتكلمان عن شيء وكانت نقط الندى المعلقة على ازاهر الفل والياسمين تتساقط ذائبة من حرارة الشمس

وهما سعيدان ممسكان بايدي بعضهما ينظر كل منهما الى خيال الاخر فوق صفحة الماء

وكانت الساعات تسير مسابقة مياه النبع الجاري كانها فرسا رهان وتدق اوقاتها على اجراس الكنائس فتردد الاودية صداها وينقله الاثير الى اذهان هذين الحبيبين اللذين ذهلا عن دقاتها وكرورها ثم انتبها من احلامهما اللذيذة فنفرت اسبارنس من تلك الاصوات نفور الظبي الشارد وعادت مسرعة في طريق القصر وهي تقول لكوتياه · الى الغد · الى قرب النبع

اما هو فبقي جالسا في مكانه الى ان سمع اخر وقع من اقدامها فسار في طريقه على مهل الى الفندق

وبينما كانت اسبارنس داخلة الى القصر من نزهتها كان روسكوف ينظر اليها من احدى النوافذ نظرات خفية الا ان سرورها بذاك اللقاء منعها من الانتباه الى روسكوف وبقيت مسرعة الى غرفتها لمقابلة روجينا والاقرار لها بكل شيء وبينما هي صاعدة الى الطبق الثاني مرت بغرفة والدها الدوق فوجدته مكبا فوق مكتبه يقرأ بريد الصباح فتقدمت اليه بخفة وطوقت عنقه بيديها وقبلته فرد لها القبلة بمثلها وضمها الى صدره قائلا

— اراك على غير عادتك مبكرة في النهوض واللبس في هذا الصباح

— انني اتيت من نزهة طويلة

ــ وهل كنت منفردة ؟

فارتبكت الابنة وعادت فطوقت والدها بيديها وخاطبته قائلة :

ــ قد اخطأت هذا النهار لتركي روجينا في الطريق وذهابي الى النبع منفردة على انني اذ ضجرت من انفرادي هناك عدت بالحال

ــ اه . هذا ما لا احبه . . قال الدوق ضاحكاً وانا ارجو منذ الان ان لا تذهبي منفردة لئلا تضلي الطريق .

قال ذلك وضمها ثانية الى صدره وهو يفكر في سعادته حينئذ بقرب ولده الحبيبة ويبرد بقبلاتها الاحزان التي كان يكابدها من نفور وقسوة والدتها غير انه كان ينتحل لتلك الوالدة الاعذار على تصرفها وهو انفرادها في ذلك القصر رغماً عن طبيعتها الزاهية

وبينما كان الاميرا ل يفكر في ذلك وهو يلاطف ابنته كانت كلاديس وروسكوف قد التقيا في الحديقة فقال لها

ــ لقد عاد كوتياه الى هنا فنحن الان ماسكون مسمر لان الشاب لا يقوى على مخالفة لحظات اسبارنس

فارتجفت كلاديس لهذا الكلام لانها بالرغم من طيشها وانقيادها الى روسكوف كانت تفكر دوماً في ان تجعل ابنتها بمقامها بين الاشراف ولا تجد تناسباً بين اسمها واسم دكسون لتضمهما سوية فقالت

ــ اذن قد عاد :

ــ نعم وانا نظرتهما في هذا الصباح بمساعدة مكبرة مجوزة جالسين قرب النبع

ـ وهل كانا منفردين ؟

ـ نعم

ـ وهل ان مقاصدك لا تزال كما كانت اولا ؟

ـ نعم واكثر من الاول

ـ فهزت كلاديس كتفيها وقالت

ـ انا اخشى من الوقوع في ورطة وخيمة العاقبة لانه لا يعقل ان جوست مسمر يترك الامور تجري على ما نريد

ـ يظهر انك سريعة التقلب والتغير · اما انا فانني اضحي كل شيء توصلا لمقاصدي

ـ اما انا فاخاف

ـ تخافين· ولماذا ؟ تخافين ان تقولي لكوتياه انك تحب اسبارنس ولكن نحن نحبها ايضا · واننا لا نعطيها الا لرجل غني جدا فاذا كنت تقدر ان تكون هذا الرجل فهي لك والا فلا

ـ ولكن اذا كانت اسبارنس تحب كوتياه فاننا لا نقدر على منع هذا الحب

ـ دعيني ياحبيبتي اتصرف في هذا الامر على ما اراه موافقا فاننا بعد زمن قصير سنعود الى باريس وهناك اقدر على استخدام رجل قدير ليحول ارادة كوتياه الى ما نريد

ـ وهب انه رفض ما نريد فماذا نفعل ؟

ـ اذا رفض حينئذ يكون لي طريق اخرى اسلكها قال ذلك

وتبدلت ملامح وجهه وظهر الشرر في عينيه ثم عاد الى طبيعته · وقال الا انني ارجو ان يقتنع بالمطالبة بورثة دكسون وحينئذ نصير اغنياء واحرارا لنفر سوية الى الاصقاع البعيدة ويكون لنا ملء الحرية في محبة بعضنا بعضا عوضا عن اختلاس هذا الحب · وتتمم مقاصدنا من الاجتماع الدائم فنستعيض عن المحبة السرية المقلقة بالارتباط الشرعي عوضا عن اجتماعنا خلسة في ظلال الاشجار او منعطفات الاودية وبدلا من ان نختلي في مثل هذا الكوخ نكون مضطجعين في غرفتنا على فراش الراحة والطمأنينة

فجرت هذه الكلمات في رأس كلاديس مجرى الكهرباء في الجسم واهتزت فرحا لهذا المستقبل السعيد الذي يعدها به وقالت

— اه · نعم · اشتهي ان اجتمع بك دائما بدون افتراق · هذا كل ما اتمناه قالت ذلك وعادت الى القصر · اما هو فبعد ان بقي هنيهة في الحديقة عاد من الباب العمومي ودخل الى القصر ايضا

الفصل السادس

لم تترك اسبارنس غرفة والدها الا لتذهب لمقابلة روجينا التي كانت جالسة في الحديقة تستظل بشجرة غضة من شجر الكستناء تحجب عنها الشمس والانظار وتجلب اليها الهواء ووجهها ممتقع اصفرارا ورأسها بين يديها ودموعها تنسكب سخينة فانها وهي هناك

في ذاك المكان الخفي بين الاغصان كانت قد سمعت كل ما دار من الحديث بين رومكوف وكلاديس

ان كل النقائص التي كانت تجربها الدوقة وروسكوف وكل الشقاء والعذاب اللذين كانت تتحملهما — كل ذلك لم يكن ليجلب لفوءاد روجينا من الغم والاسف بمقدار ما اورثتها هذه المحادثة لانها كانت تتعلق باسبارنس — تلك الفتاة التي كانت قد شهدت ولادتها وربتها الى ان بلغت هذه السن · وبينما هي في هذا الموقف المكدر وصلت اسبارنس اليها فمدت يدها نحوها قائلة

— اه · اراك قد حضرت فتعالي لأونبك على خصائلك

— ولماذا ياعزيزتي ?

— لانك لا تثقين بي فقد خرجت منفردة في هذا الصباح

— هذا حقيقي

— والى اين ذهبت ?

— ذهبت اولا الى الكنيسة ثم توجهت وجلست بقرب النبع ·

— وهل كنت منفردة ?

فبقيت الابنة صامتة

— لماذا لا تجيبين ? قالت روجينا · فانك تخفين عني شيئا

— كلا لم اكن منفردة

فارتجفت اعضاء روجينا وجمد بصرها · ان ما كانت قد سمعته منذ بضع دقائق هو حقيقي · وان اسبارنس تحب اذن المصور الشاب

الذي لم تكد تراه بعد · اسبارنس ستكون اذن كوالدتها ويكون هذا الشاب الغريب مرافقا لتاريخها كما كان جوست مرافقا لتاريخ والدتها وهي وحدها الملومة على ذلك لان تربية اسبارنس كانت موكلة اليها ثم ان كلاديس وروسكوف يعلمان بهذا العشق وهي قد درت به ايضا فالدوق اذن هو الوحيد الذي يجهله

نعم كل هذه الاشياء قد اثرت فيها كثيرا فمالت نحو اسبارنس وقالت بلهجة لم تكن اسبارنس تعودت سماعها

— انا اعلم بان فوءادك يشعله الحب · واعلم ايضا انك في نزهتك هذا الصباح قد قابلت ذاك الشاب الذي صادفناه سابقا فاعلمي ان تصرفك هذا هو غلط لا يليق بابنة شريفة ان تأتيه

— من اعلمك بذلك ؟ قالت اسبارنس منذهلة · فقد كنت اتية الى هنا لاطلعك على كل شيء وقد وجدت انك تعلمين فوق ما اعلم

— اتريدين ان تعرفي من اطلعني على ذلك ؟ هناك على ذاك الشباك المقابل من هنا كان روسكوف جالسا يقص الخبر على والدتك

— روسكوف ؟

— هو نفسه وهل تتعجبين من ذلك وانت تعلمين انه اصل كل دناءة وخسامة

— اه · قالت اسبارنس · الان فهمت مغزى تلك النظرات التي كان ينظر الي بها في الصباح

— وفضلا عن ذلك · قالت روجينا · فانك لا تعرفين كل شيء

ولا انا اعرف كل شيء ايضا فانهما قد قالا اشياء لم اتمكن من فهمها تماما على انني متأكدة ان فيها مبعث الشقاء والعذاب لمن يسلك طريق هذا الحب · ولذا ارجو منك الاقلاع عنه

— ماذا ؟ الاقلاع عن حب كوتياه ! اه ان هذا لا يكون ابدا

فظهرت على وجه روجينا علامات التأسف والحزن والقت نظرها على نظر اسبارنس فوجدت عينيها مغرورقتين بالدموع وعلى وجهها دلائل الوجد المبرح والحب المكين

— اه · ان هنا كل ملامح كلاديس في عشقها الاول · قالت روجينا في نفسها · ثم مالت نحو اسبارنس وقالت :

— واذا كنت اقول لك ان هذا الحب سيكون سبب شقاء حياتك· سبب شقاء والدك · سبب شقائي انا·وسبب شقاء كل محبيك ومعارفك وفوق ذلك سبب شقاء من تحبينه · فهل تريدين بعد هذا التحذير ان تبقي على حبك لهذا الشاب الغريب الذي بالكد عرفته وتضحي محبتنا وحنونا نحن جميعا ؟

— انا استحلفك وارجو منك · قالت اسبارنس · ان تدعيني اليوم اتمتع بهذا النعيم الذي يملاء فوءادي

— اذن ساشعر والدك بالخطر المحدق بك

— افعلي ما بدالك

— يجب ان اقول لك شيئا — يجب ان اكون قاسية ولو كسرت فوءادك وملاءته حزنا وغما · يجب ان ابين لك ان هذا الحب لا يتم ·

وان روسكوف يعرف جيدا من تحبين · وانه متسلط على والدتك · وانهم لا يسمحون بزواجك من كوتياه الا بعد ان يقترف ذنبا لا اقدر ان اعرف ما هو ولكن يكفي ان يكون مهيئا من روسكوف ووالدتك ليكون عظيما · وبدون ذلك لا يسمحون باقترانك به

فاصفر وجه اسبارنس وقالت

ـ اه · اتظنين انهم يمنعونني عمن احب · ان روسكوف يعرف كوتياه · هذا لا يكون ؟

ـ نعم يعرفه · ويجب ان تثقي بكلامي وتعلمي ان الشقاء اذا اتاك من جراء هذا الحب فاكون انا براء منه انا التي احاول ان امنعك عنه لانني احسب نفسي والدة لك ولم اكن لاقدم على ذلك لو لم يكن هناك سبب يعود لنفعك

ـ اذن حقيق كل ما قلته لي الان · قالت اسبارنس ودموعها تتساقط فوق وجنتيها · فانا ارجو منك ان تشفقي على قلبي الحزين وتساعديني على احتمال مصاعب هذا الحب · وانا اعدك بان لا اعمل شيئا دون مشورتك · قالت ذلك وقامتا تتقدمان نحو القصر فوجدتا الدوق يتمشى وحده وهو يضحك لهما عن بعد ولما دنا منهما قال

ـ قد انهيت اشغالي هذا النهار واريد ان اذهب للتنزه في ارجالاه مع الدوقة وروسكوف فهل تريدان مرافقتنا ام انكما قد اكتفيتما بنزهة الصباح ؟

ولما رأى الدوق ان الابنتين لا ترغبان في الذهاب وان روسكوف

قد تأخر عن الحضور بقي معهما في حديقة القصر الى ان قرع جرس المائدة فتقدم الجميع ودخلوا القاعة

كانت وجوه الحضور على المائدة متباينة فبينما كنت ترى وجه كلاديس وروسكوف طافحين بشرا وسرورا بما كانا قد قرراه والدوق يشاركهما في ذاك السرور لغير سبب الا انه كان يرى كلاديس ضاحكة على خلاف المعتاد فان اسبارنس كانت تظهر عليها دلائل الكدر والاضطراب وروجينا مربيتها ورفيقة حياتها كانت تشاركها في ذلك تأسفا على حال الابنة وخوفا على مستقبلها

وبعد الغداء خرج روسكوف من القصر ذاهبا الى ارجالاه على امل لقاء كوتياه ومحادثته والقول له ان الابنة شغفت به كثيرا وانه لا يعوقه عن ان يكون زوجا لاجمل ابنة ومن اشرف اشراف الفرنسيس الا ان يطلبها وان الدوق لا يعترض على هذا الزواج الا على شرط واحد هو ان يكون كوتياه غنيا ومشهورا

وبينما كان يفكر في هذه الامور وهو جالس في احد الفنادق يشرب كأسا من الخمر المعتقة رأى صديقه المسيو بنسو المحامي الذي كان قد كلفه اولا البحث عن كوتياه فسر كثيرا بالصدفة التي جمعته به وبعد ان تبادل الاثنان الحديث عرض عليه روسكوف الاهتمام بمسألته تحت اجرة باهظة وقال له

— ان المسألة تتعلق ايضا بمدموازال دوبان لانها تحب كوتياه دكسون الذي كنت سعيت اولا للاهتداء اليه

— كوتياه دكسون صاحب الارث العظيم

— نعم ٠ على ان مداموازال دوبان وهي في ظروفها ومركزها لا تقدر على التزوج بسوى رجل غني

— ولكن ماذا يهمك من كل هذا الامر

— هذا شيء من متعلقاتي الخصوصية التي لا اسمح لاحد بالتدخل فيها فاعمل ما اقوله لك

— وماذا تريد ان افعل

— هل تعرف كوتياه دكسون ؟

— كلا

— هو نازل الان في فندق فرنسا فانزل انت هناك ايضا واعمل واسطة للتعرف اليه وحينئذ قل له انك تعرفه الولد الشرعي لجمس دكسون الغني الشهير وانك تعجب كيف انه لا يداعي بارث ابيه

— لا شيء اسهل من ذلك ولكن للقيام بمصارفات فندق فرنسا يقتضي لي دراهم كثيرة

— هذه ورقة بخمسمائة فرنك تقيد على الحساب وبعد ان تتمم عملك اكتب لي الى قصر دوبان لنرى ما يكون موافقا اجراوءه بعد ذلك ولكن احذر من ان تقول له انك تعرفني ٠ قال ذلك وترك المحامي لوحده يتأمل من اسرار هذه الدعوى ٠ اما هو فتقدم في طريق النبع على امل ان يصادف كوتياه فلم يكد يسير قليلا حتى رآه يمشي على مهل وهو مطرق الى الارض فاقترب اليه وقال

ــ كنت اسعى للاهتداء اليك

ــ للاهتداء الي ? ولماذا؟

ــ لاجعلك سعيدا

ــ لتجعلني سعيدا ؟

ــ نعم · اهذا يعجبك ؟ قال روسكوف ببشاشة · وكل الشرائع والنواميس تجعلني والدك وان احبك واعزك واساعدك لتكون سعيدا·

ــ ولكني لم اقل لك ابدا انني تعس بل بالعكس تراني اشعر الان بسعادة كنت لا احلم بمثلها مطلقا وانني قد سلوت كل ما قاسيته من الشقاء والعذاب في ايام حداثتي

ــ هذا مما يسرني كثيرا ويجعلني سعيدا ولذا فانا لا اريد ان اردد عليك الان ما قلته سابقا في نزل شارع الامبراتريس عن وجوب مداعاة مسمر بالارث الذي بيده لان لك الحق به طالما انت متمتع بكل ما تريد من تلك الاموال بل انني احفظ لمسمر في فوءادي ذكرا جميلا · ولكن انت تعلم لماذا انا هنا

ــ كلا ياسيدي

ــ الم اقل لك بانني جالب معي السعادة ؟

ــ نعم ولكن لم ار شيئا

ــ ساريك كم انت عزيز لدي وكم انا حريص على مراقبة كل حركاتك فانت تحب مداموازال دوبان

ـ لا ارى لك حقا بالتعرض لاحساساتي واميالي · قال كوتياه ببرودة

ـ لو كنت غريبا عني لكنت اتركك تسير في مسالك الحياة على ما تريد دون اقل تدخل مني اما وانا والدك فاني ارى لي ملء الحق بالتدخل بكل خصوصياتك · انا اعلم انك تحب اسبارنس وانها تحبك وقد رأيتكما هذا الصباح بالذات جالسين بقرب النبع · فرقص فؤادي طربا وسرورا وتأكد لي ان الدوق لا يمانع باعطائك يد ابنته اذا كنت تسعى لتكون غنيا وشهيرا

ـ وهل حقيق كل ما تقوله لي ؟

ـ الدوقة تعرف كل شيء · قال روسكوف وهو يفكر في نفسه بان الولد قد وقع في اشراكه · ولا بد من ان يكون الدوق قد عرف الامر الان وعليه فاننا نقدر من الان على الدخول الى قصر دوبان حيث تجد الابواب مشرعة لاستقبالك · قال ذلك وترك الشاب في حيرة من هذا الكلام · وذهب في طريقه

وكانت الشمس قد قاربت الزوال والريح الشمالية الخفيفة قد نظفت السماء من الغيوم فظهر منظر الجو جميلا وكانت كلمات روسكوف الاخيرة قد حيرت كوتياه فجلس على صخر هناك ووضع رأسه بين يديه واطلق لفكره العنان نحو اسبارنس متخيلا جمالها وحبها ومسمر ومخالفته لارادته وكلام روسكوف وتظاهراته · والذي كان يقلقه كثيرا هو الخوف من اطلاع الدوق على السر العظيم الذي

اعترفت به والدته وهي بحالة النزع · ذلك السر الذي كان السبب في حرمانه تركة ابيه الطائلة · واخيرا عقد النية على الذهاب الى قصر دوبان وطلب يد اسبارنس عملا بكلام روسكوف

ولكن الا يجب عليه ان يشعر جوست بما ينويه وان يقول له ان الحب الشديد قد اضطره الى ان يحنث بيمينه وان يعودالى قصر دوبان؟ نعم وجد ان من الواجب عليه ان يفعل ذلك اولا فعزم على العودة الى باريس في المساء نفسه

وبينما كانت هذه الافكار تجول في مخيلته اقبل عليه شاب نحيل الجسم وهو يدخن سيكارة فانتبه كوتياه لوقع خطاه واذا هو كوكوس الذي تقدم نحوه وقال له

ـــ مضى نصف ساعة وانت تكلم ذاتك

ـــ وهل سمعت شيئا ؟

ـــ ان المسألة عن الحب وقد فهمت كل شيء

ـــ نعم انا عاشق

ـــ ارجو لك حظا جميلا

ـــ ولك ايضا

ـــ انا عاشق القنينة وهذه ورمى سيكارته الى الارض وقال

ـــ اننا في هذا النهار قد مثلنا تمثيلا جميلا وكان الجمع كثيرا

ـــ هل تنوون الاقامة طويلا هنا

ـــ بضعة ايام · ونهار غد سنمثل في قصر دوبان

ـ انا مضطر الى الذهاب الى باريس في هذا المساء لاشغال ضرورية على انني لا امكث اكثر من مسافة الطريق واعود الى هنا واذا كنت ترى ذاتك متعبا من هذا العمل الذي انت فيه وتحب ان تتبل خدمتي لك جزاء شهامتك ومعروفك يوم اسعفتني للوصول الى جانب سرير والدتي المائتة فانني سارجو فيك المحسن الي وهو ولا شك يمد نحوي يد المساعدة

ـ انا اشكرك · قال كوكوس وارجو منك ان لا تتكلم عني لاحد لانني لا ارجو ان ابقي هذا الجسد المضنك معذبا الى وقت طويل ولولا كازال ومحبتها لكنت عرفت كيف اتخلص منه من مدة طويلة في نهر السين

فتعجب كوتياه من هذه الافكار وقال له

ـ اذن تذهبون غدا الى قصر دوبان

ـ نعم غدا

ـ واذا رجوتك ان تقضي لي خدمة جليلة ؟

ـ افعلها بكل سرور وامانة

ـ انا ارجو منك ياصديقي ان تسلم ابنة الدوق تحريرا مني

ـ اه ! اذن هو هناك · ذاك الطائر الجميل ـ الفتاة التي تحبها ؟

ـ نعم هي اسبارنس ابنة الدوق

اسبارنس فكّر كوكوس في نفسه · ان هذا الاسم لم يكن غريبا

عنه فهو يذكر انه قد سمعه · ولكن اين · لا يعلم لان المرض والفقر كانا قد اضعفا جسمه وذاكرته

— اذن انت تطلب الي ان اسلم ابنة الدوق تحريرا فاكتبه وانا اتكفل بايصاله

فاخذ كوتياه من جيبه محفظة جميلة تناول منها ورقة وكتب ما يلي

« سيدتي الكريمة · انا ذاهب هذه الليلة الى باريس على انني ساعود بعد مدة قصيرة جدا واول شيء اقوم به عندئذ هو زيارتك في الحال لان صديقا لكم جرأني على طلب يدك وجعلني اؤمل برضى والديك فانا اذن ساتقدم اليهما واطلب منهما اعز شيء عندهما »

وبعد ان ختم كوتياه التحرير ناوله الى كوكوس فاخذه منه موءكدا ايصاله بكل امانة فودعه شاكرا وعاد الى الفندق وهيأ لوازمه وسافر في ذلك المساء نفسه الى باريس

الفصل السابع

بعد سفر ست وثلاثين ساعة قضاها كوتياه في التأمل بحبيبته وبالاعذار التي يقدمها الى جوست على غيابه وصل الى محطة ليون وهناك اكترى عربة اقلته في الحال الى نزل الامبراتريس على انه لم يصل الى الباب حتى وقف مبهوتا لانه تحقق انه سيقابل جوست وانه

اخطأ بحنثه بيمينه واخلافه وعوده وبات لا يدري كيف يعتذر له · اخيرا تقدم قليلا وعلى مهل فراه واقفا مع مادلين في الحديقة وهي عائدة من زيارته وعليها كل ملامح الادب والكمال فجرأه مرأى تلك الابنة الملائكية وتقدم نحوهما وحالما نظراه صرخ جوست

— كوتياه ! وتقدم اليه فضمه الى صدره ومدت مادلين اليه يدها وحيته بكل لطف وبشاشة ثم قال له جوست

— انت عائد من سويسرا

— كلا ياسيدي بل انا عائد من ارجالاه

— اه · انت عائد من ارجالاه · قال جوست وقد تغير لونه ·مع كونك وعدتني ان لا تعود اليها ابدا

— اخطأت بنقضي الوعد

وكانت مادلين قد همت بالذهاب فقال لها جوست · ارجو ان تنتظري قليلا لانني في حاجة الى نصائحك ثم عاد الى قرب كوتياه وقال

— لا نقدر اذن على الوثوق بمواعيدك ولا على الاعتماد على كلامك فبعد كل ما نظرته وعرفته عن الدوقة دوبـان رجعت الى ارجالاه لترى ابنتها

— نعم سيدي

— اذن انت تحب ابنة معشوقة ابيك

ــ انا لا اعرف هذا الرجل والدا لي · ان والدي هو جمس دكسون المتوفى

ــ انت تقول انك لا تريد ان تعرف هذا الرجل ولكن هو يعرفك

ــ اه ياسيدي اه · انا احب مداموازال دوبان ولا اقدر ان اسلوها وقد نظرتها دون ان اسعى لذلك ولكن الصدف والنصيب قد جمعتنا على غير قصد منا واراني غير قادر على سلوها

ــ اه · كوتياه · ولكن هل هي تحبك · او هي كلاديس ثانية رمتها الاقدار في طريقك

ــ تحبني واحبها حبا مبرحا وهذه هي المرة الاولى التي ذاق فيها كل منا طعم الحب

ــ ولكن الرجل القدير هو من يتغلب على عواطف الفوءاد · فهل تعلم ما هي ادابها واحساسات فوءادها ؟ نظرتها مرة واحدة في حديقة القصر واخرى ونحن لاجئان فرارا من الامطار ومع ذلك فقد اسرت فوءادك فاستسلمت اليها اي الى ابنة معشوقة والدك · الى ابنة امرأة عاهرة جلبت الى بيتها التعاسة والشقاء واهانت زوجها الشريف ومع ذلك تريد انت ان تنضم الى هذه العائلة فهل فقدت منك احساسات الشرف؟ وهل تعرف فيما اذا كانوا يزوجونك بها · اولا تقدر ان تعصى فوءادك

ــ ان الدوق يحب ولده كثيرا ولا يمانع في ارضائها بما تريد · ثم هم بان يقول ان روسكوف هو الذي سيجلب له السعادة ويساعده على الاقتران بمن يهوى غير انه سكت مصغيا لكلام جوست

ــ تزوجها اذن فان والديك قد توفيا وانت حر في كل تصرفاتك واما انا فابقى مكرما لك المال الذي تأخذه الان ولكن لا يعود ممكنا لك ان تراني

ــ اه ياوالدي انك تجعلني حزينا وتعسا بهذا الكلام

ــ وهل تظن انني لا اتألم انا ايضا ؟ انا الذي اقمت نفسي بمقام والد لك واعتنيت بتربيتك وتهذيبك وكنت احسب نجاحك وتأدبك مكافأة لي في حياتي هذه التعسة • او هل انك تظن انني سعيد بهذا الغنى الذي لا يغني عن حنو وانعطاف الآن وانت ومادلين اصبحتما كل من بقي لدي. واراك تريد ان تتخلص مني. آه ان المال وحده لا يجلب السعادة فقد كنت تعسا منفردا وسابقى كذلك .فالمال وحده لا يجعل الناس سعداء ولا يملاء فراغ النفس ولا يشفي جروح القلب ولا يخفف الاوجاع • فقد كنت اسمع الناس يقولون • هذا ملك الذهب • ولكن من يعلم الاحزان التي تغشى فوءادي والاكدار التي تملأ نفسي • وانا وحيد في هذا القصر الشاهق مع زمبا اقطع مسافة هذه الحياة كالمسافر الغريب في بلد بعيد لا يعرف احدا • اه كم سكبت من الدموع وتحرقت وتأسفت ونكبت بدون ان ارى امامي احدا يوءاسيني في احزاني ومع ذلك فالناس يحسبونني سعيدا

ــ ولكن انا ابقى على حبك واعتبارك

ــ لماذا لا تسمع نصائحي اذن ؟ تقدر ان احببت ان تتزوج رغما عن ارادتي مادموازال دوبان فانت حر

تزوج امبارنس فانني لا اعرفها ولا اريد ذلك • ولا احفظ لها في فوءادي غير الشفقة • انما اعيد ما قلته لك • انت حر بان تتزوجها • ولكن اقول لك ان متاعبك في المستقبل لا تكون مني • لانك ستدخل في بيت ملوءه الفساد والشر • في بيت سيدته امرأة قاتلة • نعم انا اعيد هذه الكلمة • امرأة قاتلة • وانها اهل لارتكاب كل لوءم وخيانة • وان اباك ذاك الاب الذي كنت تهرب منه هو الذي يحبب اليك هذا الاقتران طمعا بنيل امانيه • وانهم سيشترطون عليك المطالبة بورثة دكسون • فافعل ما تراه موافقا لك • خذ عني هذه الورثة التي هي بحق لك • فانني لا ادافع مطلقا • كل شيء هنا هو لك اسلمك اياه اي وقت اردت • فجوست مسمر يكون دوما غنيا ليقضي الحياة فقد عرفت ما هي الفاقة اولا ولم اتعود عيشة الرخاء

ـــ اه • اذن ام امبارنس هي قاتلة • ام تلك التي احبها • هذا لا يكون فانا اسأل مادلين عن ذلك وهي تقول لي • وتقول لي ايضا ان امبارنس هي تعسة ويجب مساعدتها لانها غير مطالبة بخطيئة والدتها كما انني لست مخطئا لوجودي ولدا لوالد عديم الشهامة والشرف • فانا استحلفك ياوالدي • اه ياوالدي الوقور بان تقول لي انك لم تفه بالحقيقة ـــ

ـــ لم اقل الا الحقيقة

ـــ الحقيقة ؟

ـــ نعم هي الحقيقة التي كنت عولت على ان لا اقولها لك لو لم

تضطرني الظروف الحرجة ٠ فع ياولدي العزيز ما اقوله لك الآن

ـ يوجد في انحاء هذا العالم ولد للدوقة دوبان يعيش تعسا وغير معروف وابن هذه الشريرة هو ايضا ولدي

وقبل ان يتمكن كوتياه من الجواب فتح الباب ودخلت منه مادلين قائلة

ـ لقد سمعت كل شيء وانا اعلم احزان كوتياه العزيز ويجب ان نزوجه بمن يحب قالت ذلك وهي تعلم شقاء المحبين ولوعة العشاق تلك اللوعة التي كانت قد احرقت فوءادها ٠ فطالما انهما يحبان بعضهما بعضا لا تقطع ياجوست رجاءهما اشفق عليهماواجعلهما سعيدين واشفق خصوصا على ابنة تلك المرأة التي نكرهها كلانا

ـ فاثرت هذه الكلمات في جوست ومال نحو كوتياه قائلا

ـ تزوج من تحب فانت حر بذلك وانا لا اعترض ابدا ولكن متى تزوجت عد حالاً مع اسبارنس وروجينا الى هنا بدون ان تعاشر الدوقة

فسر فوءاد كوتياه لهذا الكلام وخرج في الحال من الغرفة التي خرجت منها مادلين ايضا على اثره وهي تقول في نفسها

« ان جوست له ولد من هذه المرأة الشريرة وانه قد احبها سابقا»

في غدوة اليوم الذي سافر فيه كوتياه نهضت اسبارنس من رقادها باكرا واتخذت طريق النبع محجة علها تقدر ان تنظر كوتياه ٠ على ان نظرات والدها الموءثرة في النهار السابق وتوبيخات روجينا منعتها

من الابتعاد كثيرا عن القصر وهي ترجو في نفسها ان يحضر لمقابلتها وبينما هي في الطريق نظرت عن بعد كوكوس يناديها وهو يتقدم نحوها

— ماذا تريد ؟ قالت باحتشام

— فبعد ان نظر الى ما حواليه نظرة المستطلع قال

— اريد ان اسلمك تحريرا

— الي انا ؟

— نعم اليك · الست انت ابنة الدوق دوبان ؟

— نعم لي الحظ بان اكون كذلك

— اذن انا على صواب فالتحرير يسلم اليك

— ومن سلمك اياه ؟

— المسيو كوتياه

— فاحمر وجه الفتاة وقالت

— المسيو كوتياه دكسون كلفك باعطائي تحريرا وهو لا يعرفك

— انك على خطأ ياسيدتي لانني والمسيو كوتياه صديقان من قديم

— احقيقي ما تقول ؟

— وهل يذهلك ذلك ؟

أُقر لك بالحقيقة قالت وهي تنظر الى كوكوس نظرة الشفقة والرأْفة

ــ مع كوني اقول الحقيقة قال كوكوس بابتسامة لا تخلو من الحزن · نعم انا لست سيدا شريفا او غنيا ولكن ذلك لا يمنع من ان اكون عرفت كوتياه سابقا وبلهجة لطيفة قال · وقد عرفتك انت ايضا

ــ ولكن انا لا اذكر ذلك ابدا · قالت اسبارنس متعجبة وهي تضع في جيبها تحرير كوتياه الذي كان قد احرق يدها فهل لك ان تقول لي متى كانت تلك المعرفة

ــ في قصركم بشارع لاميات في باريس

ــ اه قالت اسبارنس وهي تمد يدها فوق جبينها · تذكرت الان فقد كان ذلك في احدى ليالي الشتاء

ــ نعم وفي وقت الحصار · وذلك بعد ان قضيت نهارا كاملا اتجول في انحاء باريس علني ابيع شيئا من التماثيل التي كنت احملها · واخيرا سرقت مني السلة الموضوع فيها كل تجارتي وخفت ان اعود الى البيت فقادتني الظروف الى امام قصركم وهناك نظرتني امرأة رؤوفة فشفقت علي واخذتني الى داخل القصر

ــ نعم تذكرت ذلك الان · وكانت تلك المرأة الشفوقة روجينا مربيتي العزيزة

ــ اه روجينا · قال كوكوس في نفسه · انه اسم المرأة المنقوش على الذخيرة التي في عنقي ولكنه في الحال طرد هذا الفكر من باله وقال

ــ نعم والفضل لك برجوعي في ذلك المساء مجبور الخاطر على خسارتي

وكانت اسبارنس تنظر اليه بحنو وشفقـة زائدين وعيناهـا مغرورقتان بالدموع على حالة ذاك التعس

وهكذا فان الصدف كانت قد جمعت ايضا بين ذينك الشقيقين وكان فوءاداهما في تلك الساعة طافحين سرورا وهما لا يقدران ان يعبرا عن سبب ذلك وخيل اليهما انهما متعارفان وغير مفترقين عن بعضهما من وقت طويل وكانت اسبارنس قد مدت يدها الى كوكوس الذي ضمها بين يديه وقال

— نقصد انا واهلي ان نذهب الى قصركم لتمثيل بعض الالعاب التي تسركم كثيرا

— انتم ممثلون ؟

— نعم نحن عائلة رحالة يمثل كل منا دورا وانـا العب على انحبال وارفع الاثقال واتزيا بازياء كثيرة فالبس على وجهي وجهـا اصطناعيا من المطاط بانف طويل احمر واتي بحركات مضحكة • اقول لك ذلك لكي لا تخافي من منظري على تلك الحالة وبلهجة جدية محزنة قال ومن ثم لارجو منك بـان لا تضحكي كثيرا من منظري لانه مهما ضحك الغير فلا يهمني بل اضحك معهم على ذاتي ولكن اذا رايتك تضحكين فان ذلك يوءلمني

فظهرت على وجهها علامات التعجب • اما هو فقال

— ان ما تنظرينه من سروري الخارجي لا يدل على سرور في

داخل فوءادي المملوء دوما من الغم والحزن فالطير يرقص مذبوحا من الالم

ــ انا اعدك بان لا اضحك ابدا · قالت ذلك ونظرت اليه مودعة نظرة كلها حنو وشفقة وبعد ان بعدت عنه قليلا فضت التحرير وقرأت اسطره القليلة وقلبها يرقص فرحا لعلمها بان كوتياه سياتي ليطلب يدها واسرعت نحو القصر فدخلت غرفتها بدون ان يراها احد لتتمتع باعادة قراءة تلك الاسطر

كان روسكوف في مساء ذلك النهار قد قابل كلاديس واخبرها ان كوتياه سيحضر لطلب يد ابنتها وانه لا يقتضي لذلك الا الحكمة والتصرف بدقة وصبر

ــ اذن نكون قد نجحنا بمسعانا · قالت كلاديس وقد ابرقت اسرتها

ــ ان النجاح مكفول كما قلت لك اذا احسنا التصرف

ــ ان الشيء المهم الآن هو ان نعلم ما ستكون ارادة الدوق لانه يجب علي اطلاعه على الامر

ــ هذا موءكد · قال روسكوف · ولكن ثقي بنجاحك لان ما تريده المرأة يريده الله فكيف الزوج

•••«(•)»•••

الفصل الثامن

كان من عادة الدوق ان ينفرد كل يوم بعد الغداء في غرفة جميلة تطل على المناظر الشائقة طلبا للراحة واتماما لقراءة بريده والمجاوبة عليه وكان بالنظر لتصرفات روسكوف الرزينة وعدم تحجب كلاديس عن محادثته دائما والذهاب واياه للنزهة باطمئنان من حسن تأدبه وشرفه . ولذا لم يمر في باله شيء من امر عشقهما فبينما هو منفرد في تلك الغرفة على عادته , اذا بيد لطيفة تطرق بابه فنهض في الحال وفتح الباب فاذا هي كلاديس

— ربما ازعجك دخولي الان وانت منهمك بسياستك قالت وهي تجلس الى جانب الطاولة التي كانت عليها الاوراق والجرائد فقد كنت غير منتظر قدومي

نعم كنت غير منتظر لانك من يوم حضرنا الى سان سافان لم تدخلي هذه الغرفة

— هل هذا توبيخ ؟

— قد يكون ذلك

— ان روسكوف يأخذنا دائما بعد الغداء الى التنزه وانا اضطر الى مرافقته لانه ضيفك ويجب علينا اعتباره قالت ذلك بحرية زائدة لتدفع كل ريب في سلوكها

ــ حقيقة ان روسكوف اديب وحسن المعاشرة فاننا لولاه لكنا نستوحش كثيرا

ــ نعم ان هذه المزايا التي يتحلى بها روسكوف تضيع قسما من وقتنا لاننا لا نقدر ان نراك كثيرا ولا ان نذهب واياك للنزهة وانت لاه بهذه التحارير والاوراق التي ترسلها اليك الوزارة وانت في باريس ايضا · تذهب من الساعة التاسعة صباحا فلا تعود الا في ساعة متاخرة من المساء

قالت ذلك ووجهها يطفح سرورا فمال اليها الدوق وقال

ــ هل انت تعنين كل ما تقولينه ؟

ــ بدون ريب

ــ فانت تسرين اذن فيما لو قدمت استعفائي وبقيت هنا حيث اقدر ان اقضي كل اوقاتي بقربك او انك لا تحبين هذه العيشة الهادئة هنا

ــ ولكن ما هي هذه العيشة هنا بين الجبال والاحراج فلولا روسكوف لكنا نشعر بزيادة الوحشة والانفراد

ــ ومع هذا فان امبارنس وروجينا لا تشعران بذلك

ــ اه وهل تظن ان امبارنس تكتفي بروجينا ؟ قالت كلاديس ضاحكة

ــ ماذا تعنين بذلك ؟ قال الاميرال وقد تغيرت ملامحه

ــ اعني ان ابنتك اصبحت عاشقة

ــ هذا غير ممكن

ـ هي الحقيقة

ـ اسبارنس عاشقة ؟

ـ نعم

ـ ومن اعلمك ذلك ؟

ـ روسكوف

ـ ومن هو هذا الشاب الذي اوقع ابنتي باحابيله ؟

ـ هو شاب غريب ومصور بارع احرز الجائزة الاولى من رومية هذه السنة ويقولون ايضا انه يتمتع بثروة طائلة

ـ وما اسمه ؟

ـ كوتياه دكسون

ـ غريب !

ـ اظنه امريكيا او اوستراليا

ـ وهل اسبارنس تحبه ؟

ـ لا اقدر ان اجيبك على ذلك قبل ان اسأَلها

ـ فلنسأَلها كلانا فانا اعلم ان اسبارنس لا تخفي عنا الحقيقة ولا تكذب فان كانت تحبه فعلا وكان موافقا لها بالاوصاف التي نوهت بها فلنزوجه اياها

ـ انت اذن ترضى بهذا الزواج ؟

ـ اذا كان في ذلك سعادة ابنتي فلماذا لا ٭ وأنا لاجل ذلك اضحي كل العادات والتقاليد القديمة

ـ انا من رأيك · قالت كلاديس · ولكن اسمح لي ان اقدم لك ملاحظة

ـ وما هي ؟

ـ الا تظن ان اسبارنس لا تزال صغيرة عن الزواج وان من الحكمة ان تترك هذا الشاب يجتهد وراء الشهرة التي لا يحصل على تمامها قبل بضع سنوات فتكون اسبارنس قد بلغت السن الموافقة لزواجها ؟

ـ ان ملاحظتك في محلها

ـ بعد قليل يحضر كوتياه دكسون ويطلب يد اسبارنس

ـ يظهر انك تعلمين كل شيء

ـ لقد باح باسراره الى روسكوف

ـ الى روسكوف ؟

ـ نعم

ـ لا اعلم لماذا ذلك

ـ لان روسكوف محب ومخلص لنا وحالما درى بهذا الامر قابل الشاب ونصح له ان لا يطمع بذلك

ـ وهل اتبع النصيحة ؟ قال الدوق منقادا بسلامة ضميره الى تصديق قول كلاديس واعتقد بشهامة واخلاص روسكوف

ـ بالعكس فانه اصر على الحضور ليطلب يد اسبارنس · لذلك رأيت من الضروري ان اطلعك على ما يجري

ـ حقا ان اخلاص روسكوف ومحبته الاكيدة لنا هما نادران

فانني ساحفظ له هذا الجميل في فوءادي لان الاصدقـاء الحقيقيين قليلون

فابرقت اسرة كلاديس وقالت في نفسها لقد نجحت الانواصبح ليونال رفيعا في عيني الدوق

ثم خرجت من الغرفة تاركة الدوق حائرا في بحار التأملات وكان انذهاله كثيرا من اسبارنس التي لم تكشف له عن فوءادها ومن روجينا التي اخفت عنه هذا الامر وللحال كبس زرا كهربائيا امامه فحضر احد الخدم فقال له

ــ قل لاسبارنس وروجينا ان تحضرا الى هنا · وبعد قليل دخلت الابنتان فمال نحوهما وقال

ــ انني لاعجب جدا من اهمالك ياروجينا ملاحظة ولدي وعوضا عن ان تزيدي ثقتي المظيمة بك اراك تضعفينها

ــ انا استحق توبيخك ولا اهرب منه · قالت الابنة بذل وانكسار

ــ ولكن انا اريد ان ادافع عنك · قالت اسبارنس والدمع ملء عينيها · فيا ابت العزيز انني سابوح لك بالحقيقة فانني بينمـا كنت ذاهبة بأكرا الى الكنيسة نظرته على غير قصد وقد كنت عرفته قبلا ولما كنت

عرفت هواه قبل ان اعرف الهوى فصادف قلبا خاليـا فتمكنـا

جاذبته اطراف الحديث وبحت له بحبي المكتوم

ــ وهل كنت تحبين هذا الغريب ؟ الغير معروف ؟

ـ نعم ابت لقد كنت ولا ازال احبه رغما عن كل نصائح وارشادات روجينا اللطيفة والحكيمة

اما روجينا فكانت واقفة بقرب النافذة والدمع يتحدر من عينيها واخيرا صعب عليها اطالة الوقوف فخرجت من الغرفة بدون ان ينظر اليها الدوق ولا ان يجبر فوءادها الكسير بكلمة تنسيها احزانها وذهبت الى غرفتها حيث استلقت على وسادةواستخرطتفي البكاء بينما كانت اسبارنس تدافع عنها بكل قواها

ـ اذن تريدين ان تتركينا وانت لا تزالين في سن الطفولية وتعطي هذا القلب الذي اعتنينا به لرجل غريب

فوضعت الابنة رأسها الجميل بين يديها وقالت · هذا شيءفوق قدرتي يا ابت وانت لا شك متى نظرت كوتياه تعذرني على ذلك

ـ حسن ان كنت تحبينه فاعلمي بانه سيحضر قريبا ليطلب يدك وانا حبا بك سانيله ما يطلب تحت شرط واحد مهم

ـ ما هو يا ابت الحبيب ؟

ـ ان يحصل اولا على شهرة واسعة لانني لا ارضى بزواجكما قبلان يصير مصورا مشهورا

ـ سانتظر الى ذلك الوقت · قالت اسبارنس وقد رقصفوءادها طربا

مضى على هذا الحادث يومان وعاد كوتياه الى فندق فرنسا في الجارا وهناك بعد ان استراح قليلا قصد قصر سان سافان فاستقبل

باكرام وذهبوا به الى غرفة الدوق الذي كان ينتظره فبعد ان دخل وحياه نظر اليه الدوق نظرة المستطلع واشار الى كرسي بجانبه قائلا

ـــ تفضل ياسيدي · فقد عرفت البارح فقط بان اسمك كوتياه دكسون وانك مصور وعرفت فوق ذلك انك تحب ولدي

ـــ نعم ياسيدي انا اعبد كريمتك مداموازال اسبارنس · قال كوتياه بصوت متقطع ـــ وقد اتيت لاطلب يدها

ـــ انت قادم الان لتطلب ولدي الوحيدة · رجاء حياتي · واعز مخلوق لدي · فقد كنت احب ان امانع لولا انها تحبك هي ايضا كما عرفت ولكن ما العمل وهذا هو سر الحياة فلا تكاد تصل بناتنا الى سن الادراك حتى يتركننا ليسلمن افئدتهن لاناس غيرنا ومع ذلك فلا نقدر على الغاء هذه الشريعة القاسية العادلة ولكن اذا كنت انت تحبها وهي تحبك فهذا لا يمنع من سعيي وراء تحقيق سعادتهـــا وراحتهـــا فاسبارنس الان لا تتجاوز السادسة عشرة من سنيها وامامها سنتان قبل ان تدرك سن الزواج فيجب عليك في خلالهما الجد والكد للحصول على مركز رفيع ومقام منظور حتى اذا قصرت في نهايتها عن الحصول على ثروة مالية كبيرة فلا اقل من ان تجلب اليها اسما ممدوحا شهيرا ولك في خلال هذه المدة حرية التردد الينا اي وقت اردت ثم انني ادعوك الى مناولة العشاء معنا في هذا المساء ولكن هل انت وحيد ولا عائلة لك ؟

ـــ نعم ياسيدي انني وحيد في هذا العالم اذ قدر لي ان افقد والدي

وانا في سن الطفولية ووالدتي في حصار باريس

ــ وهل بقيت بدون عضد

ــ ان رجلا فاضلا قد اعتنى بي وقدم لي كلما احتاج اليه من المال وساعدني للوصول الى مركزي الحالي

ــ وما اسم هذا المحسن ؟

ــ جوست مسمر

فبهت الاميرال هنيهة وهو يتأمل في الايام الماضية ورأسه مطرق الى الارض واخيرا رفعه وقال ــ

ــ انا اعرف جوست مسمر من سن الحداثة فقد حضر مرة في ايام العطلة المدرسية الى هنا وكان اذ ذاك فقيرا على انه كان ممتــازا بالذكاء والاجتهاد فهل كان هذا وحده السبب الذي اوصله الى المركز الرفيع الذي يشغله الان

ــ ان ورثة عظيمة قد جعلته من اكبر اغنياء العالم

ــ وهل تزوج ؟

ــ كلا

ــ لم افكر قط بغناه المالي لانني اعتقد بان الغنى وحده لا يجلب السعادة

ــ هذا اكيد لانني علمت انا ايضا ان السعادة لا تكون في الغنى وحده

وفي تلك الساعة جالت في مخيلته كل اكداره الماضية وتذكر

موت والدته في تلك الغرفة الحقيرة وذاك السر العظيم الذي باحت به فوق سرير الموت وكيف انها كانت تتدرج في النقائص والدنايا توصلا الى معاشه ومعاشها فقطعت كل هذه التصورات صوته وقال

— نعم ياسيدي انا منقطع في العالم وجوست مسمر هو السند الوحيد لي وانني احفظ له في فوءادي محبة واعتبارا اكيدين

— وهل يدري بالخطة التي تسلكها الان؟

— نعم سيدي هو يعرفها • قال كوتياه بكل رزانة

— ان كل ما قلته لي عن تاريخ حياتك يوءكد لي انك تنطق بالصدق واذا كنت تراني كثير الاستطلاع فذلك محافظة على ابنتي الوحيدة وطلبا لراحتها ومن الان يجب ان تعتقد بانك لم تبق يتيما لانك ستجد مني ابا روءوفا

— اه • ما اشرف هذه الاحساسات • قال كوتياه والدمع يهطل من عينيه فكيف يجب ان اكافئك

— بان تجعل ولدي العزيزة اسبارنس سعيدة

فلم يقدر كوتياه ان يتملك نفسه لدى هذا الكلام واطل رأسه من النافذة ليخفي عن الدوق دموعه المتساقطة وكانت اسبارنس جالسة قبالة النافذة تحدق بكل قوة نظرها اليه علها تقدر ان تخترق المكان وتدرك ما يدور من الحديث بين والدها وحبيبها فرآها الدوق واومأ اليها ان تصعد ولم يمض القليل حتى ظهرت واقفة على باب الغرفة

ــ انا الذي اريد ان اقدمكِ لخطيبك · قال لها الدوق وقد امسك يدها فوضعها بيد كوتياه ونظر اليهما نظرة الحنو والرأفة وتأمل ذينك الوجهين اللذين كانت تظهر عليهما كل دلائل الشبيبة والنشاط والطهارة ثم مد يده الى كوتياه وحثه ثانية ليكون مجتهدا ونشيطا ليستطيع الحصول على اسبارنس وخرج الثلاثة الى الحديقة · اما اسبارنس فاسرعت لتبلغ روجينا الخبر الذي لم تتلقه بسرور لعلمها بالسر المكتوم بين كلاديس وروسكوف بشأن هذين الملاكين اللذين كانا لا ينظران في تلك الساعة الا الى حبهما.

ــ اه · ايها المحبوب والمعبود · قال روسكوف وهو ممسك بيد كلاديس وكلاهما مختليان بين الخمائل والادغال · لقد قدر لي ان اصل اخيرا الى مرامي · فان مئات الملايين واكياس المجوهرات والمناجم والمراكب والخدم والضياع في اخصب بقعة من الارض في اوستراليا كل هذه الاشياء ستكون لخدمتنا وواسطة لعدم افتراقنا

ــ كل ذلك سيكون مساعدا لعدم الافتراق قالت كلاديس · اه · انك تعدني بعدم الانفصال · فما اجمل هذا الوعد · وما الذ اعادته على مسمعي · بربك اعده علي · قل لي انك لا تنفصل عني الا بالموت

فاذا على قبري مررت حبيبتي ، من ترب رمسي ان تنادي اسمع
يأتي الجواب من التراب بحرقة انى بحبك في التراب لارتع

ــ ولكن اذا عصى كوتياه ارادتنا ولم يطالب بورثة دكسون

فما العمل ؟ قالت كلاديس بلهجة القلق

ــ اذا قدر وعصى كوتياه فان امامنا طريقا مضمونة النجاح وان تكن صعبة

ــ وما هي ؟

ــ هي اغتيال مسمر لاننا بذلك تقطع علاقة كوتياه معه تماما

ــ تقتل مسمر ؟ قالت كلاديس مرتاعة · ارتكاب جريمة القتل هذا لا يكون

وافتكرت في الحال باثمها السابق الفظيع يوم كاد السمينسكب من يدها في كأس جوست فارادت ان تحاول محو هذا الفكر من مخيلتها ولكنها لم تقو على ضبط شعورها فصرخت مذعورة

ــ جريمة القتل ؟ اه · كلا · كلا · فانا لا اريد ذلك

ــ وهل انت خائفة ؟ قال روسكوف

ــ نعم اخاف وكادت تقر باثمها السابق غير انها ملكت روعها ثم قالت

ــ لا شيء يوجب هذه المخاوف الان وانا متيقنة بان كوتياه سيجري ما تقوله له للحصول على اسبارنس ·

وكانت روجينا تسمع وهي مختبئة بين الاشجار كل ما دار من الحديث بين هذين الشقيين وفوءادها يتقطع خوفا على حيـاة جوست وسعادة اسبارنس

الفصل التاسع

لم يمض على هذه الحوادث بضعة ايام حتى عاد كوتياه الى باريس استعدادا للذهاب الى رومية للدرس والتنقيب في متاحفها العظيمة واثارها القديمة وكان ظهوره في نزل الامبراتريس وهو متمتع بكل طمأنينة الفكر وراحة الضمير وبدون ان يذكر شيئا مما جرى له في قصر سان سافان امام جوست قد اراح بال هذا واقنعه بان الفتى صادف بعض الموانع الفعالة فحولت فكره عن ابنة الدوق وانه يقصد ان ينسى حبها بانهماكه بالدرس والعمل

ولكن الطمأنينة التي حلت في نزل الامبراتريس قابلها اضطراب وقلق في قصر سان سافان لان تأجيل موعد الزواج مدة سنتين قدشغل بال روسكوف واستطال المدة لخلو يده من المال اللازم لنفقته اولا ثم لما كان من الممكن ان يحدث من التقلبات والتغيرات فيخلالهما فقرر الذهاب الى باريس ليبحث اولا عن مركز يحصل به لوازمه وفي الوقت نفسه يبقى قادرا على مراقبة كوتياه على انه لم يكد يكاشف كلاديس بهذا الفكر حتى اجفلت وقالت له

— تقصد ان تتركني منفردة هنا · تتركني لمدة مع الاميرال . هذا لا يكون

ومع ذلك فان ذهابي من هنا ضروري · قال روسكوف وشرح

لها الظروف التي كان فيها

ـ اذن ان كوتياه هو الشخص الوحيد الذي يقدر ان ينجينا من هذه الصعاب بزواجه باسبارنس ؟

ـ ان زواجه لا يتم الا بعد سنتين وفقا لارادة الدوق الا اذا طرأ شيء يوجب السرعة . قال ذلك بالفاظ متقطعة ولهجة توجب الشبهة

ـ انا اعلم . قالت بصوت متقطع . ضرورة هذا الزواج حفظا لمركزك . فهل لم يبق معك شيء من المال ؟

ـ لا شيء

ـ لماذا لا تطلب من الدوق ليسلفك بضعة الاف فرنك ؟ فانه يفعل ذلك بكل سرور

ـ لا اطلب مطلقا ولا اريد ان اوقفه على حقيقة حالي .

ـ ان هذا من الكبرياء

ـ قد يكون ذلك على انني لا اطلب منه

ـ اذن ؟

ـ اذ نيجب ان نقرب موعد اقتران كوتياه باسبارنس

ـ وهل تنسى ان هناك رجلين يحولان دون اتمام هذا الامر

ـ انني اعلم جيدا لذلك عرضت عليك حلا للمشكلة فاجفلت كما لو كنا قد اجريناه

ـ اه . اثم ؟ اثم ؟ قتل جوست ؟

ـ ولماذا لا ؟

ــ ليكن · قالت كلاديس برعبة · ولكن يبقى الاميرال ممانعا اتمام الزواج قبل انقضاء السنتين

ــ ليقتل هو ايضا

ــ انك تخيفني بهذا الكلام

ــ انك جبانة · فلماذا الخوف ؟

ــ اخاف ان تنكشف هذه الجرائم · اخاف من القصاص · اخاف من السجن · اه انك لم تفتكر في ذلك · لم تفتكر في العار الذي يلحقنا لو قدر واكتشفت هذه الاثام

ــ انك غير اهل لي ولما يكنه فوءادي لك من الحب فانك لو كنت صادقة في كل ما تظهرينه لي من الوجد والغرام لما كنت تتاخرين دقيقة عن الموافقة على رأيي بل كنت تطرحين جانبا سائر الاوهام وانت فوق ذلك لا تحبين زوجك بل تبغضينه كما قلت لي مرارا ولا تغفرين شيخوخته تجاه صباك وجمالك وكنت ترغبين في التخلص منه لانه يعرقل مساعينا فاذا اخمدنا انفاسه تقدر ان نزوج اسبارنس بدون صعوبة

ــ خفض صوتك · قالت له وهي تنظر الى ما حولها نظرة الرعبة فان الاشجار ذاتها لها اذان في هذا المكان ولا شك ان روجينا مختبئة الان في ظل شجرة منها

ــ اما هذه فان امرها ينتهي في الحال · قال روسكوف

ــ هذه تقدر ان نتخلص منها بالطرد · قالت كلاديس باستهزاء ·

ونكن يجب ان نرتكب جريمتين لنكون سعداء واغنياء ؟ يجب ان نتمشى وراء العادة على جثتين ؟ اه جريمتان ؟ قالت هذا وتذكرت كل حياتها الماضية فوقف شعر راسها وتكلل وجهها عرقا باردا وكانت هذه الافكار قد اخافتهما عن غير قصد منهما فطلبا زيادة الانفراد وتوغلا في الحديقة الى ان صارا في وسط البرية وكانت الطريق امامهما قد ظهرت باهتة لانحجاب اشعة الشمس التي كانت تختبيء في الافق

وبينما كانا يتقدمان تائهين على تلك الحالة استلفت نظرهما كلام شابا يقول

ـ اليس سيدي من سكان القصر ؟

ـ نعم قالت كلاديس وقد بهتت لهذا السوءال الذي لم يكن الا من كوكوس · فماذا تريد ايها الفتى ؟

ـ كل ما اريده · قال كوكوس بذل · هو ان تسمحي لجوقتنا بان يمثل ليلة امامكم فقد اتيت لاجل طلب هذا الاذن مرارا وكنت اعلل النفس من يوم الى اخر مع كوني متيقنا من انكم تسرون بالعابنا وانك ياسيدتي لا تندمين على تعطفك هذا لان جوقتنا مستعد لاجراء كلما يروقكم وانا رغما عن هذا الضعف والهوان ترين ان ما اصنعه ليس بالقليل فانني ارقص على الحبال وانهض الاحمال والاثقال واتلاعب بها كما تتلاعب الاولاد بالاكر · نعم انك ربما لا تصدقين ما اقول ولكن هي الحقيقة التي ارجومنك ان تسمحي لي بتمثيلها امامكم

وكان منظر الشمس الغاربة يزيد منظر كوكوس كابة وحزنا

واستعطافه يطبع فوق جبينه علامات الانكسار والذل وشفتاه المصفرتان تظهران ابتسامة اليأس والقنوط الا انه بالرغم من هذه المظاهر كان المتأمل في ملامح وجهه ووجه كلاديس يرى مشابهة غريبة. فمالت اليه الدوقة وقالت

— قد اذنت لكم بالحضور في هذا المساء . واستأنفت سيرها مع ليونال . وانطلق كوكوس بكل سرعة نحو جوقه الذي كان ينتظره في عربة على سفح جبل هناك واعلم رفاقه بحصوله على الاذن ووجوب الذهاب في ذلك المساء . وبينما كان فنطوش وبوادو يستعدان للذهاب تقدمت كازال الى كوكوس وقالت له

— لو تعلم ماذا حلمت وانا نائمة الان . فقد حلمت اننا نلعب في قصر دوبان وان سيدة ذاك القصر هي والدتك

— ما هذا الحلم الغريب ؟ دعيني من الاحلام والاوهام التي تصور لك دائما انني ولد امرأة شريفة والحقيقة انني ولد امرأة من تلك السواقط وربما تكون قد اضطرت الى بيع ذاتها حفظا لحياتها

وكان حينئذ وقع خطوات يتقدم نحوهما فنظرت كازال واذا بامرأتين مقبلتين هما اسبارنس وروجينا (وكانتا وهما تتقدمان قد وصلتا الى قرب كوكوس فمشى نحوهما وبعد ان انحنى امام اسبارنس تكلم) وكانت تلوح على وجه اسبارنس دلائل البشر والانشراح لان كوتياه قد كتب الى والدها عن استعداده للسفر القريب الى رومية ليتمم دروسه العالية الا ان روجينا لم تكن تظهر اقل ارتياح الى ذلك

وبقيت صامتة رغما عن السرور الذي تظهره اسبارنس وهي تعيد لهــا قراءة التحرير فاقلق السكوت الابنة وقالت

ــ لماذا هذا السكوت ايتها العزيزة روجينا ? ولماذا اراكِ دائما قلقة و كئيبة عوضا عن ان اراكِ تشاركيني في فرحي وسروري ? فان عينيكِ لا تزالان مملوءتين من الدموع فهل انت غير سعيدة معنا ?

ــ نعم انا سعيدة

ــ ولماذا اذن هذه الكآبة والدموع ?

ــ هما عليك وعلى والدك · لانكما انتما العزيزان لدي على هذه الارض فانك الان ترين الحياة امامك جنة حافلة بالازهار البديعة والطبيعة تضحك لك · او انها تتظاهر بذلك والرجاء مفعم فؤادك سرورا والحب يسكره حبورا ولكنني اخاف من عواقب هذه السعادة وهذا الحب · نعم اخاف

ــ اماذا الخوف وهذه التخيلات ?

ــ تحذري وتيقظي يا اسبارنس

ــ ولماذا كل ذلك ? الم يرض والدي بكوتياه ? نعم قدرضي وانالني فوق ما كنت ارجو ولي عدا ذلك رجاء بالله كبير

ــ اه نعم صلي يا اسبارنس · صلي يا ابنتي الحبيبة · وضعي ثقتك دوما بالله·لانه بدون الثقة بالله لا سعادة حقيقية للانسانوبدونها تنقلب كل التأملات اللذيذة الى احلام كاذبة وتهدم كل امــال المستقبل

وكانتا وهما تتقدمان قد وصلتا الى قرب كوكوس وكازال

ــ الا تعرفين هذا الولد المسكين ؟ قالت اسبارنس

ــ كلا

ــ الا تذكرين ذاك التعس الذي اويته بضع ساعات في ايــام لحصار الراعبة

ــ اه تذكرت . قالت روجينا . ونظرت الى كوكوس نظرة الشفقة والحنان فان ملامح وجهه الضعيف لم تتغير ثم تابعتا المسير

ــ ان هذا الولد واتباعه سيحضرون في هــذا المساء الى القصر لتمثيل بعض الالعاب على ما عرفت من روسكوف

فاجفلت روجينا لدى سماعها هذا الاسم وتذكرت ما كان قرره هذا الشقي مع الدوقة من وجوب قتل مسمر وتوقف دمها باردا في عروقها لاعتقادها بامكان وقوع الجرم واختفاء القاتل في مدينة كبيرة مثل باريس . وكان سكوتها عن ذلك يقلق افكارها وتخاف ان هي اعلمت جوست ان يكون ذلك سببا لمبارزته رومكوف الذي يتغلب عليه لا محالة فتتم الغاية المقصودة من قتله وكانت هذه التصورات تضرم في فوءادها نارا تذيب حشا ها فتسيل من ماقيها مع انها لم تكن تعلم بكل ما قرراه وكانت تجهل اتفاقهما على مقتل الدوق ايضــا ويذهلها عدم اتفاقهما على ذلك طالما فقده يجعلهما غنيين وحرين ثم مالت الى اسبارنس وقالت

ــ قلت لك انني خائفة من المستقبل لانني لا ارى حوالينا الا

مهاوي ومخاطر تحيط بنا من كل جانب فان دموع ابيك المنسكبة في خلواته وكثرة انفراده واحزان قلبه الكبير — ذاك القلب الذي لم يكن يتهيب الموت واصبح الان اسير الاضطرابات — لا بد ان يكون لها يوما ما تأثير فتحذري يا اسبارنس

— اه ياصديقتي روجينا · قالت الابنة · نعم انني قد رأيت والدي مرارا عديدة يذرف الدموع ولم اقدر ان اعرف سببا لذلك ولم اجسر على سؤاله · فبالله عليك قولي لي ما هو ذاك السر · انك ولا شك تعلمين شيئا — تعلمين بان في الخفاء شرا يدنو منا · ومع ذلك اراك تخفينه عني · بربك قولي لي · وثقي بانني قادرة على التحمل فانت تعلمين انني لم اعد طفلة صغيرة ولي الان طاقة على ان احتمل سهام المصاعب والمتاعب واحكام القدر والنصيب

— ايتها الابنة المسكينة

— قولي لي · فان سكوتك يمزق فؤادي جزعا · انذريني بالخطر اذا كان ثمة خطر · قولي كل شيء ومتى عرفت ذلك اعرف كيف ادافع عن نفسي وعن سعادتي وعن حبيبي كوتياه

— واذا كانت هذه المدافعة تضطرك الى مخاصمة والدتك وروسكوف ? سألت روجينا فماذا تفعلين ?

فاصفر وجه الابنة وقالت · اقاومهما · اخاصم والدتي وروسكوف ولكن الا تعلمين ياروجينا بان والدتي راضية عن خطبتي ?

— نعم اعلم ذلك

ـ اذن

ـ لا تسأليني فيما بعد لانني لا اقدر ان اقول لك الان شيئا على اننا كلينا سنضطر الى المدافعة في وجه المخاطر · اقول كلا الا انني انا معك واكون بقربك دائما

وكانتا تتقدمان على مهل في طريق القصر وروجينا تحذر اسبارنس من الشرور المقررة بين والدتها وروسكوف وان لم تطلعها على حقيقتها وكان صوت جرس المائدة يدعوهما الى العشاء فاسرعتا ودخلتا القاعة واخذت كل منهما كرسيها وبينما الكل جلوس الى المائدة قرع الجرس الخارجي فقال روسكوف

ـ ان جوقا متجولا سيأتي في هذا المساء ليمثل لنا بعض الالعاب واظن انه هو الاتي الان · واذا باحد الخدم دخل وقال

ـ جوق من النور

ـ جوق من الممثلين المبدعين قال بوادو الذي كان قد وقف في الباب وهو حامل قيثارته الكبيرة

ـ عزف على الات الطرب · العاب خفيفة · رقص على الحبال هذا هو جوقنا قال فنطوش وهو يقدم كوكوس الى الامام وينظر بملء عينيه الى فضلات تلك المائدة الانيقة

ـ اما كازال فكانت تمد بساطا خشنا على الارض ليكون بمثابة مسرح وبعد ان اتمت عملها وقف كوكوس وقال

ــ سيداتي وسادتي • ان جوقنا سيبدأ الان بعزف بعض الالحان الجميلة

ــ لا٠ لا٠ الرقص على الحبال والاحمال الثقيلة اولا ٠ قالت كلاديس ضاحكة

فنزع الولد في الحال صدرته وقميصه وكشف عن صدره فبانت اضلاعه البارزة من خلال الجلد وقال

ــ اسمحوا لي اولا بان اقدم نفسي ٠ فان اسمي كوكوس ولد لوالدين مجهولين وكل ما لي من الثروة والملك والارث هو هذه الذخيرة (واشار الى الذخيرة التي وجدت في عنقه عندما حملته كازال من بين الثلوج الى عربتها) فهي كل ما لي وهي الشيء الذي لم يفارقني منذ حداثتي

ــ وماذا تتضمن هذه الذخيرة ٠ قالت اسبارنس

ــ هذا هو سري ياسيدتي

وكانت كلاديس الواقفة بقرب النافذة قد اصفر وجهها وجحظ نظرها وروجينا التي تبعد عنها بضع خطوات اضطرت الى الجلوس على كرسي امامها حتى لا تقع الى الارض مغمى عليها وتبادلت الاثنتان النظرات متفاهمتين عن مقصد خفي

اما كوكوس فكان قد انهض كرة من الحديد واخذ يقلبها بين يديه بمهارة وقوة غريبتين وكان روسكوف يضحك مقهقها وكلاديس تتكلف الضحك وكأن ضحكها لم يكن يخرج من صدرها بل كان

يمسك بمـانع داخلي ، ولم يمض الا القليل من الوقت حتى صرخ كوكوس صرخة قوية ووقع الى الارض لان الكرة كانت قد افلتت قضاء من بين يديه ووقعت على ابهام رجله اليمنى

ــ اه يا الله ، قالت كازال وقد تقدمت اليه

ــ لا تقلقي ياوالدتي ، قال الولد الجريح ، فالجرح ليس بذي بال · ثم حاول النهوض فوقع ثانية الى الارض

وروسكوف ــبقي يضحك دون تأثر لحالة الولد ضحكا يمزق الاحشاء غيظا ، وروجينا التي قصدت ان تتقدم نحوه خانتها قواها ولم تقدر على النهوض عن كرسيها · وكلاديس كان اصفرار وجهها يزداد وقد ارتجف كل جسدها · وكان الدوق على بعد بضعة اقدام عنها ينظر الى وجهها ويفكر في اسباب انقباضها وتغير ملامحها فاراد ان يرى بذاته جرح الولد فتقدم اليه وهو منطرح على الارض ونظر الدم المتصبب من قدمه وتأمل حالته المحزنة وضعفه المخيف ثم رأى على صدره الذخيرة الذهبية فلم يقدر ان يملك نفسه من انفعالات غريبة واخيرا رجع الى كرسيه حائرا

ــ اه · ان الحادث بسيط، قالت كازال ،فليستهيالمرة الاولى التي اصابه فيها مثل هذا

ــ ما العمل الان بهذا الولد وهو على هذه الحالة ؟ قال فنطوش

ــ سنبقيه هنا بضعة ايام ، قال الدوق ، الى ان تتحسن حالته ·

فارتجفت كلاديس اذ سمعت هذا الكلام وهوت الى الارض

مغمى عليها

— ونبقي هذه السيدة ايضا لخدمته وملاحظته ، قال الدوق وهو يشير بيده الى كازال

وللحال نقل كوكوس الى احدى الغرف المعتزلة في الحديقة المتصلة بالقصر بممشى طويل وتبعته كازال وبعد ان نال فنطوش وبوادو مبلغا من المال عادا الى عربتهما في سفح الجبل وهما يتحدثان عن هذا الحادث ويؤملان ان يعودا بعد شفاء كوكوس الى عملهما

الفصل العاشر

بينما كان الشقيان يبنيان من المستقبل قصورا شاهقة ويؤملان ان تتحسن حالتهما بعودة كوكوس اذا بقيت رجله معطوبة كانت تجري في قصر سان سافان امور ذات شأن فبعد ذهاب فنطوش وبوادو واعداد غرفة لكازال وكوكوس كانت كل من كلاديس وروجينا قد ذهبت الى غرفتها وكذلك فعل الاميرال وكل من هؤلاء الثلاثة كان مضطربا قلقا لا يألف جفنه الرقاد وكان الاميرال وهو جالس في غرفته يفكر في كيف ان كلاديس قد اصفر لونها وارتجفت حالما كشف الولد عن صدره واشار الى تلك الذخيرة · وكذلك روجينا فانها اضطربت ايضا حتى انه هو نفسه لم يستطع منع نفسه من الشعور ببعض الفواعل الغريبة · فلماذا كل ذلك ؟ وبينما هو قلق من هذه

الافكار التي ساورته سمع حركة في غرفة الدوقة فاجتاز الممشى الذي يفصل بين الغرفتين وتقدم نحو الباب وبهدوء وقف يصغي مع ان عملا مثل هذا لم يسبق له في حياته ولكن في تلك الساعة كانت قوة غريبة تدفعه اليه فان قلق واضطراب كلاديس الظاهرين له قد شغلا افكاره · فقرع الباب وللحال رفعت كلاديس الستائر بيدهـا المرتجفة واطلت من الباب قائلة

ــ انت ؟

ــ نعم فقد سمعتك تتمشين في هذه الساعة المتأخرة من الليل فخفت ان تكوني مريضة · ونظر اليها فرأى اصفرار وجهها لا يزال على حاله فتابع الكلام قائلا

ــ مالك ترتجفين ؟ مالك تضطربين ؟

وكانت نظراته القاسية تزيدها اصفرارا واضطرابا فاجابت

ــ ان معي نوبة عصبية واشعر بانني مريضة · قالت ذلك وجلست بقرب النافذة والقت رأسها على شبائك الحديد المذهبـة والدموع تتساقط فوق وجنتيها على غير قصد او انتباه منها ولا تحاول اخفاءها او مسحها

ــ على م البكاء ؟ لماذا تسكبين الدموع ؟ لماذا هـذا القلق والاضطراب ؟ قال الدوق بلهجة حادة كأنه قاضٍ يستنطق مذنبا

ــ لا شيء . سبب القلق · انني متهيجة من نوبة عصبية ليس الا

ــ سابعث اليك رزجينا · قال الدوق وخرج من الغرفة يجتاز

المماشي الطويلة الفاصلة بين مسكنها ومسكن روجينا حتى وصل الى امام غرفتها فناداها مرتين ولكن الفتاة لم تجب نداءه مع ان باب غرفتها كان مفتوحا على مصراعه · فقرع الباب ولكنه لم يسمع جوابا فدخل ونادى — روجينا · فلم يسمع الا صدى صوته

وكانت الغرفة بدأت تتراءى له جيدا على الضوء الداخل اليها من زجاج النوافذ فرأى ان الفتاة لم تنم بعد وان سريرها لا يزال على حاله فاضطرب فكره وحار في امر غياب الفتاة في تلك الساعة المتاخرة من الليل وانقلبت كل افكاره الحسنة فيها الى الضد وقال

— روسكوف · روجينا · اه · ان روجينا معشوقة روسكوف ؟ هذا لا يكون · هذا غير ممكن · ولكن اين هي ! انني لا اقدر على ازاحة هذا الفكر من مخيلتي · ماذا تقول كلاديس لو اعلمتها بغياب روجينا ؟

ثم خرج من الغرفة على مهـــل وصعد الى مقره وبعد قليل عاد الى غرفة كلاديس فوجدها حيث تركها بقرب النافذة ولا تزال على حالها من الاصفرار والاضطراب فدنا منها وقال

— يجب ان تغلقي هذه النافذة وتعودي الى فراشك لئلا يوءثر فيك الهواء القارس

— واين روجينا ؟

— روجينا نائمة ولم احب ايقاظها

— حسنا فعلت · قالت وهي تنهض من قرب النافذة · والان فان

هواء الليل قد انعشني وصرت اشعر براحة ترغبني في الرقاد · قالت ذلك وعطفت رأْسها نحوه فقبل جبينها وانصرف الى غرفته · اما هي فانها بعد ذهابه افاقت من غفلتها ووقفت امام المرآة فرأَت اصفرار وجهها ودلائل الاضطراب بادية عليه فتبسمت وقالت

« حقا انني حمقاء جاهلة · فماذا يهمني من امر هذا الولدالتعس فانا لا اعرفه ولا اريد ان اعرفه وما هذه الذخيرة المعلقة في عنقه ؟ وهل هي الذخيرة الوحيدة ؟ ثم تنهدت واستطردت الكلام · اه لو كنت اقدر ان اعرف ماذا تتضمن· اين السبيل الى ذلك ؟ وكيف اتمكن من هذا الامر ؟ نعم ان روجينا هي الوحيدة التي تقدر على معرفة ذلك · وحينئذ عاودتها تخيلاتها وهواجسها فعادت الى التمشي في الغرفة وثارت فيها حاسة الندم وتبكيت الضمير على ما مضى من حياتها وتركها ولدها الذي لم تكن قد رأَته الا قليلا · فهل من الممكن ان يكون هذا التعس المهزول الذي لا اثر للحياة الا في عينيه ولدها المفقود وان يكون دمها يجري في عروقه · ثم عادت اليها الارتجافات فارتمت على كرسي كبير ووضعت رأْسها بين يديها وصرخت · ..ه المعرفة · معرفة ما في الذخيرة · معرفة حقيقة امر هذا الولد · اهذا مارسل ذلك الطفل الملائكي الجميل · اهذا هو ولدي وشريك د..ي وفلذة كبدي ؟

وكانت حمى قوية قد اصابتها وعرفت في تلك الساعة ما .ي قوة توبيخ الضمير فان كل حوادث ايامها الماضية تمثلت امامها كأَنها

تقرأها في كتاب دون ان تنسى شيئا منها · وكانت تنظر امام عينيها ذلك الولد الصغير الذي كانت تحبه كثيرا وفي الوقت نفسه تتأمل ما صنعه الشقاء والتعاسة بهذا الطفل الملائكي الذي كانت قد دعته مارسل · لماذا تركته ? لماذا اهملت الوالد والولد ? لماذا كل هذه الخيانة والقساوة ? اه للاقتران ببيار دوبان · للتمتع بالغنى · للحصول على لقب شريف ! وكانت مرآة ضميرها ترسم لها كل هذه الامور وتذكرها تصرفاتها الماضية وتصور لها تعاسة وشقاء الولد بدون والدة ـ بدون عائلة · بدون عضد او معين · وعبثا حاولت تسكين صوت الضمير الذي كان يناديها قائلا · انت ملعونة · انت شقية · انت قاتلة

وكان الرقاد قد هجر ايضا عيني الدوق · فبينما كانت كلاديس تقاسي من عذاب الضمير اشده كان هو يتقدم بهدوء نحو الغرفة التي خصصت لكوكوس وهو يتوقع انه بدخوله الى تلك الغرفة يقدر ان يبرىء الفتاة الطاهرة روجينا من اتهامه اياها بعشقها لروسكوف

اما الغرفة فكانت منفردة في اخر ممشى طويل يمتد اليها من القصر وكان بابها وشبابيكها مفتوحة وهناك بقرب سرير الجريح كانت روجينا واقفة بكل هدوء وعلى بعد بضع خطوات كانت كازال متكئة فوق كرسي كبير والسكينة التامة سائدة في ذلك المكان حتى ان الدوق كان من الخارج يقدر ان يسمع اقل حركة او كلمة

اما روجينا فكانت قد عرفت ان الصدف وحدها هي التي قادت ابن الدوقة الى بيت والدته ولهذا اسرعت اليه حين انفراده في الغرفة

ووقفت مدة تتـأمل ذلك الولد الضعيف والجسم المهزول · وتفكر في نفسها وتقول · يجب ان اتحقق اذا كان هو ابن كلاديس وجوست ثم انحنت فوق صدره فابصرت الذخيرة ولم تقدر ان تحول نظرها عنها

— نعم هذه هي الذخيرة التي وضعتها في عنق الطفل مارسل وزادت انحناءها حتى كاد جبينها يلامس وجهه ونادت بصوت كاد يسمع · مارسل · ففتح الولد عينيه الجميلتين اللتين تشبهان عيني كلاديس اشد المشابهة ونظر بكل لطف الى الفتاة الا ان الحمى الشديدة اطبقتهما حالاً فتراجعت روجينا قليلا بالرغم عنها الى الوراء وهي تقول اه هذا هو · ولكن · يجب ان لا يعرف سر ولادته فان ذلك يثلم شرف الدوقة · الا اننا نقدر في كل الاحوال ان نعتني به الاعتناء التام · نعم هذا هو ابن كلاديس دوقة دوبان الجميلة الغنية الشريفة · وابن جوست مسمر الذي نظرا لاتساع ثروته يلقب بملك الذهب · ومع ذلك فان الولد يكاد يموت من الجوع والشقاء

وكانت كازال بعد اضطرابها وما عانته من التعب كل ذلك النهار قد القت زندها على قائمة الكرسي وارخت رأسها فوقه ونامت · وكانت الذخيرة لا تزال تلمع فوق صدر كوكوس فمدت روجينا يدها وفتحتها وقرأت هذه العبارة

« تذكار من روجينا الى فليونها مارسل »

عند ذلك لم تعد تقدر ان تضبط نفسها فاغلقت الذخيرة بيـد مرتجفة وقالت بصوت مسموع · هذا هو · هذا هو · وتذكرت في

ذلك الوجه الضعيف كل ملامح الطفل العزيز مارسل ولم تتمالك ايضا من القول · هذا هو · هذا هو · ثم مشت مضطربة مذعورة تحت جنح الليل وعادت الى غرفتها

اما الدوق فكان واقفا امام الباب على بعد بضع خطوات من روجينا وقد سمعها تقول · هذا هو · هذا هو · ورأى اضطرابها وانسحابها الى غرفتها دون ان تراه وتنتبه اليه ومع شدة قلقه فضل ان يبقي الامر الى الغد ولم يعترض الفتاة في طريقها

نعم كان الدوق قد سمع ونظر كل شيء ولكنه لم يعرف بعد اية من هاتين المرأتين هي المذنبة لان الفتاة لم تلفظ اسم كلاديس ولا هو قدر ان يحكم على روجينا بالنظر لما كانت مجملة به من الخلال الشريفة ولا ان يعتقد ببراءتها لانها ليست الا واحدة من بنات حواء

وبينما هذه الافكار تتلاعب به وصل على غير انتباه منه الى الحديقة وهناك تحت ظلال الاشجار وبين روائح الازهار وقف يتامل ماجريات الحوادث وكلمات روجينا التي قالتها بكل لهفة ووجد وبدون تحذر او ترو · هذا هو · هذا هو · وبينما كان غارقا في هذه التاملات وصلت روجينا الى غرفتها وبدون ان تنزع عنها اثوابها ارتمت فوق سريرها واستخرطت في البكاء

•••«(•)»•••

الفصل الحادي عشر

افاقت روجينا باكرا من رقادها المزعج وهي لا تصدق ان ترى كلاديس لتطلعها على حقيقة الامر اما هذه فكانت قد خرجت في الصباح الى غرفة الدوق لترى اذا كان لا يزال مضطربا بسبب حوادث الليلة الجارية وما حصل لها ولتنفي بوجودها بقربه كل شبهة فاخبرها الخادم الذي كان يهتم بترتيب غرفته ان الدوق ركب حصانه وخرج باكرا جدا في طريق سان سافان وبينما هي عائدة اذا بيد امسكتها فالتفتت ورأت روجينا التي مشت معها بكل هدوء الى غرفتها ولما وصلتا نظرت كل واحدة منهما الى الاخرى وقالت الدوقة

— ماذا تريدين ان تقولي لي ? لماذا لا تتكلمين ?

— هذا هو · هذا هو ·

— هو ! من هو ? قالت كلاديس ضاحكة · انني لم افهم منك ولا اريد ان افهم · لا· لا· لا اريد ان افهم شيئا منك ايتها الشريرة التي لا تجلبين الي الا الشقاء والرعبة · فبهتت الابنة وجمد نظرها لدى القسوة التي اظهرتها الدوقة وهذه الخشونة التي قابلتها بها وهي رفيقة حياتها منذ ثلاثين سنة

— تكلمي · لماذا لا تتكلمين ? قالت كلاديس بحدة وقد امسكت يدي روجينا وهزتهما بعنف

ـ ماذا يفيد الكلام ؟ الا تعرفين ؟ اتجهلين ما هو حـادث الان ؟ ! لاتسمعين الزوبعة تعصف في فؤادك ؟ ! لا تشعرين بان هذا التعس اليتيم المسكين هو ولدك وفلذة كبدك ؟ هو مارسل العزيز الذي احببناه كلانا ؟

ـ انك تكذبين • تكذبين

ـ هذا هو • انا اقول لك • هذا هو

ـ تكذبين • تكذبين

ـ اه ان كبرياءك تمنعك من الاقرار بانك والدة هـذا الولد الشريد الذي يكاد يموت جوعا والذي هو هدف لكل شقاء وتعاسة • انك تخافين ان يعلم بانك والدته فيأتي اليك ويوبخك على ذنوبك

ـ ذنوبي ؟

ـ نعم ذنوبك • وانه لذنب عظيم ان تنكريه وتحرميه التمتع بالعيشة الهنيئة التي كان والده قد اعدها له •

ـ ماذا تعنين

ـ لو كنت قبلت بزواج مسمر لكان الولد سعيدا ولكنك سلبت سعادة الولد برفضك الوالد

ـ اخرسي ايتها الشقية

ـ نعم اعيد الكلام واقول ذنوبك • انك ارتكبت ايضا ذنبا اخر بقبولك اسم رجل شريف قد اهنته بتصرفك المعوج لان هنا في هذا القلب ، واشارت الى قلب كلاديس ،لم يبق من اثر للاحساسات الشريفة

ـ اه ٠٠قلت لك اخرسي واصمتي٠ما هذا٠ولدي تعس ومسكين ؟ هذا لا يكون

ـ انا اقول لك انه ٠ هو ٠ هو

ـ كيف تثبتين ذلك ٠ ومن يثبته ؟ فانني انكره ولا اريد ان اعرفه ابدا فلينتقل حالاً من هذا البيت وليبعد في هذه الساعة

ـ اه ما اشقاك قالت روجينا بحرقة فقد كنت تحبينه سابقا ٠ افلا تذكرين تلك الاوقات التي كنا نذهب فيها سوية للنزهة ٠ نعم كنت لا تزالين صغيرة ومع ذلك فان فوءادك كان كبيرا وارى ان مرور السنين قد اغلق قلبك دون كل حاسة شريفة فهذه هي المرة الثانية التي تكلفت فيها الاقدار ان تسوق اليك ولدك الذي ضحيته على مذابح طمعك وكبريائك فان الله قد ارسله اليك في احدى ليالي الحصار القاسية ذليلا يكاد يموت جوعا وبردا ٠ نعم هو نفسه الذي التقطه عن ابواب منزل شارع ميات على تلك الحالة المحزنة فهلا تذكرين ؟

ـ اه ٠ اسكتي واشفقي علي قالت كلاديس ٠ ولكن لماذا سرقه جوست ٠ فلو لم يفعل ذلك لكنت اهتممت به ٠ اه نعم انا اكره جوست لانه هو الذي طرح ولدنا في هذه الحالة التعسة

ـ ولكنك كنت قد اهملته ونسيته ومع ذلك فاننا نقدر ان نستكشف تلك التي يدعوها والدته فانها تخبرنا اين وجدته

ـ انا امنعك عن ذلك٠ فلا اريد ان اسأل شيئا لانني لا اريد ان اعرف شيئا٠ ولا اريد ايضا ان انظر ذلك التعس لا ٠ لا ٠ لا ٠ لا اريد

— اذن لن تقولي له كلمة تجبر فوءاده الكسير · ولا تحضري معي مستغنمة فرصة نومه لتختلسي النظر الى وجهه الضئيل وتبكي فوق ذلك الجسم النحيل بدموع الوالدة وتركعي بجانب وسادته منكسرة القلب مفتتة الكبد طالبة الرحمة والمغفرة وتسألي الله ان يحفظ ذاك الذي حملته في احشائك سائلة اياه ان يفتح ابواب الرأفة والشفقة في فوءادك ويوءهلك لان تكوني والدة حنونة وروءوفة · اه انك لا تفعلين شيئا من ذلك ? بل تنبذينه ليعود ثانية الى حالته الاولى من الشقاء والتعاسة والفقر والمسكنة ومن يعلم ان هذه الاشياء اذاقرنت بالمثل الرديء والتربية السيئة لا تقوده الى القتل والنهب وارتكاب كل المنكرات والمحرمات ? فتكونين انت المطالبة امام الله بذلك لان عجرفتك وقسوتك قادتاه الى تلك الحالة · اه منك · اه · اه · !!

— امكتي ايتها الشقية · اصمتي

— اه لو قدر لي ان اكون والدة · لو كان هذا التعس ولدي · لو كان قسما من لحمي ودمي لكنت اجعل حياته المقبلة مشمولة بسعادة تنسيه كل تلك الاحزان الماضية

— ولكن انت حمقاء ، الا تعلمين انني لا اقدر على ذلك وانني متزوجة ولي ابنة تستدعي كل محبتي وفوق هذا فانني لا اعرف هذا التعس ولا اريد ان اعرفه ابدا

— اه يا كلاديس ! ماذا اقول لك فقد كنت في ما مضى والدة روءوفة ولكن عشقك الاخير لروسكوف بدل كل تلك الحاسات

الشريفة وسيقودك الى ارتكاب كل الاثام والجرائم فانك تضحين حتى اسبارنس نفسها في سبيل مرضاته لانك اسيرته وعبدته يتصرف بك كما يشاء وتأكدي انك لو كنت وحدك لكنت هجرتك ولكنني لا اقدر الان على ذلك وانت الدوقة دوبان ووالدة اسبارنس

ــ ماذا ? اوضحي مقالك فانني لا افهم افكارك

ــ انك تضعين في قلب اسبارنس الغرام والمحبة حتى اذا ما تملك الحب فوءادها وصارت لا تقدر ان تعيش بغير كوتياه دكسون تضربين على ذلك الحب ضربتك القوية ليجري الاثنان على ما تريدين نعم انك اذذاك تفرقين بينهما لانك لا ترضين بزواجهما الا اذا ارتكب كوتياه جناية ضد جومت مسمر المحسن اليه وهو لا شك يرفض طلبك بكل شهامة · هذا بعض ما اقوله لك ولكن كوني على ثقة من انني مطلعة على كل شيء · وانني اعيد عليك ما قلته قبلا وهو انك لو كنت منفردة لتركتك في الحال

ــ انا سعيدة اذن · قالت كلاديس ضاحكة · ولكن هل تظنين اننا بعد هذا الاقرار نقدر على البقاء سوية · او انني اقدر على احتمالك فلو كان فيك نقطة من الدم لكنت تذهبين من هنا في هذه الدقيقة

ــ سابقى هنا لان بقائي ضروري ولولا ذلك لكنت كما قلت لك ذهبت من مدة طويلة

ــ اه · انني اعرف كيف اطردك من هذا البيت الذي لم تجلبي

اليه الا التعاسة والشقاء

— قلت لك انني سابقى لان بقائي ضروري وسيأتي يوم ترين فيه نفسك بحاجة الي لان الرجل الذي تعشقينه الان سيتحكم فيك فتذكري كلامي

اذ ذاك دوت في اذني كلاديس كلمات امها المائتة مدام دالابومبار القائلة

« ان هذا الحب سيكون وبالا عليك فاحذري يا كلاديس »

فاضطربت الدوقة دوبان وارتعدت فرائصها لان ذلك الصوت كان يدوي في فوءادها ثم استجمعت قواها وهربت من امام نظرات روجينا القاسية والموبخة وصوت ضميرها الذي كان يعيد لها كلمات والدتها فوقفت روجينا ترقبها وهي شاردة بين الاشجار تجفل من خيالها الى ان توارت عن العيان فالقت روجينا الى ما حواليها نظرة واذا هي وحيدة في وسط الحديقة

اما كلاديس فانها بقيت هائمة على وجهها دون انتباه او تعقل وقد سدل شعرها فوق جبينها وصوت ضميرها ما فتيء يردد في اذنيها كلمات والدتها وهي فوق سرير الموت فيزيدها ذعرا ورعبا وصورة تلك الوالدة وهي تردد النفس الاخير متاسفة على حالة ابنتها تدفعها الى الهرب من كل مكان حتى صارت في وسط الحرج فنظرت امامها رجلا وكان هذا روسكوف

— مالك مرعوبة مذعورة ? فانني اتبعتك من عشر دقائق وانت

سائرة على غير هدى ولا ادراك كأن عارضا مشؤوما قد طرأ عليك ·

— اه قل لي انك تحبني · قالت وهي تضمه بين ذراعيها · فانني بحاجة الى ان تقول لي ذلك الان وان تقوله غدا وتقوله دائما · اه ان قلبي يتمزق · هاك فجس نبضاته وانظر كم في الحياة من الشقاء

— مالك تتصرفين وتتكلمين هكذا ? اانت حمقاء ?

— صحيح انه لا يعرف شيئا · قالت وهي تضحك ضحكا غير اعتيادي ; اخاف من روسكوف · لا · لا · فهو لا يعلم شيئا

فاراد ان ياخذها من وسط الحرج الى السهل الواسع حيث النور والهواء غير انها قاومته بكل قوتها وبقيت في مكانها والدموع الغزيرة تنهمر من عينيها

— انك تبكين ? فماذا اصابك ? قولي لماذا تبكين

— اه انني اقدر ان اقول لك الان ما لا بد من معرفته في المستقبل قالت وهي ترفع راسها الجميل · وماذا يهمني فانا عندما سلمت ذاتي بكليتي اليك لم اقل لك انه كان لي في الماضي عاشق قديم · ولم اقدم لك نفسي كامرأة الى ذلك الوقت شريفة بل سلمتك ذاتي لانني احببتك وما كنت في هذا الامر كاذبة · فانني كنت احبك ولا ازال كذلك وسابقى على هذا الحب ما بقيت في قيد الحياة · اما هو فكان يصغي اليها بكل اضطراب

— اه انك لا تعلم شيئا فساطلعك على كل شيء لعلك تساعدني وتعزيني وتصفح عن الماضي المشؤوم الذي احب ان اكفر عنه بكل

قطرة من دمي فانني وانا عزباء قد كان لي ولد

ــ كنت ارتاب بذلك ، قال روسكوف

ــ كنت ترتاب ؟

ــ نعم ولكن هل ترغبين يا كلاديس ان اذكر اسم العاشق الذي تعنين

ــ قل

ــ جوست مسمر

ــ اه

ــ نعم فقد عرفت ذلك من زمن طويل و كان في نيتي ان اسالك عن هذا الامر

ــ كيف اذن لا تعرفني جيدا ، قالت وهي تستر راسها بيديها ، ولكن الامر الذي لا تزال تجهله والذي لم اجسر على اظهاره لك بعد هو ان الولد موجود هنا

فاضطرب روسكوف وتراجع بضع خطوات الى الوراء

ــ نعم هو هنا نائم الان في احدى غرف القصر

ــ كوكوس ؟

ــ نعم كوكوس بن جوست مسمر ملك الذهب· وولدي انا الدوقة دوبان · هذا التعس · هذا المسكين الذي يعيش مع الاشقياء · هذا المشعوذ الذي كان يلعب البارحة ليسلينا ويكسب قوت يومه · هذا

هو ولدي · وروجينا تعرف كل ذلك وهي ايضا عالمة بعشقنا ومطلعة على اسرارنا

ـ روجينا ؟

ـ نعم روجينا · فانها عارفة بكل شيء

ـ اذن قد هلكنا

ـ كلا لانها لا تبوح باسراري ابدا

ـ وهل انت واثقة بذلك ؟

ـ نعم واثقة ، قالت ذلك وامسكته من يده وتوغل الاثنان بين الادغال

الفصل الثاني عشر

كانت اسبارنس بعد ان قرعت مرات متوالية باب غرفة روجينا ولم يجبها احد مع ان الباب لم يكن مغلقا تماما دخلت الغرفة وهي تقول ضاحكة

ـ اقرع الباب ولا يوءذن لي بالدخول · واذ كانت روجينا تكتب تحريرا استدركت الصبية وقالت

ـ ارجو منك المعذرة اذ لربما اكون ازعجتك

ـ انك ياعزيزتي لا تزعجيني ابدا فضلا عن ان تحريري قد انتهى ولم يبق الا عنوانه · واذا كنت تحبين فاننا نذهب اولا الى غرفة

هذا الولد المسكين كوكوس وبعد ذلك نغتنم الفرصة القليلة في هذه الايام الجميلة ونذهب الى البرية للتنزه

فقهقهت الابنة ضاحكة عند سماعها اسم كوكوس فاعترضتها روجينا قائلة

ــ لماذا تضحكين هكذا كلما ذكر اسم هذا المسكين ?

ــ ان مجرد لفظ الاسم فقط ــ كوكوس ــ يضحكني لانني ارى فيه غرابة كلية

ــ انه لتعس ومسكين يستحق الرأفة والشفقة ولا شك انك متى رايت حالته تكفين عن الضحك

ــ عجبا كيف لا ارى حوالي اليوم الا الهيئات المكدرة فقد نظرت والدي وهو جالس عند نافذة غرفته مقطب الحاجبين حتى انني مررت من امامه ولم ينتبه الي فجئت الى هنا لعلني اصادف شيئا من التسلية ولكن الامر كان على غير ما توقعت حتى انه ليمكن ان يقال انك كنت تبكين

ــ انا ?

ــ نعم انت . فان عينيك محمرتان واجفانهما متورمة كانك لم تنامي في الليلة الماضية بل قضيتها في البكاء والقلق

ــ كنت افكر في والدك ذاك الشخص الوحيد الذي يبقى لك منه انعطاف فيما لو قدر وفارقتكم لذلك لم انم وقد بكيت الليل بطوله

ــ اراني بالعكس فقد نمت نوما هنيئا وحلمت حلما غريبا

ـــ لا يقتضي ان اكون منجمة لاعلم بان هذا الحلم يتعلق بكوتياه

ـــ لقد اصبت

ـــ تكلمي اذن فانا مصغية لك ولا اظنك تجهلين انني افسر الاحلام

ـــ اذن سأسرد لك حلمي · فقد حلمت انني كنت وكوتياه منفردين مختليين في غرفة ووالدتي تبني على حياتنا المقبلة من الامال قصوراً شاهقة ثم رأيت بيننا رجلا قبيح المنظر ففرقنا وكان هذا الرجل روسكوف

ـــ حقا ان ذلك لحلم غريب، قالت روجينا

ـــ ولم يكن ذلك كل الروءيا بل قد رأيت بعد ذلك انني في غرفة فسيحة حيث كان كوتياه منحنيا فوق سرير عليه رجل نائم · رجل كانت اضلاعه ظاهرة من شدة الضعف وعنقه النحيل يحمل رأسا كبيرا فاشار الي كوتياه ان اتقدم اليه فتقدمت متأملة ذاك التعس الذي كانت اشارات الموت من الضعف ظاهرة عليه فامسكني كوتياه من يدي وقال لي انظري الى هذا الشاب فهو اخوك · فصرخت اذ ذاك صرخة قوية وانتبهت من رقادي

ـــ هل حلمت بذلك ؟ قالت روجينا مرتجفة

ـــ نعم واوءكد لك انني قد ضحكت من هذا الحلم حين انتباهي وتأكدت ان الاحلام ليست الا روءى كاذبة · والان اذا احببت فاننا نذهب حسب اشارتك لعيادة الولد المسكين

ــ ليكن كما تقولين ياولدي المحبوبة فانني امر اذ ارى الرأفة في فوءادك لان ساعة الاكدار لا بد ان تدق والله يساعدك فيها على قدر حسناتك

ــ لماذا تكلمين هكذا ؟

ــ لانني اريد لك عيشة خالية من الغم والكدر ، واصلي دائما ليبعد الله الاكدار عنك لان السعادة لا تكون غالبا الا بعد ا نيسعى الانسان للحصول عليها · وكانت وهي تقول هذا الكلام ممسكة بيد اسبارنس تتقدمان نحو الغرفة التي فيها كوكوس وروجينا تسكت مرة بعد الاخرى مفكرة في كيف انه يجب عليها ان تترك هذا القصر العزيز لديها ببعض ساكنيه وتبتعد عن الدوق وولده المحبوبة · وكان سكوتها وتقطع حديثها قد اقلقا الابنة فقالت لها

ــ مالك حزينة ومضطربة ؟

ــ انني افكر فيك وفي والدك بمفارقتي اياكم · افكر في ذاك الذي كنا نصلي دوما لاجله · في ذاك الــذي كان لي السلوة الوحيدة على احتمال فظاظة والدتك · فلاجلك ولاجله ساتحمل كل معاملة سيئة وبالرغم من ارادتي ابقى ما استطعت بينكم

وكانتا قد وصلتا الى غرفة كوكوس وكازال واقفة في الباب تنتظر اليهما

ــ كيف حال مريضنا ؟ قالت ورجينا

ــ يتقدم كثيرا نحو العافية ولولا معارضتي له لكان حاول النهوض والانصراف

ــ يجب ان لا ينهض قبل الثمانية ايام على الاقل

ــ هذا ما قلته له ولكنه يأبى ان يسمع كلامي

ــ انا اقنعه قالت روجينا ، وهي تدخل الغرفة ولكنها لم تتقدم الا قليلا حتى تراجعت بضع خطوات مذعورة من مرأى رجلين كانا جالسين بقرب كوكوس وهذان الرجلان لم يكونا الا فنطوش وبوادو اللذين بعد ان فحصا بعيونهما الشريرة كل مداخل القصر وسرقا ساعة فضية لاحد الخدم كان قد تركها سهوا في تلك الغرفة رغما عن معارضة كازال وكوكوس وقفا هنيهة امام نظرات روجينا النقادة ثم انصرفا وهما يدبران خطة الرجوع لسرقة القصر · وحينئذ تقدمت الابنتان نحو سرير المريض وهو ينظر اليهما بكل انعطاف ويشعر بقوة داخلية تدفعه الى محبتهما فقالتا له · كيف انت اليوم ؟

ــ اشعر انني احسن كثيرا ولولا السعال الذي لم يفارقني الليل بطوله لما كنت اشعر بشيء من الحمى ولكن لا اظن ان ذلك يوجب بقائي في الفراش وسانهض بعد مدة قصيرة واذهب

ــ تذهب ؟ قالت كازال وهي تهز كتفيها · وانت لا تقوى على المشي قبل خمسة عشر يوما على الاقل · انك هنا بكل راحة فلماذا تريد الذهاب ؟

ــ انكما تحبان بعضكما كثيرا ، قالت روجينا

ــ نعم ، نحن نعبد بعضنا ، قالت كازال

ــ وهل هو اخوك ؟ قالت اسبارنس

ــ كلا ياسيدتي ٠ ان كوكوس لا عائلة له فهو ولد مقطوع وجدناه صدفة حين كان طفلا صغيرا

ــ وجوده اذن مثل رواية ، قالت روجينا وهي ترتجف

ــ لا شك بان لولادة كوكوس بعض الاسرار التي لم اقدرعلى حل غوامضها رغما عن تبحري الدائم فيها

ــ تحت اي الظروف وجدتموه

ــ كان ذلك في احدى ليالي الشتاء القاسية في اواسط السافان قرب مرفاجول

ــ في موناستياه ؟ قالت روجينا بدون تفكر

فبهتت كازال لدى السوءال وجمد نظرها على وجه الفتاة

ــ انني اعرف عائلة في موناستياه ، قالت روجينا متبسمة ، ولهذا خطر اسم ذلك المكان حالا في بالي ولا شك انكم قد نظرتم قصراربواز

ــ نعم سيدتي ولكن عن بعد وقد كنت اعتقد بان مولد كوكوس يبطن سرا غريبا

اذن وجدتموه بقرب مرفاجول

ــ نعم حيث اخذناه من بين يدي رجل مائت

ــ اي انكم قد سرقتم الولد ، قالت روجينا وعرق الاضطراب يتحد رفوق جبينها

ــ نعم سيدتي . لقد سرقناه ، قالت كازال بهدوء ، سرقناه اقول ذلك بدون اعتراض على قوة الكلمة وتاثيرها فقــد كنت في ذلك الوقت هناك انا ووالدي الذي قلما يعرف الشفقة . ولكن كوكوس يعلم مقدار حبي له ورغبتي في راحته ويعلم مقدار التعاسة التي احتملناها سوية والتي طالما اجتهدت في تخفيفها عنه ، نعم ان والذي قد اخذه من بين ذراعي رجل ميت ولكن تأكدي جيدا انه لو لم يفعل ذلك لقضى الطفل نحبه مغطى بالثلج

ــ اه كم كان يلذ لي الموت ، قال كوكوس

ــ هذه هي المرة الاولى التي استثقلت فيها وجودك بقربي فهل هذا جزاء اعتنائي بك واسعافي لك ؟ قالت كازال

فجلس الولد فوق وسادته وقال

ــ لقد عرفت بواسطتك كل المحبة والحنو والرأفة وكنت لي بمقام والدة فانا سعيد بمعرفتي اياك ياكازال

ــ وهل كانت هذه الذخيرة في عنقه ؟ قالت روجينا

ــ نعم ولم تفارقه ابدا

فساد اذ ذاك السكوت واصبحت روجينا واثقة من ان هذا الولد هو ابن مسمر وكلاديس وللحال امسكت اسبارنس من يدهاوخرجت واياها من الغرفة وقالت لها

ــ اذهبي الان الى درس امثولة البيانو ريثما اكون قد ختمت كتابي وارسلته الى بيت البريد

وبينما كانت امبارنس تتمم امثولتها كانت روجينا تتقدم الى غرفتها مفكرة قلقة فدخلت وتناولت كتابا من احد جوارير المكتب وكتبت على غلافه

« المسيو جوست مسمر · شارع الامبراتريس ، باريس »

وبعد ان وضعت الكتاب في جيبها تقدمت الى الحديقة وكان الدوق يتمشى هناك بين الاشجار فابصرها تتقدم بقلق واخيرا خرجت من الحديقة فتبعها على غير قصد منه وهو لا يقدر ان يفهم ذلك السر الغريب الذي يدفعه الى اتباعها وما زالت تسير والدوق يتبعها الى ان مرت بولد فقالت له

ــ هل انت ذاهب الى ارجالاه ؟

ــ نعم سيدتي

ــ وهل تريد ان تصنع معي معروفا باخذ هذا الكتاب ووضعه في بيت البريد · وناولته الكتاب فاخذه الولد ووضعه في جيبه وبقي سائرا في طريقه · اما هي فبعد ان رافقته بنظرها حتى توارى عادت في طريق تؤدي الى الحرج لتختلي بنفسها لانها كانت تشعر بميل الى الانفراد

اما الاميرال الذي كان يرقبها فقد استغرب تصرفها وذهابها في ذلك الحرج المقفر وكان يقول في نفسه

« لماذا هي ذاهبة هكذا · وما هذه الورقة التي اعطتها الى الولد؟ لا شك انها كتاب · ولكن الى من ؟ نعم ان هذا الامر هو اعتيادي ومع ولكن يجب ان اعرف حقيقته· يجب ان اعلم الى من ارسلت الكتاب

لان في معرفة ذلك راحة لافكاري وللحال جرى مسرعا وراء الولدالذي كان مثل بقية الاحداث يقف لاقل شيء في الطريق فادركه وهو يلتقط عن الارض بعض اثمار الكستناء فقال له

ــ انك تحمل كتابا الى ادارة البريد

ــ نعم سيدي

ــ اعطني اياه

ــ هل ان السيدة التي في القصر ارسلتك لتأخذه مني ؟

ــ نعم ايها الصغير · الا تعرف الاميرال دوبان؟

ــ اه اعذرني ياسيدي ولكن هذه الورقة قد سلمت الي ولا اعلم اذا كان يجب ان اسلمها الى احد ، قال ذلك وكان قد اخرج الكتاب من جيبه فاخذه الدوق من يده قبل ان يسلمه اياه وقرأ للحال عنوانه فاصفر وجهه وتغيرت ملامحه · روجينا تعرف جوست مسمر · اه ان حسن الظن بها لم يكن في محله فهي وراء هذا المظهر الطاهر تخفي نفسا شريرة ·· كان يقول هذا وهو يتقدم نحو القصر والغلاف لا يزال في يده دون ان يجسر على فتحه ورغما عن معرفته بان تصرفه هذا مغاير للعدل فانه كان يشعر بارتياح الى ما فعل ويطلق فكره للتأمل في ماضي حياة روجينا عله يقدر ان يجد مأخذا يوءاخذها به فلم يذكر الا طاعتها وادابها وحنوها نحو ابنته اسبارنس ولكنه كان يقفمتحيرا عندما يفتكر في وقوع هذا الولد الفقير في قصره وفي تلك الذخيرة التي سببت اضطراب وقلق كلاديس منذ رأتها وكان يعتقد بان هذا

التحرير الذي اخذه من الولد هو مفتاح الاسرار التي يحب اكتشافها وكان وهو يتأمل هذه الامور قد وصل الى القصر وهناك في غرفته الفسيحة وضع التحرير على الطاولة واخذ يتمشى ذهابا وايابا في عرض الغرفة

الفصل الثالث عشر

مضت الساعات والدوق منفرد في غرفته يفكر في كل هذه الحوادث وهو حزين ويرقب من احدى النوافذ افول شمس ذلك النهار الحار وانتشار الضباب والغيوم فوق الوهاد والنجاد وما زال كذلك حتى نبهه من ذهوله قرع خفيف على الباب

ـ ادخل ، قال الدوق

ففتح الباب ودخلت منه روجينا بهيئة الاضطراب والاصفرار يلوح على وجهها

انت ؟

ـ نعم انا ، قالت وهي تتقدم الى وسط الغرفة بصوت مع انه كان دائما لطيفا فانه يشير الى الحزن والغضب

ـ كنت بانتظارك ، قال الدوق

ـ كنت بانتظاري ؟

ـ نعم وبلهجة الضاحك المستهزيء قال ، انت تعرفين جوست مسمر .

ـ نعم سيدي اعرفه

ـ ولماذا اخفيت عنا ذلك ؟

ـ لان الامر لا يهمك ابدا ياسيدي الدوق ، وبصوت مرتجف تقطعه العبرات قالت ، انت اخذت الكتاب الذي كنت سلمته الى الولد فرجع واخبرني بذلك وانت تعلم ياسيدي ان تصرفك هذا لا حق فيه

ـ انا لا احاول ان اعتذر عما فعلت بل اترك لك الحق بالشكوى قال ذلك ورفع بين يديه التحرير عن الطاولة قائلا · انظري انه غير مفتوح ولكن انا ارجو منك ان تمزقي الغلاف وتقرأي لي ما هو مكتوب فيه واظن ان لي الحق بان اسألك اجراء هذا كبرهان على خدمتك واستقامتك معنا فانا كما تعلمين اصدقاء من زمن طويل وانت بنوع ما مثل والدة لابنتي العزيزة بالنظر الى التربية التي عهد اليك امرها ولهذا تريني اشعر بوجوب ابداء الجميل لك فاذا كنت في حياتك الماضية قد اتيت امرا مذموما مما يتعلق بي او بالدوقة فانك تجدين في الان قلبا يشعر بالجميل ويتناسى ذلك اما الكتاب فانه لا شك يتضمن سرا عن حياتك الماضية وانا سافتحه برضاك واقرأه امامك

واذا لم ارض بذلك ؟

ـ اذن اعتقد بان الكتاب يتضمن بعض الاسرار المخجلة التي

قد لا تكون متعلقة بك ومع هذا الاعتقاد اجوز فتحه لانه منذ دخول هذا الولد الى القصر صارت تجري امور غير اعتيادية على ما رأيت فانك لا تزالين انت والدوقة قلقتين مضطربتين حتى لم يبق عندي اقل ريب بانكما تعرفان الولد وتعرفان سر حياته فما هو السر ? هذا ما احب ان اعرفه · افهمت ? احب ان اعرف هذا السر · انك تعرفين جوست مسمر ومع ان اسمه كان يذكر مرارا عديدة لم تظهري ولم تقولي انك تعرفينه

ــ نعم اعرف جوست مسمر فهل تذكر انني مرضته في قصرك ايام الحصار لما جرحت انت وهو على ابواب فرسايل ونقلتما في تلك الليلة الهائلة ?

ــ هل كانت تلك هي المرة الاولى التي نظرت فيها مسمر ?

فارتجفت الفتاة وبقيت ساكتة

ــ انك لا تجيبين على سوءالي · قال الدوق ضاحكا · انك لا تجيبين · اذن كنت تعرفين مسمر من زمن طويل وكنت معشوقته ولا تزالين تجتمعين به · فانت تخفين اذن تحت هذا الظاهر الحسن نفسا رديئة وعلى مثال هذه النفس تهذبين اسبارنس وفي ذلك القلب الطاهر كنت تفرغين نقائصك ومفاسدك · الست مصيبا بكلامي ? مسمر كان حبيبك اليس كذلك? لك ان تعشقي وعلى كل ليس لي الحق ان افحصك هذا الفحص لانك لست منا في شي· ولست سوى فتاة تخدمين باجرتك ويحق لنا في كل وقت ان نستغني عنك

فعندما سمعت روجينا هذه الكلمات القاسية تصاعد الدم اولا الى وجنتيها ثم علت وجهها صفرة شديدة وكاد يغمى عليها لو لم تتكىء على مقعد قريب ثم حاولت ان تخرج من الغرفة ولكنها لم تتقدم الا بضع خطوات حتى سقطت على مقعد ثان منهوكة القوى والدموع تسيل من عينيها دون ان ترد تهمة الدوق القاسية بكلمة · امـا هو فاستأنف حديثه وقال

— وهذا الولد · هذا التعس · من هو ؟ اريد ان اعرف ذلك افهمت ؟ واذا كنت لا تجيبين فأسأل كلاديس وانا واثق انها تطلعني على الحقيقة —

— كلاديس ؟

— اه ان مجرد ذكر الاسم يخيفك ، قال الدوق وهو يضغط زرا صغيرا في الحائط

— لا تستدع احدا · لا تستدع كلاديس · قالت روجينا

ولكن الجرس كان قد رن في مماشي القصر ووقف عبد في الباب

— اسأل الدوقة ان تحضر الى غرفتي ، قال الاميرال

فخرج الخادم · وبعد ان سمع حفيف الحرير في مماشي القصر فتح باب بجانب القاعة ودخلت منه كلاديس

واذ ابصرت روجينا على تلك الحالة قطبت حاجبيها وحدقت بنظرها وقالت للدوق

— ماذا تريد ؟

ــ يوجد ··· يوجد ··· ويجري الان في هذا القصر امورغريبة

فاصفرت هي ايضا وتراجعت الى الوراء بضع خطوات قائلة

ــ امور غريبة ؟

ــ نعم وهذا الكتاب يتضمن السر الذي قد عرفت معظمه الان ·

قال ذلك وهو يشير بيده الى الكتاب المعنون باسم جوستمسمر· واذا فضضت غلافه عرفت السر الذي تريد هذه المرأة اخفاءه عني وانا من الان موقن بان هذا التعس الموجود في القصر ليس غريبا عنكما

فصرخت الدوقة وتراجعت الى الوراء مذعورة

ــ انت ايضا ترتجفين · انت ايضا تخافين

لماذا لا اخاف واضطرب وكل تخيلاتك واوهامك توجب القلق والاضطراب وما ذلك الا لكتاب ليس لك ولا يهمك منه شيء فما هذه الوساوس

هي ايضا تضطرب قال الدوق في نفسه فلا بد من الوصول الى الحقيقة

ــ احكما علي بما تشاءان فانني لا اجرب ان ابرىء نفسي · نعم انا اعلم انني قد اخذت الكتاب على غير حق ولا بد لي من قراءته · فترامت الدوقة عليه وقالت

ــ انك لن تفعل ذلك لانه مغاير للشرف

ــ ساقرأه ياسيدتي لان قراءته تخيفك ولو كان ضميرك نقيا لما كنت تضطربين وتخافين · ساقرأه لانه معنون بـاسم جوست

مسمر واريد ان اعرف اي سر يربطكما الى هذا الرجل الذي لم تظهرا امامي انكما تعرفانه · ساقرأه واطرح تحت قدمي كل واجبات الشرف التي تزعمانها · قال ذلك ومزق غلاف الكتاب فصرخت روجينا وكلاديس وتراجعتا الى الوراء · وهاك ما قرأ

« عزيزي جوست

« قدر لنا انا وكلاديس ان نجد الولد فقد رمته الظروف بطريقة غريبة بين ايدينا وهو بحالة يرثى لها من الذل والتعاسة والفقر والمرض فانه لا يشبه ابدا ذاك الملاك الصغير الذي طالما احببناه انا وكلاديس يوم كان طفلا قوي الجسم مورد الخدين · فهل تذكر يوم كانت المرضعة تحضره كم كان جميلا ومحبوبا وهو يمد يديه الصغيرتين اه انه من ذاك الوقت قد بدل اسمه اللطيف مارسل باسم كوكوس واوقعه سوء الطالع بين زمرة يدل وجوده معها على انغماسه في النقائص والرذائل »

« اه ياجوست احضر حالا لاخذه · لاخذ هذا المسكين الذي ربما قدرت على انتشاله من مهاوي الذل والشر · احضر فان لدي اشياء ذات بال يجب ان اخبرك عنها · احضر وانا ساعين لك مكان الالتقاء في جبالنا حيث اجتمع بك واطلعك على كل شيء فلا تبطء في الحضور

الامضاء

روجينا

وبعد ان قرأ الدوق الكتاب اخذ ينقل نظره من كلاديس الى

روجينا ومن هذه الى تلك · وكانت الدوقة مبهوتة بنظر متضعضع وشفتين صفراوين وهيأة قلقة · وروجينا جامدة لا تبدي حركة والدمع يجري مدرارا من عينيها · والسكوت كان سائدا والدوق جامدا ايضا وقد علت وجهه صفرة الموت وقلبه كان يتلظى غما وكدرا · من هي المذنبة · ان الكتاب زاده شكا وريبا · وكل سطر منه قد هز اوتار فوءاده · وكان الشك في من هي والدة هذا الولد يوءلمه ويعذبه

ــ ان والد هذا التعس هو جوست مسمر ولكن من هي الوالدة· هي واحدة منكما كانت معشوقة هذا الرجل ؟ وان صوتـا داخليـا يقول لي ان هذا الولد يحمل اسمي · وانك انت ياكلاديس· يادوقة دوبان انت التي جلبت الى هذا البيت العار والشنار

ــ انا ؟ انا ؟ حقا انك لا تدري ماذا تقول

ــ اذن ، قال الدوق ، يجب ان تكون هي · يجب ان تكون روجينا التي متحتمل تبعة هذه الشكوى · اه اليس كذلك ياكلاديس ؟ قولي الحقيقة لانني اشعر بـان الارض متنخسف تحت قدمي ولا استطيع ان احتمل اكثر من ذلك

كانت روجينا الى ذلك الوقت ساكتة وقلبهـا يذوب غمـا وتحسرا على ذاك الرجل الشريف الذي كانت تحبه محبة اخ شفوق وتعتبره اعتبار رجل شريف فارادت ان تخلصه من هذه العذابات فقالت:

ــ انا المذنبة ياسيدي الدوق فلا تتهم كلاديس

ــ اذن هذا الولد

ــ هو ولدي

فقد كنت اذن امرأة شريرة لما اخذت على عاتقك امر تربية مداموازال دوبان ولم تخافي ان تبثي في قلبها الطاهر سموم مفاسدك القتالة · وانت يا كلاديس مخطئة ايضا لانك لم تنزعي ابنتك من بين يديها مع كونك تعلمين حقيقة امرها

اما روجينا فكانت بعد هذه الشكوى الاختيارية قد ارتمت فوق كرسي هناك لا تبدي حركة ولا تلفظ كلمة متممة اصعب واجبات الصداقة نحو كلاديس واعسر فروض المروءة نحو الدوق اذ انقذته من ان يكون ضحية الحزن والغم ومع معرفتها بان حياتها الادبية من تلك الساعة قد اظلمت فان ذلك لم يكن ليحولها عن مقاصدها لانها لم تتخذ حكما غير ضميرها الذي كان نقيا واذ حاولت ان تنهض من مكانها وتذهب الى غرفتها وقع نظرها على نظر الدوق وقد تلطفت ملامحه لزوال شكه وريبه من جهة امرأته التي كان يحبها حبا جما فاشار اليها اشارة لطيفة اعادت السلوى الى فوءادها وقال

ــ لا تذهبي الان لانني اريد ان ا كلمك ، اريد ان اسألك ان تنسي الكلمات القاسية التي قلتها لك مدفوعا بعامل الغضب والشك الذي كان يقلقني · فانسي تلك الكلمات لان لا حق لي بتوبيخك على سقطتك التي ربما تكونين انقدت اليها مغرورة بمفاسد بعض الاشرار فانا ارثي لحالتــك من كل قلبي ولا شك في ان كلاديس كذلك ولكن انت تعلمين انك بعد هذا الامر لا تقدرين على البقاء معنا

ولا شك ايضا انك لا ترضين بالبقاء لانه يوجد هنا ملاك طاهر هو اسبارنس التي لا يجوز ان تطلع على سرك ·

فارادت كلاديس اتماما لتمثيل دور خيانتها ان تعترض على ذهاب الفتاة فقال لها الدوق

ــ لا بد من ذهابها على اننا قبل ان نذهب يجب ان نهتم بامر مستقبلها ونعين لها مرتبا معنوما يكفيها

ــ ان كل ما تجريه هو حسن ، قالت كلاديس

لست بحاجة الى شيء ، قالت روجينا بصوت متهدج ، لانني موجودة في هذا القصر مدة تقارب الثلاثين سنة وقد تمكنت في اثنائها من جمع بضعة الاف فرنك وفوق ذلك فانني لا ازال قادرة على العمل فلا يهمنك امري ياسيدي الدوق واذا شئت ان تسمحلي بالبقاء هذه الليلة لاتاهب للسفر واودع هذه الديار التي سكنتها زمنا طويلا واتزود من مرأى هذه الارض التيطالما اراحتني من متاعب العالم واهيىء اسبارنس لفراق لا امل باللقاء بعده ــ وقالت بمرارة لم تخف على كلاديس ــ ثم لاخذ هـذا الولـد التعس المسكين الذي قدر له ان يطرح صدقة في حضن والدته لانه لا يجوز لي ان اتركه او اهمله ، واذهب غدا · قالت ذلك ونظرت الى كلاديس التي قابلتها بنظرها وقالت

ــ نعم هذا هو المتوجب عليك ولـكن صعب جـدا تقويم اعوجاج هذا الولد الذي سيهجرك عندما يصير في طاقته النهوض

ــ اكون على كل حال قمت بالواجب علي واتمام الواجب كلما زاد صعوبة يا كلاديس زادت مجازاته عند الله

فلما سمع الدوق هذا الكلام عاودته الشكوك السابقة والقى على كلاديس نظرات التهديد والغضب ولكن استسهال المكر والاحتيال ابقاها هادئة امام تلك النظرات فعاد الدوق الى هدوئه وسكينته وكانت روجينا في ذلك الوقت قد نهضت من موضعها والدمع ينسكب من عينيها وخرجت من الغرفة ولما اختلى الاميرال والدوقة قالت له

ــ لقد اصبت بطردها فان ذهابها واجب

ــ لم افعل الا بمقتضى الحق والعدل ولكن رغما عن سقوطها لا يليق بنا الا ان نضمن باقي ايام حياتها

ــ لا تريد ان تقبل شيئا وستغادر ارجالاه وباريس دون ان تعلمنا بمحل وجودها

ــ سنتمكن من معرفة مركزها ونساعدها على كل الاحوال

ــ ولكن نحن الان لا نستطيع ابقاء هذا الولد التعس هنا ولا ساعة اليس كذلك ؟

ــ لا ريب في هذا ولكن اذا كان لا يقوى على النهوض فمن القسوة ان نبخل عليه بالعناية وفوق ذلك اتنسين يا كلاديس انه ابن روجينا وان هذا الامر وحده يستدعي اشفاقنا عليه

ــ نقدر ان نرسله في عربة

ــ انك لا تشعرين بشفقة لا على الابن ولا على الام قال الدوق بصوت موءثر فان شفتيك لا تنطقان الا بالقصــاص كانك تجهلين المغفرة والمسامحة مع كون روجينا تستحقهما منا لانها اذا كانت قد احبت فمن العدل ان نعذرها على اتباع العاطفة العمومية في الكون وعوضا عن احتقارها يجب ان نرثي لها في سقوطها

ــ كان يجب ان تبقيها اذن ولا تحاول اكتشاف سرها

ــ حاولت ذلك لانني كنت متشككا

ــ فيَّ ?

ــ نعم فيك

ــ حقا انك تحتقرني جدا بذلك

ــ كنت قد رقبت كل حركاتــك ، ولاحظت اضطرابــك وخصوصا عندما ابرز الولد تلك الذخيرة التي في عنقه فــانك انت وروجينا كاد يغمى عليكما

فاثارت هذه الكلمات كامن الحقد في كلاديس وزادتها بغضا وكرها للدوق وردت عليه قائلة

ــ حقا ان ظنونك غريبة · ورغما عن خبثها وخيانتها تظاهرت بالتأثر من كلماته وخرجت من الغرفة غاضبة حانقة الا انها كانت في الداخل مسرورة بفوزها وذهبت توا لمقابلة روسكوف في القاعة الكبرى حيث اخبرته بكل ما جرى

الفصل الرابع عشر

لم تنسحب روجينا من غرفة الدوق الا لتذهب الى كنيسة القصر تستمد بصلواتها الحارة المقدرة والمعونة وبينما هي غارقة في تأملاتها والدمع ينسكب من عينيها اذا بيد لطيفة نبهتها من الذهول فالتفتت فرأت اسبارنس بجانبها

— مالك منفردة تبكين في هذا المكان ووقت العشاء قد حان وانتِ تعلمين ان والدي لا يحب الانتظار كثيرا فاخبريني لماذا هذه الدموع ?

— فتقدمت روجينا معها الى الدار الداخلية دون ان تجيب على سوءالها وذهبت الى غرفتها

— لماذا هذا البكاء ? اعادت اسبارنس السوءال ، ومالك كئيبة حزينة

— لا تسأليني شيئا يا ابنتي لانني لا اقدر ان اقول لك شيئا

فذهبت اسبارنس الى غرفة والدها وقالت وهي تقترب منه

— ابت لقد نظرت روجينا باكية كئيبة في الكنيسة فاستغربت ذلك

— الم تخبرك هي عن السبب

— كلا

ــ فبقي الدوق صامتا ينظر الى ابنته نظرة الحنو والانعطاف ثم قال

ــ هل نظرت والدتك ؟

ــ كلا

ــ اذن لا تعرفين شيئا ؟

ــ ارى انك لا تريد ان تقول لي · قالت اسبارنس بقلق وروجينا ايضا ابت ان تخبرني والظاهر ان امورا غريبة تجري في هذا القصر ويجب ان اعرفها لانني لم اعد صغيرة وانا قادرة على احتمال كل شيء فارجو منك ان لا تبقيني في هذه الاضطرابات

ــ كوني متأنية وعاقلة قال الدوق وهو يضمها بين ذراعيه · فانتزعت نفسها من بين يديه ونظرت اليه بعين نقادة كأنها عين كلاديس فبهت الدوق وقال لها

ــ اعلمي يا ابنتي انه لاسباب يجب ان تبقى مكتومة عنك ستخرج روجينا غدا من القصر

فاجفلت اسبارنس لدى هذا الكلام وقالت

ــ لا اقدر ان ادرك معنى كلامك ولكنني متيقنة من ان ويلا قد حل بيننا وان يدا شريره تتلاعب بنا فهل لك ان توضح لي جليا معنى كلامك

كل ما اقوله لك هو ان روجينا ستفارقنا

ــ تقول انها ستفارقنا اي انك تبعد عني روجينا تلك التي هي

بمثابة والدة — تلك التي اليها مشتكى كل احزاني — تلك التي غرست في فوءادي كل الفضائل · هذه هي التي تريد ان تبعدها عني ؟ انا أعلم بان والدتي هي المسببة لذلك · هي اليس كذلك؟انني متأكدة ان روجينا غير محبوبة في هذا البيت

— ليست الدوقة هي التي تفرق بينك وبين روجينا

— من هو اذن ؟

— انا

— انت ؟

— نعم يا ابنتي فلاسباب يجب كما قلت لك ان لا تعرفيها ستفترقين عن روجينا افتراقا ليس بعده تلاق وقد احببت ان اوضح لك ذلك جليا لتقطعي كل امل من اللقاء

— اقطع الامل من روءية روجينا · اهذا ممكن ، اذن يجب ان تحجر · علي كسجينة وان تقيم لي سجانا قاسيا كروسكوف — روسكوف ذاك الذي اكرهه فاذا كان لا بد من طرد احد فهو الذي يستحق الطرد وهو الذي يجب ان لا نراه فيما بعد

— فاصفر وجه الاميرال وقال ماذا تريدين ان تقولي

— لا اعلم لماذا اكره هذا الرجل ولكنني اكرهه كرها شديدا وارتجف انزعاجا وخوفا كلما رأيته فهو كالوحش الذي لا يثب الا على غرة للفتك بفريسته · نعم اكرهه · اكرهه وهو الذي يجب ان يطرد روجينا

ــ روجينا ستذهب

ــ حسن قالت على غير انتباه وهي خارجة من الغرفة

اما الاميرال فكان غير متوقع هذه المقاومة العنيفة من ابنته فاخذ يفكر في كيف ان اسبارنس تكره روسكوف مع ان العيشة بدونه في سان سافان كانت مضجرة وفيما هو يتأمل في الكدر الذي جلبه على ابنته وفي بغضها لروسكوف دون ان يمر في فكره سبب لهذا البغض كانت اسبارنس مسرعة لمقابلة روجينا وبينما هي تقطع المماشي الطويلة التي توصلها الى غرفة تلك التي كان يؤلمها فراقها سمعت في منعطفات احدى تلك المماشي كلاما استوقفها واخذت تصغي لسماع بقيته ففي احدى تلك النوافذ كان احد خدم القصر مع وكيلة الثياب يتحادثان بكل صراحة عن ارباب المكان فتراجعت اسبارنس قليلا الى الوراء ودخلت وراء باب قريب منهما دون ان يشعرا بها وللحال سمعت الخادمة تقول · اذن روجينا اللطيفة ستذهب

ــ نعم تقرر ذلك لانها ارسلت صناديقها ، ففي هذا المكان تجري امور لا اقدر ان اعرف حقيقتها تماما ولكنني ربما كنت اظن الحقيقة انه تكلمي حالا

ــ ان هذا الذهاب يخفي سرا واني لمتعجبة كيف ان الدوق بعد خدمة ثلاثين سنة سيطردها هكذا

ــ تقولين ان هذا الذهاب يخفي سرا · فما هو · تكلمي حالا

ــ انك كثير التدخل بما لا يعنيك ياعزيزي

اه دعيني وشأني اذهب في عملي

ــ اراك قد تكدرت ، قالت وهي تمسك بطرف ثوبه الاحمر

ــ لم اتكدر ولكنني لا احب هذه الاسرار ، فهل لم اعلمك انا عن السر العظيم الذي اكتشفته وهو عشق الدوقة وروسكوف . نعم اني اعرف اشياء كثيرة عن هذا العشق وحينما افتكر بحسن معاملة الاميرال للدوقة يغلي الدم في عروقي

ــ اخرس فقد يسمعنا احد ، قالت وهي تلتفت الى الوراء

ــ لا شيء يوجب الخوف لان الدوقة الجميلـة هي الآن مع معشوقها روسكوف في الحديقة

فلم تعد اسبارنس تقدر على سماع اكثر من ذلك فخرجت من مخبأها وراء الباب وهي تضم قلبها بيديها لتسكن ضرباته . نعم انها لم تقف على سبب ذهاب روجينا ولكن السر العظيم الذي اكتشفته كان كبيرا لديها وتقدمت بسرعة الى غرفة الابنة ودخلتها دون ان تقرع الباب اما هذه فكانت منهمكة بتجهيز امتعتها استعدادا للسفر فلم تنتبه حتى تقدمت اليها وطوقت عنقها بذراعيها قائلة

لماذا تبكين ? ما هذه الدموع ? اذن انت لست ذاهبة بطيبة خاطر وحقيق اذن انهم يطردونك من هذا البيت الذي هو مثل بيتك فماذا جرى وماذا سيحل بي بعد فراقك ? وكانت تلك الكلمات التي سمعتها من الخادمين قد هونت لديها سماع كل خبر مكدر وضايقت

فؤادها وحركت دموعها فالقت رأسها على كتف روجينا وشاركتها في البكاء

كانت اسبارنس تذرف الدموع على فراق روجينا وسعة والدتها وحظ والدها وتفتكر كيف انها كانت مصيبة ببغضها وكرهها لروسكوف

سافارقك غدا قالت روجينا الى حيث لا اعلم ولا ادري اين اقضي بقية ايامي

— روجينا !

— ماذا اصنع وماذا سيحل بي وانا بعيدة عنك يا اسبارنس

— اه، ارجو ان تسكتي ولا تقولي هذا

— ماذا اصنع وماذا اقول لك ، حقـا يا اسبـارنس ان الحياة ستكون لي محزنة

— ارجو ان تقولي لي لماذا ستهجرين هذا البيت

— هذا ما لا اقدر ان اقوله لك

— اه انت ايضا تخفين عني اسرارا لقد تقرر ذهابك · فماذا ياترى سيحل بي وانا وحيدة في هذا البيت

— ان والدتك ستبقى بقربك

— والدتي ؟

— نعم والدتك التي تحبك كثيرا وستملأ الفراغ الذي يحدثه بعدي

ــ ان والدتي لا تحبني عشر حبك لي واذا كنت تحفظين لي هذه المحبة فانك لا تذهبين · اه والدتي· اه ، ان هذا الاسم فقط يرجف اعضائي ، نعم انا اشعر انها من مدة طويلة لا تهتم بي ولا انظرها الا على المائدة فان لديها شواغل اخرى تحول دون اهتمامها بابنتها

ــ ماذا تعنين بذلك ؟

ــ ما الفائدة من فتح فوءادي لك في حين انك راحلة عني

فبهتت روجينا واحدقت نظرها في اسبارنس قائلة في نفسها « ترى هل تعرف شيئا مما يجري هنا ؟ وهل تعرف الرواية المحزنة التي تمثلها والدتها في هذا القصر

ــ وبينما هي في هذه الافكار قرع جرس المائدة

ــ ستذهبين الى قاعة الطعام، اليس كذلك ، قالت اسبارنس

ــ كلا اذهبي انتحالا اذ لا يجوز ان يعلم والدك باننا قد اجتمعنا لان ذلك يسوءه

ــ اذن ستذهبين · فالى اين ؟

ــ اذهب اولا الى ارجالاه ولا اعلم الى اين ساذهب منها

ــ لماذا لا تبقين مدة في لورد ؟

ــ هل يسرك هذا ؟

ــ اكون عارفة اين انت ومتعزية بامكان وصولي اليك في حين الشدة والاقتضاء

ــ ليكن ذلك فسابقى في لورد الى نهاية الفصل وفي كل وقت

تجدينني مستعدة لاسعافك ومساعدتك

ــ والعنوان ؟

ــ هذا مما لا اعرفه بعد ولكنني ساطلع كاهن لورد عليه وهو غيور كريم وفوق ذلك فانه يحبك كثيرا وارجو منه ان يوصله اليك بيده حذرا من ان اكتب اليك رأسا ويقع كتابي في يد والدك

ــ حسن ، قالت وارتمت بين ذراعي روجينا تقبلهـا وتسكب الدموع السخينة تأثرا للفراق ، ثم ذهبت مسرعة الى قاعة الطعام

اما روجينا فبعد ذهاب الابنة استأنفت الاهتمام بالتأهب للسفر ولما فرغت قرعت جرسا صغيرا فدخلت وكيلة الثياب وقالت لها

ــ اتريدين مني شيئا ؟

ــ نعم فانني ارجو منك ان تهتمي بارسال هذه الصناديق الى محطة ارجالاه في هذا المساء

ــ وهل مداموازال ستهجرنا الى وقت طويل ؟

ــ الى الابد · قالت ذلك وافهمت الخادمة بطريقة لطيفة انها تحب الانفراد ؛ وبعد ما انصرفت للاهتمام بنقل الصناديق وجدت ان امر تضحية نفسها قد تم فاطفأت الضوء وجلست بجانب النافذة تسرح النظر بتلك المشاهد الجميلة تحت ضوء القمر وتتأمل الحوادث الماضية وكانت تتوقع حضور كلاديس لتظهر لها امتنانها وتقول كلمة شكر واحدة على تضحيتها نفسها محافظة عليها ولـكن توالت الساعـات ودقت الساعة العاشرة ولم تحضر ولا عادت اسبارنس ايضا ولكنهـا

لبثت في مكانها وبقي في نفسها بعض الامل بحضور كلاديس الى ان دقت الساعة الثانية عشرة وحينئذ يئست من ذلك فنهضت من موضعها وتوجهت الى غرفة كوكوس بقصد ان تخبره عن والده وعن اخذه اليه ولكنها لم تقترب من الباب حتى نظرت رجلين جالسين بقرب سرير ابن جوست فتقدمت قليلا وعلى ضوء المصباح عرفت فنطوش وبوادو فراعها ووجودهما هناك في تلك الساعة المتاخرة من الليل وعادت الى غرفتها على امل ان تعود في الصباح لاتمام مقصدها وبدون ان تنتزع عنها ثيابها ارتمت فوق السرير

الفصل الخامس عشر

كانت الغرفة التي فيها كازال وكوكوس في تلك الليلة مسرحا لحوادث مهمة فعند الساعة التاسعة عمدت كازال الى النوافذ لاقفالها واطفاء الضوء استعدادا للرقاد وبينما هي تفعل ذلك ابصرت شخصين دخلا الحديقة واخذا يتقدمان نحو النافذة مشيرين اليها بابقائها مفتوحة وللحال عرفت انهما بوادو وفنطوش فذعرت لروءيتهما في تلك الساعة من الليل وسالتهما عما يريدان وكان الاثنان قد تمكنا من دخول الغرفة فقالا لها : ستعلمين بعد حين ما هو غرضنا من الحضور في هذا الوقت اما الان فاننا نريد ان نفتقد حالة المسيو كوكوس قالا ذلك وكان بوادو قد اهتم باخذ كل ما راه ذا قيمة وسهل النقل من تلك الغرفة

فصرخت كازال قائلة

— سرقة

— لك ان تسمي هذا العمل ما تريدين ولكن يجب ان لا ترفعي صوتك

— سرقة في هذا البيت الذي التجأ نا اليه انا وكوكوس

— ماذا يهمنا من ذلك ؟

— انا ارجو منك يا ابت واتوسل اليك لترتدع عن عملك هذا لانك لم تكن هكذا ، كنت تقسو علي ، كنت تؤلمني وتضربني . ولكن لم تكن سارقا . لم تكن سارقا قبل مرافقتك لبوادو

— سارقا . قال بوادو وهو يتميز غيظا وقد شهر في وجه كازال خنجرا ماضيا لمعت شفرته على ضوء المصباح ثم قال — انظري باب الثروة ومفتاح القلوب والخزائن ، الى الامام يافنطوش الى الامام

اما فنطوش فبقي جامدا في مكانه امام نظرات كازال الموبخة وتهديدها بالصراخ وكوكوس الذي كان قد انتبه من رقاده ومد يده ليحمي كازال الا ان فنطوش بادره برفسة على صدره اخرجت الدم من فمه وقال

— هكذا نعامل الجبابرة يامسيو كوكوس

— تريد ان تقتله ، قالت كازال بلهجة الحنق ولكن قبل ان تتمكن من ذلك تجدني امامه مدافعة عنه الى النفس الاخير اما هو فلم يكترث لها بل فتح كيسا كان معه ووضع فيه بمساعدة بوادو كل

ما قدر على حمله من تلك الغرفة وبعد ان اتما عملهما قال بوادو

ـ الان دونك الصندوق الحديدي فانني قد عرفت مكانه ولا نحتاج الا الى خلع باب واحد وكسر زجاج نافذة واحدة لنصل اليه فالامر سهل للغاية وانما يجب ان تكون متيقظا · حينئذ مال فنطوش نحو كازال وقال لها

ـ انتظرك انت وكوكوس نهار غد في محطة تارب ، قال ذلك وتبع بوادو قاصدين غرفة الدوق حيث يوجد الصندوق الحديدي

وكانت الساعة الثانية من الصباح عندما كان فنطوش وبوادو عائدين على ضوء االقمر المحتجب وراء الغيوم من قصر سان سافان يقصدان تارب ويحملان نحو الثلاثين الف فرنك من خزينة الدوق دوبان ومقدارا من الاواني والتحف · وفي تلك الساعة كانت كازال وكوكوس يستعدان لمغادرة القصر · نعم ان الفتى كان عاجزا عن المشي ولكنه لم يكن يبالي بذلك لاعتماده على كازال ولانهما كانا لا يريدان ان يمكثا ولا دقيقة واحدة في القصر الا انهما لم يتقدما بضع خطوات في الحديقة حتى وقع كوكوس الى الارض لخور عزمه

ـ اذهبي ودعيني وشأني لانني لا اقدر على الوقوف اذهبي يا كازال ودعيني هنا

ـ لا · لا · سابقى بقربك

ـ ولكن غدا سيعلمون بالسرقة وربما اتهمونا فانا ارجو منك الذهاب ·

وعوضا عن ان تجيب الفتاة بشيء من الكلام رفعت عينيها الجميلتين الى العلا قائلة« خلصنا يا الهي وساعدنا ولا تهملنا في هذه الضيقة · لماذا تعذبنا يا الله نحن الذين لم نسيء الى احد »

— انصتي ولا تصلي · قال كوكوس بلهجة قاسية · فلا يوجد سماء ولا يوجد اله · وكل ما هنالك هو جحيم هذه الحياة فهل طلبت انا ان اخلق ? انني العن والدتي والعن والدي والعنك انت التي التقطتني ولم تدعيني اموت

— كوكوس · كوكوس ??

— نعم لماذا لم تدعيني اموت بين يدي ذلك الرجل الذي كان ولا شك والدي فانك كنت ارحتني من حياة التعاسة والشقاء والذل · انك قد عرفت شقائي وعذابي ونظرت دموعي المنسكبة

— من يعلم فلربما تجد والدتك يوما ما

— لا اريد ان اعرفها ابدا فانني قد لعنتها قبلا والعنها الان والعنها دائما

— انصت فانك لا تدري ما تقول · لانك لعنتني انا ايضا · وما ذلك الا من الحمى التي عاودتك فيجب ان تبقى الى الصباح · قالت ذلك وضمته بين ذراعيها

— اه انا احبك كثيرا ولولاك لكنت صرمت حبل حياتي من امد بعيد ولكن هذا الحب يمنعني من الاقدام على ذلك ثم القى رأسه على صدرها وتمدد على الارض ومضت ساعات كلها هم وكدر على ذينك

التعسين حتى بدأت غياهب الظلام تتمزق باشعة الفجر وظهر ضوء النهار من بين ستائر الضباب وغردت الاطيار في حديقة القصر متنقلة على الاغصان فارتاعت كازال لاعتقادها بانه لا بد من ان ينتبه سكان القصر الى ما حصل في الليلة السابقة ويهتموا بالبحث عن السارقين ولدى افتكارها في ذلك تصبب العرق من جبينها وقالت لكوكوس

ـ اتقدر على المشي الان ؟ اتقدر على الهرب ؟ انظر ان النهار قد طلع وسيدركوننا هنا

فجلس كوكوس بجهد كلي وقال

ـ دعيني استريح مدة قصيرة لانني لا اقوى على النهوض

ـ انظر ضوء النهار

ـ لا اقدر فاذهبي ودعيني هنا

ـ اسمع قد جاءوا . انني اسمع وقع اقدام ، قالت كازال مذعورة

ـ ماذا يهمنا فاننا لسنا الجانين وضميرنا نقي لا يتعبه شيء رغما عن كوننا تعسين يائسين ، ولكنه حبا بارضاء كازال تجلدووقف قائلا

ـ اعطني يدك فانني اقدر بمساعدتك على المشي

ـ يظهر انك متألم كثيرا

ـ لا ابالي

ـ انك لن تقدر على احتمال الوجع وسيغمى عليك

ـ لا . لا . فلنهرب

وكان وجهه قد اكتسى لونا زعفرانيا والعرق البارد يتصبب فوق

جبينه ولم يتقدما الا قليلا حتى دوت الضجة في اذانهما وسمعت اصوات تقول

ـــ السارقين السارقين ، امسكوهما امسكوهما ، وللحال تقدم عدد من الخدم وامسكوا كازال و كوكوس وكان من جملة الحاضرين روجينا التي كانت قد نهضت باكرا استعدادا للرحيل والدوق كان قد افاق على جلبة الخدم وصياحهم فتقدمت روجينا نحو كوكوس كانها تريد حمايته فالتفت اليها الدوق وقال

ـــ ان الدور الذي مثلته في هذا البيت قد انتهى بان سرق هـذان الشقيان غرفتي الخصوصية وربما كان ذلك بتواطوء معك فانا امرك بالابتعاد عن هذا المكان في الحال

ـــ سارقان ؟ قالت روجينا بصوت منخفض وبذلة · سارقان · وقد تولاها الحياء وتراجعت قليلا وهي تقول · سارقان · لصان · ابن كلاديس دوقة دوبان وجومت مسمر ملك الذهب لص · سارق · شقي

ـــ الا ان كوكوس لم يكد يسمع هذا التأنيب الموجه اليه والى كازال حتى علت وجهه الاصفر حمرة الحماسة والشهامة وابرقت عيناه وقال

ـــ نحن لسنا لصوصا ولا طمعنا ابدا بمال احد مع كوننا اتعس التعساء

ـــ انك كاذب بدعواك ، قال الدوق ، لانك ان لم تكن قد سرقت فقد ساعدت على ارتكاب السرقة

ــ انا ارجو منك ياسيدي ان تشفق علينا ،قالت كازال وهي جاثية عند قدمي الدوق فاننا لسنا لصوصا

ــ اه ، قال كوكوس وهو يسند رأسه بيده ، ان هذا الرجل لا يصدقنا

ــ انكما ستجاوبان عن هذه السرقة امام القضاء

ــ العدالة لا تخيفني ، قال كوكوس بمرارة ، واذا سجنت فانني احصل على الاقل على قوت ومأوى

ــ الص وكسلان ? قال الاميرال

ــ لا تراجع هذا الكلام ياسيدي ، قال كوكوس ، وقد تبدلت ملامحه ، وكن على حذر

ــ اتهديد ووعيد ايضا ?

ــ احذر من ان تعيد هذا الكلام قلت لك ولا تزد الاهانة على ذلنا وتعاستنا ، والا فانك سترى من هذا الولد الضعيف الذليل الذي يكاد يموت جوعا جبارا قاتلا فلا تهنّا

وكانت كلاديس قد افاقت ايضا على الجلبة وجاءت الى محل الحادثة ولكنها لم تكد تنظر كوكوس حتى عولت على الرجوع الا ان قوة خفية كانت تجذبها نحو ذلك الفتى اما هو فلما ابصرها قال

ــ ارجو منك ياسيدتي ان تحمينا وان تقولي لزوجك اننا لسنا لصوصا ، احمينا ياسيدتي وانا اصلي الى الله لاجلك

ــ لصوص ، قالت كلاديس وهي تمر يدها الجميلة على وجهها

اه ، ان ولدها لص · ان كل النقائص اذن قد تجمعت فيه · لص · سارق · اه · اما الدوق فلم يكن يحول نظره عن كلاديس وقد لحظ اضطرابها واصفرار وجهها ولم يقدر ان يبعد الظنون والشكوك عن مخيلته مرة ثانية

ــ هل يجب ان نستدعي رجل الشرطة ؟ قال للدوقة

ــ لا · قالت مرتجفة ، لا · دعهما يذهبان في سبيلهما فلا اظن انهما مجرمان لان دموع وذل هذا الفتى تصفح عما جرى فاتركهما وشأنهما قالت هذا وتراجعت مرتجفة وبينما هي عائدة في الطريق نظرت روسكوف مقبلا على صوت الجلبة

ــ اه ابعدني عن هذا البيت · قالت له وقد امسكت بيده ·ابعدني حالا فانني لا اقوى على الثبات

ــ مالك مضطربة هكذا ؟

ــ اه ان غرفة الاميرال الخصوصية قد سرقت في هذه الليلة

ــ من السارق ؟

ــ هذان الشقيان ، هذان الرجلان اللذان كانا يجيئان غالبا لزيارة الولد الجريح والفتاة المسكينة

ــ ولماذا يقلقك كل ذلك ؟

ــ اتعلم على من يلقي الاميرال الشبهة والشكاية ؟

ــ كلا

ــ اه انه يتهم ابن مسمر ، ابني هذا التعس · اه ليونال ابعدني

وبينما كان كوكوس وكازال يسيران على غير هدى جارين وراءهما ثوب العار الذي اورثهما اياه فنطوش وبوادو والناس على جانبيهما يصرخون · اللصوص · اللصوص · كانت روجينا تحاول اللحاق بهما حتى لا يتوارى ابن مسمر عن نظرها ثم مـالا الى ظل شجرة كثيفة الاغصان بقصد الاستراحة حيث كانت عربة فنطوش اولا وتواريا عن نظر روجينا القلقة المضطربة بين تلك الوهاد فقالت كازال

ــ انني قد خبأت منذ مدة خمسين فرنكا وبهذا المبلغ تقدر ان نصل الى لورد

ــ وهل تقصدين اللحاق بفنطوش

ــ لا · لا ·

ــ لو كان ذلك لما كنت تبعتك

ــ ان فنطوش وبوادو قد اخذا العربة فسنضطر الى ركوب القطار الى لورد ومنها نذهب الى تارب

ــ كل هذا حسن ولكن ما يقلقني هو المستقبل فاننا سنضطر في الغد الى التسول

عوضا عن ذلك تقدر ان نشتري من لورد بعض البضائع المقدسة ونبيعها في مختلف الجهات

هذا فكر حسن ، قال ذلك ومشى بصعوبة وهو متكيء على ذراع كازال الى ان بلغا المحطة ومنها اخذا القطار الى لورد على انهما لم يصلا الى محل قصدهما حتى راءهما فنطوش لانه كان منذ

الصباح يترقب وصولهما

ــ اه احضرتما ؟ قال الشقي · وهل حصل لكما شيء من المتاعب ؟

ــ لم نصادف من المعاملة الا كلصوص · قالت كازال بحدة فالحياة معك ومع بوادو لا يمكن ان تطول

ــ ماذا تقولين ؟

ــ اقول ان الحياة معك ومع بوادو لا يمكن ان تطول ولذا عزمت انا وكوكوس على ان نتركك وشأنك

ــ اما انت فانك متضطرين الى الرضوخ لارادتي لانني والدك واما كوكوس فهو يعلم ما تكون نتيجة المقاومة

ــ انت تعلم ياوالدي بانك قد اتيت امرا فظيعا ويجب ان تكون منه على حذر وانا اخاف ان تكون مرافقتك لهذا الشقي بوادو سببا لاقتيادك عاجلا او اجلا الى السجن وربما القتل

ــ وهل بحت باسمائنا ايتها الشقية

ــ ان الذين نظروكما، انت وبوادو، حاملين كيس السرقة وسائرين مضطربين في الطريق قد فضحوا امركما ومع ذلك فاننا لم نعامل نحن ايضا الا كلصوص · فهل تظن انك تقدر دوما على ارتكاب الشر · اه انني اخاف ان يكون المستقبل وخيم العاقبة عليك

ــ انك تقلقينني بنبوءاتك الكاذبة

ــ وانك قبل وصولك الى تارب ستكون مع بوادو مكبلين بالحديد

ــ ان لبوادو املا عظيما بالمستقبل والحاضر لا يخيفه مطلقا وفوق ذلك فاننا قد تحذرنا لاتقاء تقلبات الايام فانا بثياب سائح وهو بهيئة كاهن فلا يمكن احدا ان يعرفنا

ــ افعل ما يروقك وانا اسر كثيرا اذا كنت لا تسجن ولكنني انا وكوكوس قد قررنا الانفصال عنكما

ــ انك لا تذهبين بعيدا مع اعرجك

ــ لن يمضي الا ايام قلائل على شفائه حتى نعود بعد ذلك الى العمل

ــ اذا كنت مصمما على الذهاب فانا اتركك وشأنك ومتى اردت الرجوع الينا فان موضع اللقاء يكون في الشتاء في بون دي جور بباريس

ــ الوداع

ــ هل قررت ذلك ، متفترقين عنا ٠ متتركين اباك من كان علة وجودك ٠ قال فنطوش بصوت متهدج

ــ نعم قد تقرر ذلك ٠ لانني اخشى المستقبل معك وانت برفقة بوادو

ــ ستكونين تعسة

ــ انا وكوكوس لا نخشى الايام

ــ واذا لم تتمكنا من وجود عمل

ــ نجد لنا مقرا في نهر السين

— اذن ؟

— الوداع الى الابد

الفصل السادس عشر

كان الاميرال دوبان قد عدل عن اقتصاص اثر فنطوش وبوادو اعتقادا منه انهما ربما بامساكهما يضطران ان يقررا شيئا عن سبب وجود كوكوس معهما وقد يكون بهذا الاقرار بعض الاهانة لروجينا · فتحاشيا لذلك تركهما وشأنهما يتمتعان بما سرقاه · وكانت الايام تمر ولا تزيد في مرورها الا حزنا في قلب اسبارنس لمفارقة روجينا الى ان اصبحت في يوم من ايام تشرين الاول بحالة مقلقة من الضعف فاستدعي لها الطبيب وبعد الفحص قرر ان حالتها السيئة ناتجة عن الكدر والغمّ واوصى الدوق والدوقة بوجوب تسليتها لان ذلك خير علاج · وبعدَ بضعة ايام من ذهاب الطبيب دخل عليها الدوق وهو بحالة الانبساط وقال لها

— لقد اخذت اليوم تحريرا من كوتياه

فانتبهت الابنة لهذا الاسم ورفعت نظرها نحو والدها

— ان كوتياه يزداد تعلقا بك قال الدوق وهو يجلس بجانبها وقد سألني الاذن ليحضر ويراك قبل سفره الى رومية

— وبماذا اجبت ؟

ــ ساجيبه في هذا النهار بان يحضر ويقضي بيننا ما بقي من فصل الخريف الحالي فهل تكونين مسرورة برؤيته ؟

ــ نعم · ومسرورة جدا

قالت ذلك وعادت الى ذهولها السابق

ــ يظهر ان لا شيء يعيد اليك سرورك السابق قال الاميرال وهو يضم يدي ولده بلطف وانك لا تزالين تبكين فراق روجينا التي لا يربطك اليها الا المعرفة

ــ انني احبها فوق حبي لوالدتي

ــ ان ما تقولينه لا يليق بك مطلقا فان والدتك لا تنفك ابدا تعنى بك وفوق ذلك فانك لو اطلعت على سر روجينـا لمـا كنت تنتصرين لها

ــ لا اريد ان اعرف شيئا لانني اعلم بانك اتهمتها ببعض المفاسد وسادافع عنها دوما لعلمي بانها من اشرف النساء وانك لا تقدر ان تمنع محبتي لها ولا ان تحجب دموعي لفراقها

وكانت دموعها المنسكبة وصوتها المتقطع قد اثرا بـالدوق فضمها الى صدره وقال

ــ ان كوتياه سيحضر ويكون هنا بعد بضعة ايام

ــ ليرجع من الطريق التي ياتي فيها بالحال قالت وهي تهز كتفيها

ــ واذا كان لا يذهب الا وانت معه · واذا كنت لاعيض عما سببته لك من الحزن لفراق روجينا اقدم وقت الزفاف ؟

فابرقت اسرة الابنة وارتجفت اعضاءوها وقالت

ــ اتفعل ذلك ؟

ــ نعم

اي وقت تزوجت تصيرين حرة للاجتماع بروجينا · كانت تفكر اسبارنس في ذلك لذاتها · ساكون حرة واترك هذا البيت الذي لا ارى فيه الا الدناءة على جبين والدتي ولا اسمع الا ما يسوءني · وعادت الى مخيلتها تصورات تلك الساعة التي رات فيها والدتها خارجة من الكوخ في الحديقة على اثر روسكوف وتلك المحادثة التي كانت قد سمعتها بين الخادمين · اما والدها فكان جالسا الى جانبها يتامل ملامح وجهها وقلبه يقطر دما على حزنها وغمها ويرجو ان يرى ابتسامة منها او ان يسمع كلمة تجبر قلبه الكسير · اما هي فانها ارتمت بين ذراعيه قائلة

ــ يا ابت المسكين

ــ انك لا تريدينني

ــ ليس ذلك يا ابت ولكنك ستعلم في المستقبل انني مصيبة بحفظي لروجينا ذكرا جميلا في فوءادي

خرج الاميرال من غرفة اسبارنس وهو مطمئن نوعا وذهب توا لمقابلة الدوقة في القاعة العمومية

ــ قد اخذت تحريرا من كوتياه دكسون · قال الاميرال لامرأته

ــ اصحيح ما تقول ؟

ــ نعم · واريد ان اجاوب عليه في هذا النهار بالذات واطلب منه ان يحضر ويمضي بيننا ما بقي من الفصل

ــ ارى ان لا موجب لاستدعائه طالما نحن عائدون الى باريس في الحين القريب

ــ سنبقى هنا الى اواخر كانون الاول · فانا احب عيشة الجبال كثيراً وخصوصا في انتهاء الفصل

ــ انا اعرف هذا جيدا ولكنك اذا كنت تحب عيشة الانفراد فان مرأى تساقط اوراق الاشجار لا يروقني كثيرا · ومع ذلك فانت السيد هنا ولك مطلق التصرف فاستدع من اردت فربما كان بعملك هذا بعض السلوى لاسبارنس التي اصبحت حالتها مقلقة

ــ يظهر انك ترين رأيي فانا ارجو ان اجد الدواء لاسبارنس

ــ وما هو هذا الدواء ؟

ــ انظري ياكلاديس الى ما قررت فاننا سنزوج اسبارنس في الحال

فارتجفت الدوقة وقالت

ــ اتعني ما تقول · تزوج ولدا في سن السادسة عشرة ؟

ــ ولكن هذا يجعلها سعيدة

ــ اه · كلا · قالت كلاديس وقد ارتجفت في مقعدها · كلا · من غير الصواب ان نزوج اسبارنس وهي في هذا السن وبشاب لم يبن له مستقبلا بعد

ــ يقدر ان يشيد اسما شهيرا وجوست مسمر وهو غني جدا يمده بما يريد من المال

ــ ان جوست مسمر لا يمده بشيء وماذا يهمه من امره

ــ ان مقاومتك تدهشني · فقد قررت ذلك · ان اسبارنس تحب كوتياه وسنزوجها له في الاقرب من الوقت · وهذا يضمن انتشالها من لجة الغم والكدر الواقعة فيها

قلت لك انك السيد هنا ولك مطلق التصرف ، فتزوج اسبارنس بهذا السن وتحمل وحدك مسوءولية زواجها · قالت ذلك وقد اصفر وجهها وتقطب حاجباها · اما الدوق الذي كان يلاحظ تغير ملامحها فقد قال

ــ يظهر انك غير راضية عن هذا الزواج

ــ هل يلوح لك انني اقصد معاكسة اسبارنس ؟ كلا ، فاذا كانت تحب هذا الشاب الذي دخل بيتنا بصدفة من اغرب الصدف فلنزوجها له ولكن انا ارجو منك ان لا تغير شيئا مما قررته اولا

ــ لقد وعدت اسبارنس بزواجها في الوقت القريب

ــ وهل لا تجسر على اخلاف وعدك معها

ــ قد يكون ذلك · وفوق هذا من يعلم ماذا وراء المستقبل فمن الممكن ان اموت قبل انقضاء السنتين واريد ان يتم زواجها قبل مماتي

ــ حقا ان تخيلاتك غريبة

ــ لا شيء من الغرابة في ذلك اذ لا تعلم ما سيأتي به الغد فهل

كنا نقدر ان نمنع ما توقع معنا من الاطلاع على ذلك السر الذي ابعد روجينا عنا ؟ او هل كنا نقدر ان نمنع سرقة قصرنا . نعم كنا نقدر على مطاردة هوءلاء الاشرار وان نسلمهم الى العدالة ولكن ذلك يقودهم الى الاقرار بطريقة وجود الولد معهم وفضح ذلك السر المخيف الذي يشهر عار روجينا يقودها افتضاحه الى الموت

ـ ان روجينا لا تبالي بمثل هذه الاشياء

ـ اسمحي لي بان لا اكون من رأيك بخصوص روجينا التي لم تكلفي نفسك حتى مد يدك لوداعها بل تركتها بكل قساوة ولم تقولي لها كلمة واحدة تجبر قلبها الكسير

ـ انت اذن حزين على حالتها

ـ نعم وقد كنت اود لو اخسر عشر سنين من عمري ولا اقف على ذلك السر

ولكن اذا كنت حزينا الى هذه الدرجة فما عليك الا ان تعيدها ،

قالت ذلك وخرجت من القاعة على مهل الى غرفتها الخصوصية لانها كانت مضطرة الى الافتكار من جراء الخطة التي كان الدوق قد قررها لانها مغايرة كل المغايرة لخطة روسكوف وكانت في حيرة من امرها لا تدري كيف تبلغه الخبر

ولما اجتمع اعضاء العائلة حول المائدة مساء لاحظوا جميعهم الانبساط باديا على وجه اسبارنس وكذلك روسكوف لاحظ الشيء ذاته وسأل الدوقة عن السبب

— حدثت اشياء مهمة ساطلعك عليها هذا المساء

— اين ؟

— في الخيمة الساعة الحادية عشرة

وبعد ان جلس الجميع مدة قصيرة جريا على عادتهم بعد العشاء في قاعة الطعام وكان الدوق بخلالها يقرأ الجرائد والدوقة وروسكوف يتحدثان بامور شتى واسبارنس تلعب على البيانو تظاهرت كلاديس بالنعاس وصعدت الى غرفتها وتبعتها اسبارنس في الحال وحينئذطلب الدوق الى روسكوف ان يلعبا دقا بالشطرنج كعادتهما في كل مساء وبينما هما في اثناء اللعب قال الدوق

— استعد لحضور عرس قريب ، فقد عزمت على عقـد اكليل اسبارنس في اخر هذا الفصل

فتظاهر روسكوف بالضحك وقال

— احقيقي ذلك ؟

— نعم

— انت مصيب ياسيدي الاميرال برأيك فانك تجعلهما سعيدين

وبعد قليل افترقا فصعد الاميرال الى غرفته وذهب روسكوف الى الحديقة ليلتقي بالدوقة دوبان وهو يظن ان هذهـهي الاسرارالمزمعة ان تبوح بها له

وكانت كلاديس بعد ان راقبت في غرفتها رقاد اسبـارنس وصعود الدوق الى غرفته وهي مطفئة الضوء ومتظاهرة بالرقاد وتاكد لها

انقطاع كل صوت وحركة في غرفة الدوق قامت من سريرها ومشت الى الباب الفاصل بين الغرفتين فسمعت غطيط الدوق وهو في نوم عميق وحينئذ اغلقت الباب ووضعت على كتفيها شالا حريريا ونزلت الى الطبق الاول ومنه الى الحديقة

وكانت اذ ذاك الساعة المعلقة فوق القصر تدق الحادية عشرة ورغم السكوت التام الذي كان يسود فوق ذلك المكان وتأكدها من ان كل من في القصر نيام كان فوءادها مضطربا وهي وجلة تنظر الى اغصان الاشجار فتحسبها رقباء ويهولها مرأى الازهار فتحسبها عيون الحواسد وما زالت تسير الى ان ظهرت لها الخيمة عن بعد وكانت تنجلي امام عينيها وتابعت التقدم نحوها الى ان وصلت فوجدت ليونال بانتظارها فنزعت عنها الرداء الذي كان يغطي كتفيها والقته على مقعد هناك وقالت

ــ والان فاننا نستطيع التكلم بحرية ــ وبدون محاذرة من ان يسمعنا احد

ــ انا اعلم ماذا تريدين ان تقولي لي

ــ اتعلم ما اريد ان اقول ? اتعلم ان الدوق قرر ان يزوج اسبارنس بعد بضعة اسابيع ?

ــ نعم اعلم كل ذلك

ــ وهل لم يقلقك الخبر ?

ــ ابدا

ــ هل تغيرت افكارك اذن ؟

ــ لا تزال مطامعي كما كانت

ــ اذا كان الاميرال لا يمنع عن اسبارنس شيئا وهي تحب كوتياه فما العمل ؟

فهز روسكوف كتفيه وقال بلهجة ارجفت كلاديس

ــ ارى ان الظروف لن تقضي بما نريد فقد اخذت البارحة كتابا من وكيلي في باريس يخبرني فيه انه بالرغم من كل ما استعمله مع كوتياه لا يزال هذا محافظا بامانة على القسم الذي اداه لوالدته في ساعة موتها ومحافظا ايضا على اعتبار جوستمسمر ورضاه ولن يطالب ابدا بثروة دكسون

ــ اذن ؟

ــ اصغي جيدا الى ما اقول . اذا مات مسمر فلا شك بانه سيترك قسما كبيرا من الثروة لزمبا وحينئذ لا يبقى لكوتياه تلك الاحساسات التي تمنعه من المطالبة بها

ــ ولكن مسمر لم يمت

ــ يجب ان يموت

ــ انك لا تعلم ماذا تقول

ــ هل عندك رأي اوفق

ــ انا اعتقد ان الحب وحده والرغبة في الحصول على اسبارنس كافيان لان يدفعا كوتياه للمطالبة بالثروة وحنث كل يمين وخرق

كل احترام ، اما ما تقوله لي عن وكيلك في باريس فهذا مما يجب الا تعتد به وان تحذر هذا الرجل · ان ما يجري الان هنا لهو اهم بكثير من كل شيء سواه · ستقترن اسبارنس بكوتياه رغماً عن ارادتي وارادتك · واي وقت تم الزواج لا يعود لنا من سبيل لنتوقع شيئا نرجوه من كوتياه · فطريق الفوز هي هذه · تأجيل الزواج

ـ لا يوجد الا طريقة واحدة

ـ وما هي ؟

ـ اسمعي ، قال بكل تحذر ، طريقة واحدة مفتوحة الان امامنا ، طريقة واحدة تخلصنا ، افهمت ، نعم لا يوجد الا طريقة واحدة

ـ وما هي تكلم حالا

ـ موت الاميرال

فساد السكوت بعد هذا الكلام وتلاقت انظار هذين الشقيين شاخصة لدى هذا الفكر ، ثم عاد روسكوف فقال

ـ موت الدوق اولا ، ثم موت مسمر ، واذ ذاك يصير كوتياه في قبضتنا ورهن ارادتنا ولا يتأخر عن اجراء كل ما نرغبه للاقتران باسبارنس ، حينئذ نملك الغنى والحرية ونقدر ان نتزوج ونجاهر بحبنا لان حياتنا صعبة على هذه الصورة

ـ فبقيت كلاديس حيرى لا تبدي حركة او تفوه بكلمة

ـ اتخافين الان ؟ قال روسكوف بتهكم ، فليست هذه بالمرة الاولى التي افتكرنا فيها بذلك فهل لا تذكرين اننا تحادثنا بهذه الامور

قبل الان وايدت كلامي

ــ قد كنت افتكر ان الامر بعيد

ــ الوقت يضطرنا الى العمل لان تقرير وقت زواج اسبارنس يوجب السرعة وانلا نضيع دقيقة واحدة · فيجب ان نشتري هــذا التأخير باي ثمن غال والا فقدنا كل شيء وفوق ذلك فانه وان تكن ثروة الاميرال تقارب الثلاثة او اربعة ملايين فرنك فهو قد يموت في وقت قريب موصيا بكل ثروته لاسبارنس فتضطرين الى ان تكوني تحت رحمتها

ــ لو فرض وكان ذلك ، فانني اتمتع بهذه الثروة خمس سنوات الى ان تبلغ اسبارنس سن الرشد ومن يعلم ان الاميرال لا يختصني بشيء منها فضلا عن الخمسمائة الف فرنك التي وهبها لي يوم الزواج

ــ ان الشقاء يهددك ايتها الدوقة · فانت قد اعتدت البذخ والاسراف وعيشة الرخاء فالخمسمائة الف فرنك لا تثمر لك سنويا اكثر من خمسة الاف ليرة اي انك تقدرين مع الاقتصاد ان تدفعي مطاليب الثيــاب والحلى

ــ انت محق بذلك وانا اعترف لك بانني فكرت مرارا عديدة بهذا الامر وبمصير حالتي بعد موت الدوق

ــ اراك تقتربين من الصواب وترين ان ليس من الخسارة ان يطالب كوتياه بذلك الارث الذي هو له في نظر الشرع وان تتدفق بين يديك قناطير الذهب كالامواج فيتعذر عليك احصاء ثروتك

ـ اه الثروة · اه الغنى

ـ وفي اي وقت تم زواج اسبارنس على ما تريدين فان كل تلك الثروة تكون بين يديك لان كوتياه لا يهتم من طبعه بجمع المال وليس له رغبة في احصائه

ـ اذن يجب ان يموت الدوق ومسمر · قالت كلاديس بصوت مضطرب

ـ بدون مراجعة

ـ حسن · فانا اتركك تتصرف كما تشاء ، فاهت بذلك وهي تفكر في نفسها قائلة · فليعمل وحده · ليرتكب اثم الخيانة ، اما انا فانني اخاف ويكفيني عذاب الضمير ، وتذكرت في تلك الساعة محاولتها اغتيال جوست سابقا وكيف ان قواها خانتها وانكشف امرها وطالما كان هذا الفكر يقلقها وكثيرا ما كانت تحلم في وقائع تلك الحادثة في شارع سفولك وكيف ان يد جوست كانت رافعة الكاس الى شفتيها وهي مملوءة سما ، اما ليونال الذي كان قد قرأ فكر كلاديس فقال لها

ـ تكفلي بالدوق وانا اتكفل باغتيال جوست

ـ فارتجفت كلاديس اما هو فعاد وقال

ـ سممي له

ـ انا ؟

ـ نعم انت · فان السم سهل الاستعمال ومكفول العواقب والامر

مهم لان الضرورة توجبه

ــ السم ؟

ــ نعم ولا شيء اسهل من الحصول عليه

ــ واين نجده ؟

ــ يا الله ما اصعب الامور لديك ، فلا شيء اسهل من الذهاب الى باريس واستحضار ما تريدين من خزانة عمك

ــ اه كيف تريد ان اذهب الى باريس فما ذلك الا ليحرك شكوك الاميرال

ــ مع ان ذالك ضروري

ــ واي عذر يجب ان انتحل لذهابي بدون مرافقة الاميرال

ــ اذن اذهب انا

ــ هذا اوفق ولكن

ــ ولكن ماذا ؟

ــ ولكن كيف تدخل الى غرف النزل والوكيل شديد المحافظة

ــ هاتي المفاتيح وانا ادبر الامر

ــ آه . السم ، السم ، قالت كلاديس وقد لاعبت باصابعها شعرها الحالك السواد

ــ اتراجعين الى الوراء ؟

ــ لا اتراجع فان ارادتك هي نفس ارادتي . ولكنني اخاف لان بعد مقتل الدوق يكون مقتل جوست مسمر جثتان في طريقنا .

نعم انا اعلم ان ذلك ضروري لتسلط القوي على الضعيف ولـكنني اخاف لدى الافتكار في الامر

ــ انك غير اهل لمحبتي لانه ينقصك جرأتي فتأملي كيف انني اقدمت على حبك انت التي هي من اعظم سيدات باريس وكيف احضر في كل ليلة للاجتماع بك هنا بلا خوف ولا وجل وبدون ان ابالي بانتقام الدوق فيما اذا وقف على حبنا · فلاجلك تركت كل شيء كما قلت لك سابقا واصبحت بلا مال ولا عمل · كل ذلك لابقى بقربك والان تتقاعسين عن اقامة دليل على حبك لي

ــ اريد كل ما تريده ولكنني اخاف والخوف اقوى من شجاعتي وقد بدأت انظر بام العين جثة الدوق ممددة لا روح فيها

ــ طفلة

ــ اه لقد امسكتني جيدا وقيـدتني بـك حتى لا اقوى على مقاومتك ها انني لك نفسا وجسدا فاصنع بي ما تشاء · خذني الى اي مكان تريد ، فانني اتبع لك من ظلك ، انا اعبدك وانت تعلم ذلك ولاجلك اضحي كل شيء ، وفي تلك الساعة ترددت في فكرها كلمات والدتها الاخيرة « ان هذا الحب سيـكون شومـا عليك فـاحذري ياكلاديس » وقد كان تردد هذه الكلمات في بالها بصوت جلي واضح حتى تراجعت من موضعها الى الوراء مذعورة وتكلل وجهها بـالعرق البارد

ــ مالك ترتجفين ووجهك مصفر ويداك باردتان · فانك تخيفيني

ــ لا شيء ياحبيبي · كن براحة بال · فقد شعرت اولا بضيقة نفس الان فانا بكل راحة فاجلس الى جانبي · قالت ذلك ونظرت اليه نظرة الحب والهيام وسكن روعها بعد ان تغلبت على وخز ضميرهـا وقبلت بما يريد ثم قالت بكل طمأنينة كانها تتكلم عن امر من ابسط الامور في العالم ، ساعطيك المفاتيح وانت تعلم كيف تتصرف مع الوكيل الذي تقدر ان تملك ارادته بقدر زهيد من المشروبات الروحيه

ــ اراك الان ايتها الدوقة الحبيبة قد وصلت الى الصواب وانك تتكلمين بتعقل

ــ ولكن جوست · لماذا تحاول اغتياله ? لماذا ترتكب جريمة ثانية ?

ــ الا ترين ان ذلك ضروري للوصول الى الغاية التي تقصدها ?

ــ كلا

ــ انك بعيدة عن حقائق الامور · افلا تعلمين بان كوتياه لا يخالف ارادة جوست ولا يعمل ابدا ما لا يرضيه

ــ نعم اعلم ذلك ولكني اعتقد بــان كوتيــاه اذا كان يحب اسبارنس فانه يعمل كل شيء للحصول عليها فالمحب العاشق يرتكب كل الامور ارضاء لمعشوقته ولا انكر ان مقتل جوست يرعبني لانني اعرفه جيدا واعرف انه لا يبيع حياته رخيصة وفوق ذلك فانني اشعر بشيء داخلي يقول لي انه سيستظهر علينا ويفوز

ــ كل هذا حسن ولكن اسمحي لي فاقول لك انني اكره هذا

الانسان ولا اضيع الفرص للانتقام منه

ــ انت السيد وانا مطيعة بين يديك فتصرف كما تريد

وعلى هذا ذهب روسكوف في صباح اليوم الثاني الى باريس بعد ان قرر مع الدوقة الفتك بالاميرال وجوست مسمر

الفصل السابع عشر

كان كل شيء في قصر الامبراتريس هادئا وبينما كوتيـاه يستعد للسفر الى رومية وصله تحرير الدوق دوبان فاظهر اذ ذاك عدوله عن السفر والذهاب الى جبال البيرانه فالقى عليه جوست هذا السوءال

ــ هل اخذت خبرا من مدموازال دوبان ؟

ــ اخذت تحريرا من الدوق

ــ فتقطب حاجبا جوست واكمد لونه وقال

ــ الا تزال تحب مدموازال دوبان ؟

ــ اني اعبدها يا ابت كما كنت اعبدها في الماضي وسابقى على عبادتها ما دمت حيا واي وقت نظرتها انت ايضا تحبها معي لانها تامة الخلق والخلق

ــ ان الدوق دوبان يطلب اليك الاجتماع بهم في قصر سان سافان فقد يكون عدل افكاره ورغب في زواج ابنته في الحين القريب

ــ لا اعلم شيئا من ذلك انما هو بتحريره يعدني بالسعادة القريبة

ـ اذن انا مصيب فزواجك اصبح قريبا وارجو من الله ان يسعدك ويوفقك ياولدي وان لا تكون اسبارنس التي تشبه والدتها بهيئتهـا تشبهها باخلاقها · اما عائلتك الجديدة المقبلة فلا تهتم بها

ـ ان صوري ولا شك تجلب لي مبالغ كبيرة وارجو ان اضاعف ذلك بعد عودتي من رومية ووقوفي على اثارها البديعة

ـ وهل تأخذ امرأتك الى رومية ؟

ـ نعم وارجو ان نصرف هناك شهرنا العسلي

ـ من كل فوءادي اوافق على ذلك · فلا تبقِ امرأتك بقرب كلاديس بل ابعدها عنها باسرع ما تقدر عليه واتذكر انك ستكون حينا بقرب روسكوف ـ بقرب والدك فلا تنس تلك الحوادث الغريبة التي اجراها ويجريها في بيت الدوق دوبان

ـ ساتوصل اخيرا الى ابعاد هذا الرجل

ـ لا تقدر على ذلك ويظهر انك لا تعرف هذا الشقي فقد جعل قياد كلاديس في يده فاحذر منه ، نعم انني اعلم ماذا يقصد لنحوك ولكنني اخاف عليك واحذرك منه ولكي اساعـدك ان تعيش انت وزوجتك فانني اخصص لك مبلغ مائة الف فرنك في كل سنة كما وانك لن تكون منسيا عند موتي كما قلت لك سابقا

وبينما هما يتجاذبان الحديث قرع الباب وبان منه زمبا وناول جوست تحريرا وهو يقول

ـ اظنه من لورد ياسيدي فاخذه جوست بين يديه وبدأ يقلبه

حائرا ، ثم فضه وقرأ

« عزيزي جوست · انا منذ شهرين قد تركت قصر سان سافان وابتعدت الى الابد عن عائلة دوبان ·على انني لا اقدر ان اقول لك لماذا افترقت عن حبيبتي اسبارنس لان ذلك سر وسر موءلم ولو لم تكن مدموازال دوبان التعسة والمهملة قد امسكتني في جبال البيرانه لرجعت من زمن الى باريس على ان بعدي عنها لا يمنع من ان اكون مستعدة لحمايتها وانا مع استعدادي في كل يوم لاكتب اليك تراني اوءجل ذلك دائما الى الغد · كما وانني كنت مستعدة لابشرك بخبر مفرح لولا ان النحس والظروف المعاكسة قد ابعدتنا ايضا عن الولد الذي نهتم لوجوده · فاسمع ياعزيزي جوست

« كنت قد وجدته ولكن باية حالة ، تصور صعلوكا منهوك القوى ضعيف الجسم برفقة زمرة دأبها ارتكاب المنكرات والسرقة ومع فتاة تعسة تدعى كازال قامت مقام والدة لعزيزنا مارسل الذي يدعى الان كوكوس · اما كيف وجدته فهاك الخبر · حضر مع رفاقه الى قصر سان سافان ليرقص على الحبال ويرفع الاثقال · وقد عرفته من الذخيرة التي اعطيته اياها وهو طفل رضيع · اه يا الله ما اصعب وامر تلك المقابلة على كلاديس تلك الام التي منعتها الكبرياء عن الاعتراف بولدها · وبينما كان كوكوس يلعب بالاحمال الثقيلة جرح في رجله وقد اراد الاميرال ابقاءه في القصر ليعتني به حتى ينال الشفاء فافتكرت حينئذ ان اكتب اليك ياجوست لتحضر وتأخذه ولكن لمعاكسة

الظروف سرقت غرفة الدوق الخصوصية واتهم الولد — ابن كلاديس دوقة دوبان وابن جوست مسمر ملك الذهب بهذه السرقة · اه ياجوست كنت ظننت ان قلبي تقطع لما افتكرت انه ربما يكون هو الجـاني ولكن ثق ياجوست بان الشهيد الصغير كان بريئا وان يكن قد اضطر ان يحمّل على كتفيه عظم هذه المسوءولية · الا ان السرقة قد ارتكبها الشقيان اللذان يرافقهما · هذا ما احببت ياجوست ان اعلمك به وانت تعلم ما حاقني من جراء ذلك واني لفي غنى عن تبيـان رغبتي في الاحتفاظ به واعادته اليك غير ان كوكوس عاد فاختفى مرة اخرى والعزيز الذي كنت قد وجدته فر من بين يدي الى لجة العالم الكبرى »

لم يكد جوست ينتهي من قراءة هذا التحرير حتى تصاعدت زفراته وتساقطت دموعه سخينة فوق وجنتيه فحار كوتياه لذلك ولم يعلم كيف يستطلع سبب بكائه اما جوست فكان يردد هذه الكلمات

— مسكين انت ايها الصغير · مسكين ايها الولد التعس منذ يوم ولادتك مسكين ايها الطفل المعرض لكل انواع الاهانات والعذابات مسكين ايها الصغير · واي مسكين

— ابت ، قال كوتياه وهو يقترب من جوست ، لماذا البكاء ، لماذا الحزن الا يحق لي ان اسأ لك ذلك ، اليس لي الحق ان اعرف سبب الدموع التي تسكبها او ليس من واجباتي ان امسحها ؟ ارجو منك ان تقول لي كل شيء · وان تطلعني على فحوى هذا التحرير · فانني اريد ان اشاركك في دموعك واقاسمك احزانك · انك قد

لفظت اسم روجينا فهل الم بها ضيم ؟

— لقد تركت روجينا عائلة الدوق دوبان ولكن بكائي ليس على هذا الحادث الغير اعتيادي . فاذا ارادت روجينا تقدر ان تجد هنا قلوباً مفتوحة لقبولها تنسيها بعض الاحزان التي قاستها في ذاك البيت النجس الذي تريد انت ان تدخله رغما عن نصائحي وارادتي

— اه يا ابت ، ما الخبر ؟

— اعيد ما قلته لك قبلاواترك لك الحرية بان تتزوج بمدموازال دوبان ، تزوجها طالما انت تحبها ، ولكن كن على ثقة من انهـا لا تجعلك سعيدا الا اذا ابعدتها حالا عن والدتها

— لا شك ان لديك براهين قاطعة لاثبات قولك هذا

— اقول الحقيقة وعن اختبار

— وما هذا التحرير ؟

— انه ينبئني بويل عظيم . فانت لا تجهل ان لي ولدا ضائعا في هذا العالم الواسع . ولد والدته تدعى الدوقة دوبان ولد من هذه الخائنة الشريرة ، وروجينا قد وجدته ولكن عاد وفقد منها فتبـا للظروف المعاكسة والصدف القاهرة ، لقد ذهب مع اللصوص . مع الاشرار . فكيف اؤمل ان اجده بعد

— فارتجف كوتياه وقال، ماذا تقول يا ابت

— اه ماذا اقول الا ان اجد ولدي مجرمامكتوف اليدين امـام مجلس القضاء

ــ ما هذا ! ما هذا !

ــ نعم انك لا تعلمْ شيئا فاسمع الواقع، وبصوت مرتجف قرأ علنا تحرير روجينا

ــ ان ولدي قد اتهم بسرقة . وذلك امام والدته ومع معرفتها براءته لم ترفع صوتها للمحاماة عنه . قد استحت به ولم ينبض في فوءادها عرق واحد من عروق الرحمة والشفقة

ــ اه من هذه المرأة ، قال كوتياه

ــ وهذه المرأة هي والدة اسبارنس . والدة الفتاة التي تحبها

ــ اه كم ارثي لحالها وكم يحزنني ان تكون مثل هذه المرأة والدتها

ــ ان الحرب التي ستضطر ان تخوضها مع هذه المخلوقة الخبيثة ستكون شديدة وربما غلبت على امرك فيها

فبقي كوتياه صامتا واخذ يتأمل المركز الحرج الذي وجد نفسه فيه ويفتكر في الحرب الشديدة التي كان مضطرا الى خوض غمارها مع الدوقة دوبان وليونال روسكوف ذلك الشخص الذي كان والدا له والذي لا يقدر ان ينتقم منه ، اه نعم ان جوست كان محقا في نصحه له بالابتعاد عن عائلة الدوق دوبان . ولكن ذلك كان غير ممكن . كان هو يحب اسبارنس ، وكان هذا الحب الاول ، وكانت هي الوحيدة التي خفق لها فوءاده ، وكان وهو مغلق عينيه يتصورها وهي مرسلة شعرها الجميل فوق كتفيها ترشق من كنانة عينيها

الزرقاوين اسهم الغنج والدلال ويسمع باذنيه صوتها الملائكي ونغمتها الموسيقية · ورغما عن كل ما كان قد رأى ونظر من السيدات اللواتي كن يمثلن حقيقة فنيس الهة الجمال خاضعات بين يديه يأخذ رسومهن الجميلة وهن ينظرن اليه بعين الحب والهيام معجبات بجماله وذكائه لم يكن امام تلك الهياكل المحسوسة الا كما يكون امام المناظر الجامدة يسر فقط بنقل جمالها على صورة بدون ان يخفق فوءاده او ان يشعر بحب او ميل · وكان يحب اسبارنس لا سواها ولا يرضى عنها بديلا

اما جوست فبعد سكوت قليل قال :

ــ انني رغما عن الغنى العظيم الذي اتمتع به اتعس رجل على وجه الارض فمن هو الذي يحبني ? من هو ? على انه في ذات الدقيقة شعر بخطاء لدى هذا القول الموءلم وتخيل شخص مادلين برامون بكل لطفها وظرفها وسلامة ضميرها تقول له « انك تكذب » انك رفضت قبول فوءادي من زمن طويل كنت جعلتك سعيدا · وانسيتك الامك واياهك الماضية · تلك الايام التي يوءلمك تذكارها والتي لا تريد ان تتصورها

« اه وجوابا على هذه الافكار اقول · ان تذكاري هو لذلك الولد التعس ، ذلك البائس التائه في انحاء العالم ، ذاك الذي قضى ضحية ظلم والدته

اما كوتياه فكان يتأمل ويتأكد ان ذلك الولد الذي يبكيه

مسمر لم يكن الا كوكوس التعس الذي صادفه اكثر من مرة والذي نقل تحريره الى اسبارنس ولم ينتبه من تأملاته الا لصوت جوست وهو يقول

— انظر كيف انني ساصبح وحيدا ، انني ارى كل احبائي يبتعدون عني فانت متذهب عما قريب ولا يبقى لي الا الامين زمبا

— ولكن ساعود اليك في الحال واجلب معي اسبارنس . ذلك الملاك الطاهر الذي يسلي احزانك وتكون عائلتي عائلتك فتعود اليك الافراح

— آه من الافراح ? انك حقا تتكلم عن نفسك ياولدي ألا تعلم ان الافراح بعيدة عني وهل اقدر ان افرح بعد لدى تذكري ذلك الماضي المشؤوم ?

— انك ستجد الولد

— ارجو ذلك ولكن باية واسطة اجده وفي اية حالة اراه ? تكاد امالي تضمحل بعد ورود تحرير روجينا . فاين وكيف ساجد هذا البائس هذا الشقي هذا اللص ? من يعلم ? اواه ان الامثال الرديئة تفسد الضمائر السليمة ، يقتضي توفر قوة غريبة ، امثال خارقة العادة ، وارادة قوية لتحول تلك المبادىء التي قد غرست فيه منذ الصغر . وتقتلع تلك المفاسد . انني افضل له الموت على ان اجده على هذه الحالة . والذنب كله على تلك المرأة . تلك التي كان يجب ان تحافظ على المولود من احشائها . نعم هي التي جلبت الشقاء الى

ابني التعس الذي ابكيه · اه لو كانت قد رضيت لكان ولدي الان حيا بجانبي · نعم انني كنت لا املك هذه الثروة التي تقلق افكاري ولكنني كنت اشتغل بجد ونشاط لاجعلهما سعيدين وعوضا عن الغنى قد نحصل على الراحة والسعادة العائلية · كنت سعيت لاكون طبيبا مشهورا وتركت لولدي ارثا من الفخر والشرف · ولكنها لم ترض

نعم ان كل ذلك هو الماضي الذي لا يعود فما الفائدة من تذكاره وفوق ذلك فانني اشعر بان زهرة حياتي بدأت تذبل بينما حياتك يا كوتياه تبتدىء الان · تزوج تلك التي تحبها ان كنت رغما عن نصائحي ومخاوفي لا تريد ان تبتعد عنها فتزوجها وكن سعيدا

الفصل الثامن عشر

وفي مساء ذلك النهار ركب كوتياه القطار السريع الى البيراناه وقلبه يطير اشتياقاً نحو قصر الدوق دوبان حيث كانت كلاديس وامبارنس وروسكوف ينتظرون حضوره على احر من الجمر لان روسكوف بالاتفاق مع كلاديس كانا قد قررا ان يسعيا مرة اخرى نبهر انظار المصور الشاب بثروة دكسون الطائر واقناعه بوجوب المطالبة بها قبل ان يضطرا الى ارتكاب جريمة القتل ، وكانت الافراح بدأت تعود الى ذلك المكان وصارت عائلة الدوق تخرج كل يوم من الصباح الى التنزه بين الاودية والجبال ولا تعود الا في المساء · وروسكوف

يترقب الفرص للانفراد بكوتياه والتكلم معه على حدة بخصوص تلك الثروة

ففي صباح يوم بينما كان كوتياه خارجـا من غرفتـه واذا بروسكوف قد تقدم نحوه ووضع يده تحت ابطه وسار الاثنان الى الحديقة ومع ان ذلك الوقت كان في اواسط الخريف فان الصبـاح كان جميلا واوراق الازهار التي كانت تتساقط بنسمـات الهواء اللطيفة تمد على الارض بساطا بديعا ينبعث منه الى الفضـاء رائحة ذكية · وكان كوتياه الذي من يوم وصوله الى قصر سان سافـان يتجنب مثل هذه المقابلة المنفردة مع روسكوف يستعد للرد على ما كان عساه ان يقوله هذا له بشأن الثروة وما زال الاثنان يتقدمان الى ان خرجا من الحديقة وتوغلا بين الوهاد وروسكوف يبدي لـه من اللطف شيئا كثيرا ويحادثه بامور شتى حتى اراد الفتى الرجوع لاعتقاده ان اسبارسس تنتظره في حديقة القصر فقال له روسكوف

ــ اريد ان اقول لك شيئا

ــ وما تريد ان تقول لي ؟

ــ ما يتعلق بمصلحتك · لان لي الحق بناء على ما اعتقد ان اهتم بذلك

ــ ماذا تعني ؟

ــ انك ستتزوج عما قريب مدموازال دوبان

ــ انا مفتخر وسعيد بذلك

ـ اذن فالوقت للافتكار بامر مستقبلك قد حان

ـ ان المستقبل لا يقلقني ابدا

ـ يجب ان تفتكر بامرأتك وباولادك

ـ ساشتغل لاجل امرأتي واولادي اذا اسعدني الحظ بالحصول على اولاد وطالما لي شهرة طائرة لا اخشى المستقبل

ـ ان مدموازال دوبان متعودة البذخ والاسراف فلا تجد لها موردا كافيا من وراء اعملك

ـ ان المحسن الي يعطيني مائة الف فرنك في السنة

ـ مائة الف فرنك ؟ قال ليونال وقد وقف في مكانه

ـ نعم ياسيدي

ـ ولماذا لم تطلع الاميرال ولا الدوقة على ذلك ؟

ـ لان هذه الاشياء هي من خصائصي على انني ارى ان هذا الخبر يذهلك

ـ حقا

ـ ان جوست مسمر يفكر في كل شيء ، قال كوتياه ، ولا اخفي عنك انني كنت على غير انتظار لذلك

ـ في كل الاحوال ان هذه الدراهم هي لك ومسمر لا يعطيك الا النزر القليل مما سلبك اياه

ـ انك تهين الشخص الوحيد الذي احبه في العالم . فاسمح لي بالانصراف لانني اعلم الى اين تحب ان تصل . فانك ستعود الى

ذلك الحديث القديم — حديث المطالبة بالارث — الامر الذي لا افعله ابدا ٠ فقد كان لي من معتمدك في باريس المسيو نيسو كفاية في هذا الصدد وانا اوصيك الان ان تفهمه بان لا يتعب نفسه ثانية بذلك لانني لا اصغى لاقوالكما

— ولماذا ؟

— للسبب العادل وهو ان الثروة موجودة بين يدي رجل محسن عادل حكيم ولا تخصني

— اذن ستترك لهذا الرجل ثروة دكسون

— نعم اتركها

— اما انا فقد قررت اخذ نصيبي منها ، قال روسكوف بحدة ، ولاجل الحصول على ذلك فانني لا اتأخر عن اجراء كل شيء ٠

فتبسم كوتياه باستهزاء وقال ٠ انك لا تقدر على اجراء شيء ٠

— اتظن ذلك

— انا واثق من ذلك

فاصفر وجه روسكوف وقال ، انك لن تتزوج مدموازال دوبان

— ومن يمنعني ؟

— انا

— ومن انت في هذا البيت لتأمر مثل هذا الامر وتنهى مثل هذا النهي ؟ ثم قال متهكما ٠ نعم انا اعرف انك عشيق الدوقة ولهذا تراني راغبا في سرعة الاقتران وابعاد اسبارنس

ــ وهل انت لا تزال تؤمل ان تدخل بيت الدوق وان تتزوج اسبارنس ? فانا اقول لك ان ذلك لا يكون بدون رضى الدوقة وبدون رضاي انا لانني والدك ولي السلطة عليك

ــ ان الاميرال مطلق التصرف بزواج ابنته

ــ هذا ممكن · ولكن هب انني اطلعت الدوق على حقيقة امرك واخبرته عن والدتك وما حل بها في باريس لاخفاء خيانتها · واخبرته من انت ومن اي مكان آت · افلا تظن حينئذ ان ابواب قصره تغلق في وجهك وان امالك في المستقبل تزول جميعها ? اه لقد ظننت انني سوف اجاريك بهذه الامور فما هذا الغلط الفاضح · انك لا تعرفني جيدا

فاغرورقت عينا كوتياه بالدموع وصاح على غير رشد · انك تهينَ والدتي · انك تهين ذكرها · وللحال جالت في مخيلته كلمات ونصائح جوست فقال

ــ انك تهين والدتي التي احتملت بصبر وشهامة العيشة الذليلة التي قدمتها بخساسة اليها وقد كنت احسب انك ستظهر هذه الجبانة لان جوست مسمر الذي يعرف ما في الصدور حذرني منك ونبهني

وما كاد يلفظ هذه الكلمات الاخيرة حتى ارتجفت اعضاؤه اذ نظر اسبارنس متكئة على ساعد الدوق تقول له

ــ قد حضرنا بطلبكم ،قالت الابنة ضاحكة ،فان والدتي تنتظركم في الحديقة ، قالت ذلك ووضعت يدها بيد كوتياه وعاد الكل في طريق القصر والدوق ينظر اليهما بكل محبة واعجاب

وفي صباح الغد عاد كوتياه الى باريس ليهتم بلوازم الاكليل حينئذ تقرر بين كلاديس وروسكوف موت الدوق دوبان بدون تأخر وللحال ذهب روسكوف الى باريس ايضا لاستحضار السم من منزل شارع ميات مصحوبا بكل المفاتيح والايضاحات اللازمة من كلاديس وهناك بين الزجاجات العديدة المحفوظة في تلك القاعة على ما ذكرنا سابقا · وجد زجاجة مكتوبا عليها « بــلادون » « حشيشة الجمرة » تسبب الموت البطيء بجرعات قليلة متوالية » اعراضها خبل وانفلاج موضعي ، جمود وحيرة ، حذر وانقباض وبلاهة ، انبساط وتمدد في حدقة العين » هذا كل ما يلزمنا قال وهو يضع الزجاجة في جيبه · وبعد ان اعتنى باعادة الاشياء الى مواضعها عاد فاخذ القطار الى البيراناه في ذات المساء وهو يعتقد بنجاح قصده

الفصل التاسع عشر

ــ ماذا عملت ؟ قالت كلاديس وقد اسرعت لملاقاة روسكوف

ــ احضرت كل ما يلزم

ــ السم ؟

ــ نعم

ــ ما هو ؟

ــ البلادون · بضعة ايام معالجة وينقضي الامر

ــ اه ، الآن صرت اخاف ، قالت كلاديس مرعوبة

ــ لم يبق مجال للتأخر ،قال روسكوف ببرودة

ــ انا اعلم ذلك ، قالت كلاديس ، خصوصاً وان الدوق اليوم قد انهى اخر الاستعدادات للزواج

ــ اذن فالوقت يقتضي السرعة

ــ انا خائفة ! خائفة من ان ينفضح سرنا

فهز كتفيه وقال · اما انا فانني بكل طمأنينة وأنتِ لا يلزمك اكثر من بعض الحكمة ليقضى الامر على ما نريد فان الاميرال على ما اعلم يأخذ في كل مساء قبل النوم كأس ماء بارد وفي هذه الكأس يجب ان تضعي بضع نقط من البلادون وانا اعطيك كل معلوماتي واتغيب عن سان سافان بضعة ايام

ــ اه · لا · لا · لا تذهب · لا تذهب · فانك اذا ابتعدت عني لا يبقى لي قوة على العمل · اه لا تذهب بل ابق بقربي

ــ حسن فانا سابقى ولكن كنت اعتقد ايتها الدوقة انك جريئة اكثر من ذلك

ــ انا اخال ان يدي ترتجف فوق كأس الدوق

ــ هل تفضلين ان اطعن الدوق بخنجر ؟ او انتظره مساء في بعض منعطفات الحديقة وارميه في الكهف ، هل تفضلين هذا ؟ لا تهمني الطريقة ابدا بشرط ان يقتل الاميرال

ــ اه ، ما هذا !؟

ــ يجب ان تعلمي بانني اشتغل لسعادتنا · ففي اي وقت قتل الاميرال نكون قادرين على محبة بعضنا بكل حرية

ــ ما هذا ! ما هذا !

ــ قالت ذلك وافترقا بعد ان قررا ان تبتدىء كلاديس بعملها وحينئذ شرعت تتقرب الى الدوق الذي لم يستغرب تقربها لاعتقاده انها تفعل ذلك اهتماما بأمر الاكليل وفي النهار كان رومكوف قد صادف كلاديس فقال لها

ــ لا تنسي هذه الليلة

ــ هذه الليلة ؟

ــ نعم لان ذلك ضروري

كان هذا الامر لدى كلاديس واجب الاطاعة لا تقدر على مخالفته فبينما كان الاميرال يتمشى في الحديقة بعد العشاء صعدت هي الى غرفته وفي الكأس الذي كان اعدها الخادم ليتناولها الدوق قبل الرقاد وضعت بضع نقط من البلادون · وفي نحو الساعة العاشرة صعد الدوق الى غرفته وعلى جاري عادته تناول كأس الماء ونام نوما هنيئا الا انه في الصباح افاق وهو متضعضع القوى فاضطربت اسبارنس وقلقت

ــ لا شيء يوجب القلق ايتها العزيزة، قال الدوق،فان راحة يوم تكفي لذهاب هذا العارض · وفي الحقيقة ان الدوق قدر في المساء ان ينهض وينزل الى قاعة الطعام ولكن بدون ان يذوق شيئا لان البلادون اعطى له بكمية خفيفة جدا لم يوءثر التأثير الكافي فضاعفت كلاديس

في المساء الكمية فقضى الدوق تلك الليلة وهو يتألم وطلب في الصباح ان يستدعى الطبيب

فاسرعت اسبارنس رغما عن محاولة والدتها منعها عن الذهاب الى لورد لتستدعي طبيب الدوق الخصوصي الذي كان لـه فيه كل الاعتقاد

— لا يصل الطبيب قبل موت العليل ، قال روسكوف ، ولكن بالنظر لبنية الدوق القوية خاب فأله وتغلب الرجل على مفعول السم

اما اسبارنس المضطربة فانها افتكرت باعلام روجينـا ايضـا واستدعائها على امل ان تكون معينة لها وعلى هذا الاعتقاد ذهبت الى المحل الموجودة فيه اولا مسترشدة بالعنوان المعطى لها من الكاهن وقرعت الباب فتقدمت روجينا وفتحته على ان اندهالها كان عظيما لروءية اسبارنس وضمتها بين ذراعيها وقالت ، امريضة انت ؟

— لا ومع ذلك فقد اتيت لاستدعاء الطبيب ، قالت هذا بصوت يمازجه البكاء ، فان والدي يموت

— ماذا تقولين ? سألتها روجينا وهي تضمها بين ذراعيها . مالك تبكين هكذا ? انظري الي

— تعالي . لا تدعيني اذهب منفردة الى سان سافان . تعـالي انظري والدي واخدميه

— اخشى ان تطردني والدتك

— انك سوف لا ترينها لانني ادخلك سرا الى غرفـة والـدي

لتحرسيه اذ لا ثقة لي الا بك فاحضري معي في الحال وانظري كم قد تغير حتى انك لا تعرفينه اذا نظرت اليه

ـ يجب ان تعلمي الطبيب في الحال ، قالت روجينا

ـ نعم ساعلمه ليذهب ويتدارك هذه المصيبـة التي اتت في الوقت الذي كنا نستعد للافراح فيه لان اكليلي على كوتياه كان قد تقرر بعد بضعة اسابيع

ـ اه · قالت روجينا وهي تضع يدها على فوءادها

ـ ما بالك ! ما بالك !

فبقيت الابنة صامتة وكأن شيئا داخليا قال لها ان كلاديس وروسكوف ليسا غريبين عن مرض الدوق دوبـان الفجائي وللحال وضعت قبعتها على رأسها وتبعت اسبارنس في طلب الطبيب وذهب الثلاثة الى سان سافان

كان الدكتور راميناه رجلا طاعنا في السن وصديقا قديما لعائلة دوبان وذا استقامة مشهورة وحرية ضمير ولذا كانت كلاديس تخشى حضوره · اما روسكوف فانه بقي مطمئن البال من نجاح مساعيه وعدم كشف سره وحالما وصل الطبيب ذهبوا به الى غرفة الدوق الذي كان ملقى فوق سريره وعلامات الموت باديـة على وجهه · فجس نبضه وحدق نظره فيه ثم هز رأسه ووقف بحيرة واخيرا حول عينيه نحو كلاديس التي كانت جالسة في احدى زوايا الغرفة ونظر اليها نظرة ارجفت جميع اعضائها وعاد ثانيـة الى المريض فحسر عن ساقيـه

وجسهما بقوة فلم يبد الاميرال اقل حركة

فالتفت الطبيب الى الدوقة وقال

ــ عرفت كل مرض الاميرال · هو خبل وانفلاج موضعي · جمود وحيرة خدر وانقباض وبلاهة · انبساط وتمدد في حدقة العين كل هذه الاشياء هي دلائل التسمم

ــ تسمم ? انك ولا ريب لفي ضلال مبين ياسيدي الطبيب

ــ كلا ياسيدتي هذه هي حقيقة حال الدوق · وما كاد الطبيب يلفظ هذه الكلمات حتى جلس الدوق فوق وسادته واخذ يتقيأ

ــ هذا تسمم ، عاد الطبيب وقال « ولكن سنعالجه في الحال ، ونظر الى الدوقة نظرة مخيفة ثم قال ، تسمم بواسطة البلادون ، وقد امر باستحضار الادوية والعلاجات الضرورية وبقي كل ذلك النهار يعتني بالدوق الذي قضى ليلا هنيئا واظهر الدكتور في صباحه ان الاميرال قد ينجو من الخطر لتوقف كل اعراض التسمم وتحسن حالته

ــ قلت البارحة لي ياسيدي ان زوجي كان مسمما فهل ان اعتقادك لا يزال في موضعه ? قالت ذلك لتظهر للطبيب الشيخ تعجبها من حدوث مثل هذا الامر نفيا للتهمة عنها

ــ ان اعتقادي لم يتغير بعد ياسيدتي

ــ اذن يوجد قتلة في هذا البيت ، او ان الدوق قصد الانتحار

ــ هل هو تعس ليطلب الانتحار يا سيدتي ? وقبل الاقدام على ذلك احمال من المتاعب والمصاعب ارى الدوق بعيدا عنها

فهزت كلاديس كتفيها وبقيت صامتة · اما الطبيب فبعد ان تأكد نجاة الدوق عاد الى لورد حائرا في هذا الامر

ومضت بضعة ايام في قصر الدوق دوبان بدون ان تأتي باقل تغير في حالة تلك العائلة وكانت روجينا قد اوصت اسبارنس قبل ايابها الى لورد بان ترسل وتستدعيها حالا فيما اذا جد شيء·

ـــ انا اشكرك كثيرا لاسراعك في الحضور واشكر الله لانه انقذ والدي · قالت اسبارنس وهي تودع مربيتها التي كانت الى ذاك الوقت مختبئة في احدى غرف القصر الخارجية بدون انترى كلاديس فهزت هذه كتفيها وقالت لها

ـــ ان والدك لم ينج بعد ولا يزال الخطر محدقا به ومن الضروري ان تلاحظيه دائما ولا تتركيه دقيقة واحدة واذا اردتفانياقوم بذلك

ـــ انت ؟

ـــ نعم انني اسهر على حراسته في هذا الليل فاصعد الى غرفته بينما تكونون في قاعة الطعام وابقى فيالمخدع الصغير هناك

ـــ واذا نظرتك والدتي ؟

ـــ كوني باطمئنان لان والدتك لا تدخل ابدا الى ذاك المخدع واذا دخلت هذه الليلة فيكون ذلك من الصدف الغريبة

ـــ اه ايتها العزيزة ، قالت اسبارنس والدموع ملء عينيها انقذي والدي ولك الاجر الاعظم عند الله

وعلى هذا انتظرت روجينا في موضعها الى المساء وبقدم ثابتة

وقلب مضطرب تقدمت في مماشي القصر الفسيحة الى ان وصلت الى امام غرفة الدوق وهي خائفة من ان يراها احد وينفضح امرها • وهناك رفعت عن الباب سجافا ثمينا ودخلت الى الغرفة وهي مصغية الى اقل حركة فلم تسمع الا تنفسات الرجل المريض وهو نائم فوق سريره فتقدمت نحوه واخذت تتأمل ذلك الوجه الذي كان مصفرا اصفرارا غريبا ودلائل الموت ظاهرة عليه وما زالت كذلك حتى طفحت عيناها بالدموع مشفقة على ذلك الرجل الذي كان بقسوة قد طردها من بيته وركعت تصلي طالبة له الصحة والخلاص لانها كانت من اليوم الاول قد غفرت له قسوته لاعتقادها بانه لم يفعل ما فعل الاامتقادابحكم العدل لاقرارها هي عن نفسها • وفيما هي كذلك سمعت وقع اقدام تقترب على السلم فارتجفت جميع اعضائها ولم تكد تختبىء في المخدع حتى كانت كلاديس قد دخلت الغرفة • وهيأتها تدل على اضطراب زائد وهي تحمل بيدها زجاجة دواء كان الخادم قد احضرها فوضعها على الطاولة واحدقت نظرها في الرجل المريض حتى انها لم تقدر على تحويل عينيها عنه واذ ذاك فتح الباب ثانية وبانت منه اسبارنس وروسكوف فارتعدت روجينا في مخدعها وكانت تنظر من بين سجوفه ما يجري في غرفة الدوق• واضطربت لدى تلاقي نظرات روسكوف وكلاديس التي للحال اومأت الى ابنتها قائلة

ـ اذهبي الان الى النوم لانني ساحرس والدك في هذا الليل واياك ان توقظيه

وباشارة خفية اوماً ت نحو الباب الى روسكوف ايضا ولكنه بقي في مكانه الى ان ابتعدت اسبارنس عنهما فقال لكلاديس — في هذا المساء

— نعم

— اتحلفين ؟

— نعم احلف

وحينئذ تبع روسكوف اسبارنس ولما بقيت كلاديس وحدها في الغرفة سكبت في كأس موضوعة هناك شيئا من الدواء الذي كانت قد احضرته ثم اجالت نظرها في كل جوانب القاعة ووضعت يدها فوق فؤادها المضطرب لتسكن ضرباته القوية وتقدر ان تسمع تنفسات الدوق واذ تحقق لها ان الغرفة خالية من كل رقيب وان ذلك الرجل الذي كانت تحضر له السم نائم بانزعاج وتألم لما كانت قد جلبت له في الليالي الخوالي اخذت من جيبها حنجرا صغيرا وبعد ان اعادت نظرها لجهة الدوق وتأكد لها ان الباب مغلق سكبت منه في الكأس بضع نقط وتراجعت على مهل من الغرفة

اما روجينا فكانت قد نظرت كل شيء وجال في خاطرها ان تخرج من كمينها وتمسك كلاديس بيدها بينما هي تسكب السم وتصرخ فيها ، القاتلة ، المسممة ، لولا خوفها من ان تزعج الدوق وتقلقه ثم مضت ساعات على ذلك والسكوت شامل كل تلك الجهة والطبيعة راقدة تحت اشعة الفجر الفضية ونسمات الخريف العليلة تلعب باوراق

الاشجار المتساقطة وكانت روجينا وهي بموقفها قلقة لانها تريد ان تبعد تلك الكاس عن الدوق وهي تخشى ان تتقدم حذرا من ازعاجه على انها اجتهدت بضبط انفاسها وعلى رؤوس اصابعها تقدمت نحو الطاولة وبينما هي تمد يدها لاخذ الكأس واذا العليل قد استيقظ ومد يده نحو الكأس المسمومة ليأخذها واذ ذاك اضاعت الابنة كل تعقل وادراك وصرخت عن غير قصد

ــ لا تشربها · لا تشربها · اتركها

ــ روجينا ! روجينا !!

ــ لا تشرب ، لا تشرب ، قالت وهي تحاول ان تأخذ الكأس من يده المهزولة

ــ ولماذا ؟ قال وقد جلس فوق سريره

ــ لا ، لا ، لا تجرع هذه الكأس قالت وصوتها يزداد اضطرابا ، لا تجرعها فانها مسمومة

فكأن قوة غريبة اعادت الى الدوق نشاطه وللحال نزل عن سريره وارتدى بعض ثيابه وتقدم نحو روجينا وقال

ــ تكلمي · تكلمي في الحال · من حضر الى هذه الغرفة ؟ وكيف انك موجودة هنا ؟ ولكن روجينا التي ابت ان تشكو كلاديس جثت عند قدمي الدوق صامتة

فخرج الاميرال من الغرفة وسمعت روجينا وقع قدميه متجها نحو غرفة كلاديس ، ولكن عبثا كان ينادي كلاديس ، كلاديس ،

بلهجة قوية افاقت كل من في القصر ولا يسمع جوابا الا صراخ ضميره الذي كان ينبئه بخيانة هذه المرأة التي كان قد احبها حبا شديداووضع كل شيء بين يديها و كرس لها فوءاده وشرفه وثروته وحينئذ عاد بكل رزانة الى غرفته حيث كانت روجينا لا تزال راكعة وقال لها

ــ انك تعلمين كل النقائص التي تجري في هذا البيت ومع ذلك لازمت الصمت ولم تقولي لي شيئا عنها

ــ اغفر لها · اغفر لها

ــ اين هي الان ? لا شك انها ذهبت لملاقاة عشيقها

ــ اغفر لها · اغفر لها

ــ ما اسم هذا العشيق? لا شك انك تعرفينه

ــ المغفرة · المغفرة

ــ اذهبي من امامي،قال الدوق ، وقد ابعدها عنه بحدة ، فانك لا تريدين ان تقولي شيئا · وانت ايضا شقية مثلها ، لعنتك في الماضي والعنها هي الان ، ورغما عن مقاومة روجينا التي كانت تحاول ابقاءه في الغرفة قد خرج بقدم ثابتة وكانت تسمع وقع خطواته في مماشي القصر الى ان ابتعد عنها فساد السكوت

الفصل العشرون

من هو عشيق امرأته ، من هو شريكها في خيانتها · انه سيباغتهما في الحال ويعرفه

اما كلاديس فكانت مستلقية بين ذراعي عشيقها وهي تحلم بانها قد تخلصت من ذاك الذي تعوقها حياته عن اتمام مقاصدها على انها لم تكد تسر بهذا الفكر حتى ذعرت وارتجفت كأنها افاقت من حلم رهيب وقالت قد قضي الامر وقد يكون مات الان حينئذ تقدمت الى جانب النافذة التي كان روسكوف ينام بقربها ورفعت عنها الستائر

— ان طلائع الفجر لم تهاجم للان عساكر الظلام قالت في نفسها فلا يجب ان نفترق ، على انها للحال ارتجفت وصرخت عن غير رشد قائلة ، هوذا الاميرال دوبان ، اهذا ممكن · هل هذا خياله ينتصب الان امامي ، وتقدمت نحو ليونال وايقظته وكان وقع الاقــدام يقترب فصرخت : هذا هو هذا هو ، اقتله ، اقتله

— انك حمقاء ايتها الدوقة سكني روعك

— هذا هو ، هذا هو

وللحال سمع ضربة فأس قوية على الباب كسرته واطــارت شظاياه في وسط الخيمة وبان الاميرال وعيناه تقدحان شررا وقد نظرهما كليهما وتبسم ابتسامة الاحتقار لهما فبهتت كلاديس وجمدت في

موضعها تحت نظرات الدوق القاسية ولم تقدر ان تتقدم خطوة . اهذه هي تلك المرأة التي كان قد تزوجها وصيرها غنية وشريفة والتي كان قد جعل الحياة لها سعيدة ومريحة ? هل هي المرأة ذاتها التي كانت تخون شرفه وتسمم له ? فقال لها

ــ انك ولا شك اشقى بغي وجدت . فان عشقك الجنوني لهذا الرجل لم يجعلك فقط امرأة رديئة بل جعلك ايضا امرأة قاتلة

اما هي فبقيت ساكتة فعاد الدوق وقال

ــ لو اردت لقتلتك الان ولكني لا اريد ان انجس اسمي بذلك . نعم ان غشاوة كانت مسدولة على عيني تمنعني من رؤية حياتك الماضية ولكن هذه الغشاوة تمزقت الان وعرفت ما انت عليه . فهل كنت تنتظرين ان يأخذ السم مفعوله في ?

اما كلاديس فاجهدت قواها وتمكنت من الخروج تاركة الرجلين لوحدهما وسارت تحت جنح الظلام ورغما عن السكوت السائد كانت تتخايل ان الالوف من الناس تتبعها وصوت والدتها وهي على سرير الموت يقول لها .

« ان هذا الحب سيكون بلاء عليك وقصاصا عن ذنوبك وقساوة قلبك فاحذري يا كلاديس »

اه ان هذا الصوت كان يخيفها اكثر من كل شيء . وما زالت متقدمة حتى وصلت الى باب القصر الذي كانت بدأت اشباحه تظهر امام عينيها فدخلت في السلم على انها لم تتقدم بضع خطوات حتى

اجفلت مذعورة روجينا منذهلة امامها وهي تريد الخروج من ذلك البيت المنجس

ــ روجينا ؟

ــ كلاديس ؟

ــ هذا انت التي خنتني · التي بعتني · قالت الدوقة وقد دفعت روجينا من على السلم · انك بعتني · انك خنتني ·

ــ انا لم اخنك ولكني منعت الدوق عن شرب الكأس المسمومة التي اعددتها له وانقذته من الموت مبقية لك ذكرا مؤلما لن يموت

ــ شقية · شقية

ــ لقد قمت بواجباتي وكوني على ثقة من ان الله لا يترك اثما مثل اثمك بدون عقاب

ــ شقية · شقية · قالت ذلك ووقعت على الارض مغمى عليها لا تقدر ان تلفظ كلمة · او ان تأتي بحركة · اما روجينا فبدون ان تتحرك في فؤادها حاسات الشفقة على الدوقة قالت لها · غلبت الان· غلبت على امرك · وللحال اسرعت في الخروج من القصر غير نادمة على عدم الرجوع اليه مع كونها كانت تبقي فيه شطرا من فؤادها ــ هو ــ اسبارنس

وكان الاميرال وروسكوف لا يزالان وحدهما في الخيمة فبعد سكوت قليل قال الدوق

ــ لقد تيقنت ياهذا انك عشيق مدام دوبان · وانك بالاتفاق

معهاً قورتما هلاكي لاسباب لا اعلمها لانك تعرف جيدا ان الدوقة لا تملك ثروة تأمل الحصول عليها بعد موتي فما السبب الذي دفعكما الى دس السم لي ؟

— ياسيدي ان افعال الدوقة ومقاصدها لا تتعلق بي

— حسن انك تبقي كل المسوءولية عليها فقد كنت اود ان تكون هنا لتسمعك آه انك قابض على ارادة وعواطف هذه الخائنة التي تقدر ان تضحيها في وقت الضرورة على مذبح مطامعك وشهاوتك ولكن لا بد لي من ان احمي شرفي وانت تعلم بانه

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

— انا رهين اشارتك في ذلك

— اذن سنلتقي هذا المساء هنا ونتبارز

— والشهود ؟

— نتبارز بدون شهود لان البراز سيكون من نتائجه موت احدنا لا محالة

فارتجف روسكوف لهذا الكلام

— اراك ترتجف ، قال الدوق باحتقار فاياك والهرب لانني اذ ذاك اعلم الحكومة واعتقلك كقاتل

— انا لست بجبان ، قال روسكوف ، وساوافيك في هذا المساء ٠ قال ذلك وهو يأمل التغلب على ذلك الرجل الشيخ

ومضى النهار وروسكوف لم يخرج من غرفته ٠ اما الدوق فكان

قد قضى معظم يومه بقرب ولده اسبارنس يضمها الى صدره ويلاطفها محاذراً ان يكون بانقضاء ذلك اليوم انقضاء حياته وكان متعزيا نوعا بان ابنته الحبيبة ستقترن بمن تهوى وتحب الى ان كان المساء فقصد الخيمة المعهودة في الحديقة حيث وجد روسكوف قائما بانتظاره فقال له وهو يشير الى طاولة موضوعة في وسط الخيمة

ـ لقد اعددت هنا كل شيء يلزم للكتابة

ـ ولم ذلك ؟

ـ لتكتب ذات الشيء الذي اقرأه لك ومن ثم نمضيه كلانا ثم قرأ بصوت جهوري

ـ انني غير اسف على هذه الحياة ، ولذا فانا اقتل نفسي وارجو ان يخفى الخبر تماما

ـ حسن ، قال روسكوف

ـ اذا كنت تستحسن ذلك فاكتب اذن ذات الشيء وامضه وانا امضي ورقتي

ـ وبعد ان تم ذلك في مدة قصيرة كانت في نظر كل من الرجلين بمقام جيل قال الدوق

ـ خذ لنفسك قطعة من هذه الاسلحة ، الواحدة محشوة رصاصا تحمل الموت ، والثانية فارغة

ـ ولكن هذا هو القتل بعينه وليست مبارزة ، قال روسكوف ، وقبلَّ ان يتمكن الدوق من الاجابة على كلامه كان روسكوف قد

أمسك الغدارتين واطلقهما معا على الاميرال ، وللحال سمع طلق ناري رددت صداه كل تلك الغابات والجبال ووقع الاميرال يتخبط بدمه

— خائن ، قاتل ، غادر ، اسبارنس و ··· لد ··· ي العز··يز··ة

هذا كل ما قدر ان يلفظه هذا الرجل الشريف واسلم الروح

حينئذ تقدم الغادر نحو الطاولة فاخذ الورقة التي كان قدامضاها « روسكوف » واعدمها تاركا الورقة الممضاة من الاميرال وسار في طريق القصر حيث التقى بالخدم الذين كانوا قد تراكضوا على دوي الرصاص فقال لهم

— سيدكم قد انتحر

وظل سائرا الى ان صادف كلاديس وهي ترتجف خوفا ورعبا فصرخ بصوت عال

— قد قضي الامر · مات الاميرال

** القسم الرابع **

الفصل الاول

هنالك في قصر اربواز تحت السماء التي كانت الغيوم قد بدأت تتلبد في افقها وفي ظلال الاشجار التي كانت تخلع اوراقها المصفرة لدخول فصل الخريف كان جالسا على مقعد من الحجر مادلين برامون وجوست مسمر . ذلك بعد ان كان قد مضى على هذه الحوادث التي ذكرناها نحو سنتين

وكانت مادلين التي حضرت منذ المساء الى قصر اربواز للتعزي عن موت والدها الشيخ الدكتور برامون ، جالسة بالقرب من جوست مسمر وهو صامت وهي لا تدري ماذا تقول فان تلك السنين مع ما لقيا فيها من المشقات والعذاب كان اهتمامهما بتخفيف مصائب الغير قد انساهما اتعابهما واخيرا اخترقت هي حجاب السكوت وقالت له

ــ وكوتياه ماذا حل به ؟ فانك لم تخبرني عنه شيئا

ــ ان كوتياه هنا وستنظرينه في وقت قريب

ــ وزواجه

ــ اه . الولد التعس

ــ لا شك ان موت الدوق قد اخر ذلك

وحقا ان موت الاميرال الفجائي على ما ذكرنا كان قد احدث اضطرابا زائدا في كل باريس خصوصا في الدوائر العسكرية ولكن الورقة التي وجدت ممضاة باسمه اسكتت كل الافواه المتخرصة

ــ والدوقة دوبان هل عادت فتزوجت روسكوف

ــ نعم وهذا الامر لم يذهلني

ــ مسكينة هي اسبارتس فانني اشعر بحزنها ويوءلمني ذلك فما هو عمرها الان ? ــ

ــ ثماني عشرة سنة

ــ نعم انها لا تزال صغيرة ولكنها قاست كل انواع العذاب والشقاء بعد موت والدها الاميرال الذي لو كان قدر له ان يظل حيا لكانت الان زوجة كوتياه يعيشان هنا تسلية لاحزاني واتعابي انا الذي تصرمت ايامي وهرمت لان السنين التي كانت تترك بمرورها اثارا مضاعفة فوق جبيني فعلت ذلك . اما انت فانك لا تزالين جميلة وفتية ، وكان فوءاده يخفق بسرعة والدموع تجول في عينيه وهو يحاول اخفاءها

ــ هذه حياتي المنقضية التي اتأسف عليها والولد الذي ابكيه ، هو الماضي الذي يهطل دموعي يامادلين

ــ ابك وابك كثيرا فالدموع الغزيرة تطفيء الاحزان

ــ انظري الى الخريف المقبل بسرعة ، تأملي نهاية هذه الاوراق

التي تتساقط مصفرة وذبول الازهار التي كانت تعبق باريجها الفضاء اليس ذلك الشيء من صور الحياة دليلا على وجود الفناء ؟

ـ ان الازهار تذبل الان لتعود بثوب جديد وحياة جديدة ولكن نحن ؟

وكانا قد نهضا عن مقعدهما ومشيا في حديقة القصر الى ان اجتازا مسافة غير قصيرة فقالت مادلين

ـ هل تبقى طويلا في ارابواز ام تعود عما قريب الى باريس ؟

ـ لا بد من البقاء لانني انا طبيب المستشفى الذي اقمته للعجزة

وكانا وهما يتحدثان ويتمشيان قد خرجا من حديقة القصر وتوغلا بين تلك الاحراج فالتفت جوست اليها وقال

ـ ان كوتياه لا يجب ان يكون بعيدا من هنا لانه وعدني بان يعود هذا المساء واذا كان قد ركب قطار مارفاجول فسيكون هنا بعد بضع دقائق

• على انه لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى سمع نباح الكلاب فقال • هذه هي الكلاب التي تنبئنا بقرب وصوله فاصغي يامادلين • وكان الليل يقترب على مهل وبكل هدوء بين تلك الوهاد والنجاد واجراس القطعان التي كانت عائدة من مراعيها وهي تتمايل مثقلة من اوراق الاشجار التي كانت تتساقط مدفوعة بنسيم الخريف كانت نسمع عن بعد فيردد صوتها صدى الاودية ، وكانت السماء قد بدأت تترصع بالانجم الزهر وهناك في وسط جمال الطبيعة كانا واقفين

ينتظران وصول كوتياه واذا بكلبي صيد جميلين ظهرا على رأس رابية فقال جوست

ــ هذا كوتياه واسرع ليلاقي الشاب الذي كان يتقدم حاملا بندقيته على كتفه وممنطقا خصره بحزام مملوء رصاصا وحالما وصل اليه قال

ــ انظر فقد احضرت لك مادلين التي وصلت في قطار البارح فمد الشاب يده اليه وانحنى امامها بكل وقار

ــ كنت حسبت انك في رومية ، قالت مادلين ضاحكة وهي تمد يدها الى كوتياه

ــ ربما اذهب في هذا الشتاء

ــ واين الصيد ، قالت جوست ، فكم احضرت لنا من الارانب والحجال ?

ــ لا شيء — — —

ــ حقا انك لصياد بارع . انظري يامادلين كيف انه يذهب ليقضي يومين في الصيد وهو على هذه الحالة من الاستعداد ويعود الينا فارغ اليدين ولكن الاعجب من ذلك هو انه لا يكاد ينفرد في البرية الا ويطرح بندقيته جانبا ويجلس في ظلال الاشجار بين الصخور والادغال مفكرا متأملا ولهذا تريني لا اقلق كثيرا حينما يتاخر لانني اعلم اين يكون

وهكذا كان الثلاثة يتقدمون نحو القصر الذي كان زمبا واقفا

على بابه الخارجي ينتظرهم فقال

ــ حضر تلغراف باسم كوتياه

فاضطرب الشاب ومد يده فاخذ من زمبا ورقة صغيرة اضطرب لاجلها اولا · ثم لم يكد يقرأ كلماتها القليلة حتى ظهر البشر فوق جبينه

ــ يدعونك الى باريس ؛ قال جوست

ــ نعم سيدي

ــ احد رفاقك في التصوير ؟

ــ كلا قال ذلك ودفع التلغراف الى جوست فقرأ فيه ·

« انتظرك الساعة الثالثة من بعد ظهر الاثنين في حديقة التولري قرب مجرى الماء » (اسبارنس)

ــ مسكينة هي نانني اشعر معها من كل فوادي ؛ قال جوست ، فاحذر يا كوتياه ولا تنس ان الدوقة دوبان الجميلة هي والدة اسبارنس وانها بالاشتراك مع زوجها الجديد روسكوف سوف يصرفان كل ثروة اسبارنس التي تركها والدها الدوق

وماذا يهمني من ذلك الم تقل انت لي ان المال المكتسب من وراء الجهد والاجتهاد هو ما يشرف الانسان ؟ فانا سوف اعمل بهذا القول

ــ نعم وانا اعيد ذلك عليك الان ايضا وفوق هذا هل نسيت دخل المائة الف فرنك السنوي التي خصصتها لك منذ يوم زواجك · فليست ثروة اسبارنس ما تطمح اليه ولكنني احذرك من النفوذ الذي

سوف يسعون للحصول عليه لتعمل بما يريدون · على انني لا اقلق لذلك وانا محتاط للامر وانني اعرف ان مقاولا يدعى بنسوا لا يزال يلاحقك لتعمل بارادتهم · فاحمر وجه كوتياه وقال

— قد عرفت اشياء كثيرة كنت اود ان اخفيها عنك لاحتقاري اياها وانني لاخجل من ذكرها

— لو كنت تعلم ياولدي العزيز كم انا متعب من هذا الارث الذي تركه دكسون بين يدي · انك تقدر ان تداعي به وانا اعدك بانني لا اقاوم ابدا · ورغما عن كل الاعمال العظيمة التي قمت بها اتماما لارادته ورغما عن الاموال الطائلة التي صرفتها في هذه الغاية فان قيمة الثروة الاصلية لا تزال كما كانت فاسلمك اياها اي وقت اردت

— اه · قال كوتياه والدمع يترقرق في عينيه · لا اود ان اسمع منك هذا الكلام · ولا اريد ان افتكر بمثل ذلك

— لو كان الامر متعلقا بك لما ابقيت هذه الثروة بين يدي دقيقة واحدة وكل ما اشترط على تسليمها هو القيام بهذه المشاريع التي قمت بها طبقا لارادة المورث العظيم · ولكن هنالك تلك العائلة الخائنة العائلة اللعينة القاتلة · روسكوف وكلاديس ، هذان المخلوقان اللذان لا اريد ابدا ان يتمتعا بملايين دكسون

— ان جوست لعلى صواب ، قالت مادلين

— ان كل شيء هو لك يا ابت وانت تعلم جيدا ان لا حق لي

بشيء فانا لست ابن المحسن العظيم الذي ذكرته ، وانت تعلم انني ولد هذا الشقي روسكوف وانه هو سبب الشقاء لوالدتي وعلة تعاستي

ــ اذن انت غير سعيد

ــ كلا انني غير سعيد · ان حداثتي كلها كانت تعاسة وشقاء ومع ذلك لم اكن في وقت من الاوقات اتعس حا لاواشقى من اليوم الذي عرفت فيه بالسر الذي يربطني بروسكوف ، ان سوء حظي قد ربطني بهذا الشقي · وهذه التعاسة لا تزال ترافقني وانا لم اسع لوجود اسبارنس انما الصدفــاوقعتها في طريقي لتثير في قلبي الاحزان · اننا دون ان يسعى احدنا لوجود الاخر قد التقينا ، اه لو كانت تعلم تلك الحزينة التعسة باوجاع فوءادي

ــ انك لا تزال تحبها

ــ وكيف اسلوها ؟

ــ اذن انت لا تخاف من والدتها · لا تخاف الاندغام مع هذه العائلة ، لا تخاف ان تكون واحدا منهم

ــ انني سوف اترك فرنسا مع اسبارنس

ــ تتركني اذن ، قال جوست بحرقة ، وتنسى الذين يحبونك ، هذه هي الحياة ، نعم انا لا الومك فانت بذلك تخضع لشريعة الكون القاسية ، شريعة الحب التي تفرق الاولاد عن والديهم وبعد سكوت قليل مال نحو مادلين وقال

ــ كم انت سعيدة لبقائك عزباء · قد تكونين فيما لو تزوجت

رزقت اولادا لتقاسي غصص الفراق ، كم هم سعداء الذين لا يربطهم احد في هذا الكون

ــ انك لا تقول بما تعتقد ياجوست ، قالت مادلين

ــ نعم انا اقول بما اعتقد تماما · انا اخاف العالم وطالما كرهت البشرية

ــ ومع ذلك فانت تسعى بكل قواك لراحتها ، انك تبذل الاموال الطائلة وتضحي سرورك وصحتك وفوق ذلك فانت تضحي حياتك تخفيفا لويلاتها وسعيا وراء راحتها ، اليس ذلك حقيقة ؟ لماذا تصور نفسك شريرا وانت على غير ذلك ، كل هذا لانك تصورت كوتياه قد ذهب عنك بعيدا ، كل هذه بعض عبارات قالها مدفوعا بعامل الحب والقنوط · وقد تصورته وصل الى الاقطار البعيدة حيث لا يعود . انه سوف يجد دوما قصر اربواز والى هذا القصر سيحضر هو وابسبارنس ليحباك ويكرماك

وكانا وهما يتكلمان قد دخلا احدى غرف القصر · اما كوتياه فكان قد تركهما مفكرا باسبارنس

ــ اصغي قال جوست لمادلين وهو يتقدم نحوها · ان اقتران كوتياه بمدموازال دوبان يرعبني

ــ ان مدموازال دوبان مجملة بكل الصفات الحميدة

ــ انا اعلم ذلك ولا اشكوها مطلقا بل بالعكس تريننى ارثي لحالها وكم كنت اشتهي لو كانت يتيمة · فانت تعلمين يامادلين ما

هي الرواية التي تربط كوتياه بروسكوف وتعلمين ايضا كم كنت احب الدوقة وكم اكرهها الان · ولكن ما تجهلينه هو الرواية الراعبة التي تتمثل في ذلك البيت فان هناك امورا لا اقدر ان اقولها لكوتياه ولكن لا مانع من ان اقولها لك

— انا اصغي لما تقول

ولبث جوست صامتا ينظر الى الشمس وهي تغيب تاركة وراءها في الافق اثرا ارجوانيا والنجوم قد بدأت ترصع وجه السماء والقمر يتخطر تيها في خلال الغمام تارة يحتجب وطورا يظهر ويرسل اشعته على الحقول والرياض

— تكلم فانني مصغية · اعادة مادلين

— نعم في وسعي ان اقول لك كل شيء افلست صديقة مخلصة يامادلين ؟

— انا صديقة بل شقيقة ياجوست فماذا تريد ان تقول ؟

— لا اعلم يقينا ما اريد ان اقوله ولكنني اشك به

— اه يا الهي

— ولكن بعد انقضاء بضعة ايام قد تحققت شكوكي فان تحارير روجينا كانت الى الان كالمعميات ولكنني قدرت ان افهم منها بعض اشياء كنت ارتاب فيها منذ زمن طويل ، فانا اعتقد يامادلين انه قد تشخص في ذاك البيت بين الاميرال وكلاديس وروسكوف رواية مؤلمة

ــ كل هذه الشكوك ليست الا تخيلات ياجوست

ــ قبل مقابلة روجينا لا اقدر ان اجزم بشيء · ومع ذلك ليس في العالم قوة تقدر ان تنزع مني الاعتقاد بان جريمة قد وقعت في قصر الدوق دوبان

ــ ذلك مخيف ولا يمكن ان يكون

ــ لا الومك على ارتيابك فانت لا تعرفين الا الفضائل

ــ ولكن ما هي هذه الجريمة ؟

ــ ان الدوق كان يعوق ، قال جوست ببرودة

ــ يعوق ماذا ؟

ــ امرين جوهريين · اولا ان روسكوف كان عشيق الدوقة وثانيا كان من الضروري تأجيل زواج كوتياه واسبارنس · فبشفاء الدوق فسدت خطتهما ولم يبق كوتياه الة في ايديهما

ــ انا لا افهم ماذا تريد ان تقول

ــ اذن انت يامادلين لا تعرفين كلاديس وروسكوف · العاشق والمعشوقة فساشرح الحالة لك · كان قصدهما ان يدفعا كوتياه للمطالبة بورثة دكسون ليصبحا ارباب هذه الثروة الطائلة ويجعلا اسبارنس الثمن لذلك على ان الدوق كان قد قرر زواج ابنته بوقت قريب فلكي يحولا دون ذلك وقعت رواية محزنة على ما اعتقد وكانت نتيجتها جريمة احب الوقوف عليها وقد اصبحت انا الان العائق الوحيد دون اتمام مقاصد هذين الخائنين لذلك اتوقع منهما كل شيء

فجرى العرق باردا فوق جبين مادلين وظهرت علائم الاضطراب عليها وقالت انك تخيفني بهذا الكلام

ـ كما تعلمين يامادلين لا قيمة للحياة عندي ولكنني لكي أحول دون اتمام مقاصد هذين الخائنين لن ادعهما يفتكان بي كما فتكا بالاميرال · انك ترينني لا احاذر المجاهرة بما اعتقد وعما قريب اقابل روجينا سواء هنا او في باريس وارغمها على الاقرار لي

ـ وهل تنتظرها ؟

ـ نعم

كان قد مضى وقت طويل على مادلين دون ان تنظرها ولكنها كانت تذكرت ذلك الوجه الملائكي يتنقل بين عربات جرحى الحرب وكانت تتصور هذه الابنة اللطيفة منحنية فوق اسرة الجرحى والمرضى تشجعهم وتعزيهم بصوتها الملائكي وكلامها العذب · فان كل تذكارات الاهوال كانت لا تزال مطبوعة فوق مخيلتها · وانها في وقت تلك المصائب كانت قد وجدت جوست وهو ملقى بين حي وميت في نزل شارع الامبراتريس حيث تصورت والدها الشيخ مكبا فوق وسادة جوست الذي كان كمن يجود بنفسه

نعم ان المريض بقي حيا والطبيب قد مات ، ولدى هذه التذكارات تقاطرت الدموع من عينيها سخينة

ـ لماذا البكاء يامادلين ؟ قال جوست

ـ ان اسم روجينا يحرك في تذكارات كثيرة فاني لم اكن قد

عرفتها في وقت الحصار الهائل وعرفت طيب قلبها · الم اكن في ذلك الوقت قد عدت فوجدتك بعد ان كنت قطعت الامل من الاجتماع بك ؟ نعم هذه التذكارات هي التي تسيل دموعي —

— نعم الحصار

— وسوف ترى روجينا فهل هي قادمة الى هنا ؟

— انا ارجو ذلك فقد اخذت رسالة منها في هذا الاسبوع ولكن لا اعلم في اي وقت يكون قدومها

— اما هي باقية في خدمة الدوقة دوبان ؟

— كلا · فقد اشعرتني بتركها الدوقة دوبان غير انها لم تطلعني على السبب وكل ما ذكرت في هذا الصدد هو انها تركت الدوقة دوبان وانها لن تعود ابدا

— واين هي الان ؟

— كانت اولا قد سكنت في لورد ثم حضرت الى باريس وانا على يقين من انها لم تفعل ذلك الا لتكون بقرب اسبارنس

وبينما هما يتجاذبان الحديث قرع الباب ودخل كوتياه

— انني ذاهب ياوالدي الى باريس في هذا المساء

— واي قطار تأخذ ؟

— قطار نصف الليل

— فليكن الله حارسا لك

— انت تعلم سبب ذهابي لذلك ارجو عذرك لاضطراري الى

مغادرتكم بهذه السرعة ، ان اسبارنس تدعوني ولا شك لحادث مهم وانا اعرف كم هي تعسة

ــ اذهب ياولدي العزيز وبحراسة الله

الفصل الثاني

ركب كوتياه قطار نصف الليل قاصدا باريس · تلك المدينة التي كان يخفق لها فوءاده لان فيها مالكة فوءاده ، وترك جبال السافان حيث كان يتمتع في خلواتها بالذكرى الجميلة التي كانت تشغل افكاره دائما ــ ذكرى اسبارنس ، وما كاد يصل الى باريس وياخذ قليلا من الوقت لتبديل حوائجه وتناول الطعام حتى اسرع الى حديقة التولري ــ تلك الحديقة التي كانت بــدأت تقفر تحت نسمات الخريف وكانت السماء متلبدة بالغيوم والجو مكفهرا واوراق الاشجار المتساقطة فوق الارض تزيد المكان رهبة ووقارا ومنظر الطبيعة على تلك الصورة يذكره بتلك الليلة الهائلة في جبال البيرانــاه وبتلــك الحوادث التي كانت قد ابعدته عمن يحب · كان قد مضى سنتــان على تلك الحوادث جرى في خلالهما حوادث مدهشة في قصر الدوق دوبان · فان كلاديس رغما عن تظاهرها بالحزن على الدوق دوبان تزوجت روسكوف الذي كانت جمرة الحب في فوءاده قد خمــدت

وكل ما كان يرجوه من الزواج هو امتلاك كوتياه بواسطة اسبارنس الا ان هذا الشاب رغما عن محبته الشديدة لها قد اختصر زياراته لهـا احتراما لحزنها على والدها وعما كانت تكابده من الاحزان والاكدار وكان وهو يفكر في هذه الحوادث يقترب من مجرى الماء ويظهر امام عينيه رصيف نهر السين مقفرا

ـ لم تصل اسبارنس بعد والساعة تدق الاثنتين ونصف ولا بد من الانتظار . وكان فوءاده يخفق بسرعة وهو لا يجسر على الافتكار فيما اذا كانت ستحضر منفردة وهكذا وهو في هذه الحالة المقلقـة رأى امرأة تتقدم مسرعة من بعيد وملابسها سوداء

ـ اسبارنس !

ـ كوتياه !

سوية قد لفظا هذين الاسمين بفرح وسرور وهمـا ينظران الى بعضهما ولا يعلمان ماذا يقولان

الان اسبارنس في التاسعة عشرة من سنيها فاصبحت غير تلك الفتاة الزاهية التي عرفناها في قصر سان سافان وغير تلك الابنة اللعوبة انها الان انسة مجملة بجمال الطلعة ورشاقة القـد . وتلك الحوادث الرائعة وما جاء بعدها من الامور المدهشة قد اكسبت هيئتها الضحوكة رزانة مقرونة بالحزن وعبوسة ممزوجة بالكمال وبثوبهـا الاسود قد ازدادت جمالا في عيني كوتياه فلم يكن ليقوى على تحويل نظره عنها ولو لحظة ثم قال لها

ــ هل انت سعيدة ايتها العزيزة ؟

ــ سعيدة ؟ قالت بابتسامة تمازجها الاكدار · سعيدة لانهم يريدون ان يبعدوني عن كل من احب · لقد ابعدت عن والدي الى الابد · وابعدت عن روجينا العزيزة ، وربما ابعدت عنك في الوقت القريب

ــ ماذا تقولين ؟

ــ اقول · انه يجري الان حوادث مهمة ومن الضروري يا كوتياه ان تقابل والدتي في هذا النهار لان روسكوف يريد ان يزوجني من رجل امريكي يعرفه جيدا · وهذا الرجل سوف يصل الى باريس في الاقرب من الوقت

فظهرت على وجه كوتياه دلائل الاضطراب وعرف ان هذه هي بداية المعركة التي ستتلظى بينه وبين روسكوف وقال ، سوف اذهب لمقابلة والدتك في الحال

ــ لهذا السبب قد استدعيتك يا كوتياه فانا لا اقوى على مقاومة هذا الرجل الذي يسحق فؤاد والدتي كل يوم

ــ ولكن لماذا يؤجل زواجنا من وقت لوقت ؟ لماذا التأخر يا اسبارنس ؟ لماذا ؟

ــ هم يعرفون ذلك · اما انا فلا اعرف له سببا · ان حياتنا البيتية كحياة من في جحيم · يتغيب روسكوف غالبا عن البيت ووالدتي دوما منفردة · وكم شاهدت اثار الدمع بادية فوق وجنتيها · تلك

الدموع المنسكبة في خلواتها . نعم ان والدتي قد اهملتني مرارا . ولكن هي والدتي على كل حال ولا يجوز ان انساها

ثم اخذا يتمشيان في ممار الحديقة وهما ساكتان . وكانت شكوى الابنة اقرارا بان كلاديس غير سعيدة ونبوءة والدتها بدأت تتم . وبعد هنيهة قال كوتياه

— حسنا صنعت باستدعائي فلولا ذلك لبقيت في قصر اربواز الى نهاية الفصل وربما الى ابعد من ذلك لانني مديون كثيرا للمحسن أبي وهو بانفراده هناك في حاجة الى وجودي بقربه

— ان روسكوف يكرهه كثيرا

— انا اعلم ذلك

— ووالدتي تكرهه ايضا

— ذلك لا يهمنا لانني انا اعبده . وسوف تحبينه انت ايضا ولا شيء يقدر ان ينتزع من فوءادينا عاطفة الاعتبار والمحبة له . اننا هناك في قصر اربواز تقدر ان تلمس السعادة حيث نكون سوية دون افتراق فكم تكون الحياة جميلة

— انني لا اجسر على الامل اللذيذ ، قالت وصوتها تقطعه التنهدات الامل بان نكون حيث لا نفترق ، ان اعيش معك في جبال السافان . تلك الجبال التي تذكرني بجبالي العزيزة جبال البيراناه . ان ابتعد عن هذا الجحيم الذي اعيش فيه من زمن طويل

— انني اعبدك يا اسبارنس ولا شيء يقدر ان يفرقنا

ــ اه ياكوتياه اننا لا نعرف ما يخبيء لنا الغد · فلو طالت حياة والدي لتقرر زواجنا · ولذلك تراني اخاف ياكوتياه ،اخاف فلا تلمني

ــ انا يا اسبارنس لا اخاف ابدا وانني واثق من المستقبل ، ولماذا تخافين وانت مدركة الان والرجل الذي كنت تكرمينه في هذه الحياة قد مات

وكانا لا يزالان منفردين على ذلك الرصيف حيث كانت الاغصان تهتز والهواء الذي بدأ يبرد وهو يحمل معه روائح الازهار والاشجار ، والشمس وهي تحتجب وراء الافق كانت تترك ذيلا ارجوانيا يزين الفضاء

ــ ارى الوقت يذهب سراعا ، قالت اسبارنس

ــ هي الساعة السابعة

ــ لقد تركت خادمتي في سان جرمان ، قالت اسبارنس ويجب ان اعود لموافاتها

ــ اي متى اراك ؟ قال كوتياه

ــ غدا في نزل ميات حيث تحضر لمقابلة والدتي

ــ اذن الى الغد

ــ الوقت هو التبر ، قالت الابنة ، وروسكوف رجل مخيف ولا شيء يحول دون اتمام مقاصده

ــ اعلمي ياعزيزتي ان لدي معلومات مهمة كنت احب ان لا اطلعك عليها لولا ان الظروف تقضي بان تعرفيها الان فانا اتوقع حربا

عوانا بيني وبين روسكوف

فاصفرت الابنة اما هو فتابع حديثه قائلا

ـــ هي مسائل شخصيـــة كنت اود الا اطلعك عليها فـــاصغي يا اسبارنس . ان روسكوف لا يريد ان يمنحني يدك الا على شرط

ـــ وما هو هذا الشرط ؟

ـــ يريد مني ان اطالب بارث يقال ان لي الحق به

ـــ اذن قد هلكنا

ـــ تشجعي فسوف نربح المعركة

ـــ ليس في العالم من يتغلب على روسكوف ودهائه ويظهر انك لا تعرفه جيدا فظهرت ابتسامة معنوية على وجه كوتياه وقال

ـــ قد تكونين مصيبة يا اسبارنس ولكن ليكن لنا ثقة بالمستقبل

ـــ نعم ان ثقتي بالمستقبل عظيمة ، قالت وقد وقفت امام كوتياه ولهذا السبب رغبت في مقابلتك ، من يعلم ماذا سيحل بي ، من يعلم الى اي مكان يبعدونني ؟ انهم يقدرون ان يأخذوا الثروة التي تركها لي والدي ، وانا اعرف ـــان روسكوف سوف يبذر ثروتي الخصوصية كما بذر ثروة والدتي ولكن ذلك لا يهمني ، فهو يقدر ان يأخذ ثروتي ولكن ليترك لي حريتي ، اننا نقدر ان نعيش كلانا سعيدين ، اننـــا بالمستقبل العظيم الذي ينتظرك وبالحب والاخلاص اللذين اقدمهما لك نقدر ان نكون سعيدين

وكانا وهما يتحدثان قد اجتازا الحديقة ومرت من امامهما عربة

اوقفتها اسبارنس وصعدت اليها بعد ان تأكدت من كوتياه حضوره لمقابلة والدتها في الغد

ــ الى اين تريد سيدتي الذهاب ؟ قال السائق

ــ الى سان جرمان

فبقي كوتياه في مكانه الى ان توارت العربة عن عينيه وحينئذ تقدم في طريق الشان اليزاه وبينما هو يقطع فسحة الكونكورد مرت من امامه عربة جميلة عرف فيها روسكوف وكانت جالسة بقربه امرأة صبية مرتدية حلة ثمينة

ــ لم تكن كلاديس

وكان بالقرب منه بعض المارة وقد سمعهم يقولون

ــ ان روسكوف مع بدر من بدور الاوبرا

ــ هل تعرفها ؟ سأل احدهم الاخر

ــ نعم

ــ وما اسمها ؟

ــ كازال

ــ ومع ذلك ،قال الاخر ، ان صيتها لا عيب فيه

ــ صبية في السابعة والعشرين من سنيها

ــ انك لعلى خطأ قال رفيقه لاننا لو صدقنا اقوال الجرائد المطلعة على تاريخ حياتها لوجدنا انها فوق سن الثلاثين

ــ هي زهرة الصبوة ، ويقال ان روسكوف الذي تزوج الدوقة

دوبان ، تلك المرأة التي كانت موضوع حديث الدوائر العليـا في باريس لسنين عديدة بالنظر لجمالها ولطفها وظرفها . هو عاشق الان هذا الكوكب الساطع

— اه ، قال كوتياه في نفسه ، هذه هي بداءة قصاص الدوقة ، ثم تقـدم في طريقـه نحو شارع الامبراتريس حيث ظل روسكوف ومعشوقته الجديدة في طريقهما نحو البوليفار

الفصل الثالث

لم يمض على زواج روسكوف بضعة اشهر حتى بـدأ يشعر بالوحشة من تلك العيشة المنفردة فارتمى مع تيار العالم الواسع مبذرا مسرفا من تلك الاموال الكثيرة التي خلفها الدوق مابين النساء والمقامرة والسباق ، ان المسرات كانت مبتغاه وقد اقتنى اسطبلا لخيل السباق واوجد له في كثير من انحاء باريس بيوتا يختلف اليها حيث ينتظره فيها معشوقات من ذوات الزهو واللهو وهكذا كان قد بـدد معظم ثروة كلاديس وبواسطتها تسلط على ثروة اسبارنس الخصوصية التي كانت قد انقادت لرغائبه ورغائب والدتها فرارا من الخصام وطلبـا للسلام وهكذا اصبحت تحت رحمتهما

وكانت كلاديس تحاول المرة بعد الاخرى مقاومة تصرفاته

و كان هو يصدها بقسوة وخشونة ، الا انها كانت ترضى مع هذه الحالة ببقائه في المساء بقربها وتغمض عينيها عن نقائصه وبذخه · على انه لم يكن في امكان روسكوف الذي كان قد ارتمى في مهاوي الخلاعة والبذخ والاسراف ان يعود الى الحكمة والرشاد ويضع شكيمة لاميالة لذلك كانت كلاديس قلما تراه الا على المائدة وكان قد اكترى لوجا خصوصيا في الاوبرا يذهب اليه كل مساء وفي ذات ليلة كانت كلاديس منحرفة الصحة وغير قادرة على الذهاب برفقته فرغبت اليه البقاء بقربها اما هو فرفض بنفور قائلا

— انا لا احسن صناعة التمريض ولا بد من الذهاب

— اذن خذ اسبارنس برفقتك

— لا ياوالدتي ، انني في حداد وسوف ابقى بقربك ، قالت الابنة

— حسنا فساذهب وحدي ، قال ذلك وودع كلاديس وهم بالخروج

— هل لا تاخذ عربة ، قالت كلاديس

— لا فالطقس جميل وساذهب ماشيا ، قال ذلك وخرج

ولكن هذا الامر اقلق كلاديس ، وكان قد مضى سنة ونصف على ابدالها لقب الدوقة دوبان بلقب مدام روسكوف وتعلمت في هذه المدة ان تعرفه تمام المعرفة ولكن رغما عن كل تصرفاته المغايرة كانت لا تزال منقادة اليه بروح الحب المبرح فلاجله ضحت ثروتها كلها وابتدأت بتضحية ثروة ابنتها وكانت ترى الهاوية امامها ولاتنظر

في عمقها ولا ماذا سوف يحل بها وبولدها متى ضاعت تلك الثروة الطائلة التي خلفها الدوق دوبان ، وفوق ذلك كانت ترى ان ارباب المقامات والاشراف الذين اعتادوا ان يكونوا طلاب رضاها يوم كانت زوجة للدوق دوبان قد بدأوا يعرضون عنها وابواب الدور الفخمة صارت جميعها مغلقة في وجهها الا انها مقابل ذلك كانت تنظر الى روسكوف وبمجرد اعتقادها انه لها ترضى به بدلا من كل شيء اخر ، لانها كانت بحاجة الى هذه المحبة التي تعتقدها حقيقية لتخفف بواسطتها عذاب ضميرها لدى تصورها جثة الدوق ملقاة هامدة على الحضيض بيد عشيقها . وطالما كانت تحاول ان تنزع هذه التصورات من مخيلتها لانها كالنار الآكلة تحرق فؤادها ، وهكذا كانت في ذلك المساء بعد ذهاب روسكوف الى الاوبرا ودخول اسبارنس الى غرفتها الخصوصية فبقيت منفردة امام شبح الدوق وتصورات ماضيها المزعجة وهي منذهلة عن كل حركة تلاعب شعرها الذي كان يتموج كاسلاك فضية باصابعها النحيلة ولا تفيق من غفلتها الا على دقات الساعة المعلقة في الحائط . وبقيت كذلك والساعة تتلو الاخرى الى ان دقت العاشرة وكانت لا تزال الى ذلك الوقت ترجو ان يعود روسكوف بعد الفصل الاول الى قربها ليسليها ويلهيها عن متاعب ضميرها . حينئذ نهضت غاضبة وطلبت الى خادمتها ان تامر باحضار عربتها وخرجت مرتدية حلة بسيطة سوداء

ــ الى اين تأمر سيدتي ? قال السائق

ــ الى الاوبرا

ــ هل سيدتي تريد انتظار سيدي ؟

ــ نعم اذهب

وحال وصولها الى الاوبرا نظرت الى لوجها فوجدته فارغا ، فارتجفت وظنت ان روسكوف ذهب للقائها ، وتصورت كيف تكون حالته اذا صدق ظنها ولم يجدها غير انها ارادت ان تستوثق من الامر قبل ذهابها فصعدت الى لوجها وطلبت من الخادمة ان تفتحه سائلة اياها عما اذا كان المسيو روسكوف قد ذهب

ــ كان هنا منذ بضع دقائق فقد يكون دخل الى محل المشخصات

فاصفر وجه كلاديس حالما سمعت ذلك وقطبت حاجبيهــا وقالت بغضب ــ سوف يعود اذن فسانتظره

ــ من المقرر انه سيعود ، قالت الخادمة ،لانه لا يذهب عادة الا في اخر الجميع خصوصا في هذه الاونة ولدينا راقصة تخلب الالباب وتجلب الى الاوبرا جميع سكان باريس ، قالت ذلك والقت نظرة ازدراء على كلاديس التي كانت قد دخلت اللوج والقت يدها على جداره فاستلفتت الانظار وتحولت نحوها الافكار فانها كانت لا تزال بشعرها الاسود الكثيف وعينيها اللامعتين وبشرتها النقية فراقها هذا الامر وقالت في نفسها ،لا ازال اذن جميلة وبينما هي تنتظر روسكوف سمعت في خلال الفصل من اللوج الذي قربها رجلين يتحدثان قال الاول

ــ ان دور الرقص سوف يكون جميلا لان الراقصة مبدعة

ــ اه ، قال الاخر ، انها كانت ترقص قبلا في الازقة

ـ هي ابنة رجل دنيء ، قال الثالث ، فقد ولدت على ما يقال في عربة ، ان كازال غير متكبرة ولا مدعية فهي تسرد تاريخ حياتها لكل من يسأ لها ذلك

ـ ومن اطلعك على هذا الامر ؟

ـ احد مخبري الجرائد

ـ اذن تتدخل الجرائد لتعرف من اي البلاد هذه النجمة الساطعة التي تخلب الالباب وتبهج الخواطر ، هذه الحورية التي ليس فيها شيء غير الجمال وهي بوجهها الشاحب كالصفارة وعينيها السوداويين اللتين تضيئان تحت حاجبين كالاسياف وفوق عنق ركب على صدر مملوء هي الجمال بعينه

وكانت كلاديس وهي متكئة في لوجها تسمع هـذا الكلام باصغاء وكانت المدة التي تتخلل الفصول قد انتهت وتسارع الحضور للجلوس في مقاعدهم وهم يتحدثون عن الراقصة الفتانة ويذكرون اسمها ـ كازال ـ فبهتت كلاديس لهذا الاسم الذي شعرت بانه لم يكن غريباً عنها ولمجرد افتكارها اين كانت قد سمعته تزايدت نبضات قلبها وصعد الدم الى وجهها وهزت راسها استخفافا بتلك الجماعات التي كانت تتسابق لمشاهدة راقصة وبالجرائد التي كانت تملأ اعمدتها من الكتابةعنها ، وبينما هي تجيل نظرها في جوانب القاعـة رأت روسكوف خارجا من وراء غرف المشخصين وقد دخل لوجا بالقرب من المسرح وتبعه رجلان ودخلت بعدهما بائعةورود اخذ منها روسكوف

ضمة جميلة ووضعها امامه ، اما هي فما كادت ترى ذلك حتى علا الاصفرار وجهها وتراجعت الى موخر اللوج لكي لا يراها احد ، الا انها ظلت مراقبة بنظرها روسكوف الذي لم يلتفت الى جهتها · وما كادت تنقطع اصوات الموسيقى حتى ظهرت كازال على المسرح كحورية هبطت من الغمام فتطاولت اليها الاعناق واتجهت نحوها الابصار فتتبعت القلوب خطواتها وهي برقصتها الساحرة وعينيها الجميلتين وغنجها ودلالها تمتلك العواطف وتسحر القلوب اما كلاديس فكانت قد جمدت في مكانها وفي تلك الساعة تذكرت كلمات والدتها القائلة

« ان هذا الرجل سيكون ويلا عليك وسببا للاقتصاص من ذنوبك فاحذّري ياكلاديس»

فارتجفت كل اعضائها لدى تخيلها والدتها قائلة لها هذه الكلمات ووضعت يدها في اذنيها كمن يريد ان لا يسمع شيئا

ولكن ذلك الصوت لم يكن في اذنيها · انه صوت الضمير المعذب بالخيانة · انه صوت الدوق دوبان يصرخ فيه قائلا : لعينة، خائنة ، قاتلة

فتراجعت من امام ذلك الصوت مذعورة مرتجفة ونظرت وهي متراجعة روسكوف يصفق بحدة للراقصة الساحرة ويطرح امام قدميها الورود والازهار فعرفت حقيقة الحب الذي كان بدأ يشغل قلبه وخرجت من اللوج تقصد عربتها مضطربة قلقة لان ساعة القصاص

قربت وبدأت تشعر بها ، فكيف تقابل روسكوف وماذا تقول له قبل توبيخه كانت تريد ان تسمعه يتكلم لانها كانت تخافه ، كانت تخاف غضبه وتعتقد ان حبه لهذه الراقصة لن يدوم الا كورق الورود ، وسوف يعود روسكوف قريبا فلا بد لها من تصليح مظهرها فالساعة كانت الحادية عشرة والاوبرا سوف تنتهي قريبا،وهكذا ارتمت فوق كرسي كبيرة قرب نار متأججة في مخدعها تترقب الدقائق وتتنصت لاقل حركة ، وكانت الدقائق تمر سراعا وبصرها يتبع عقرب الساعة المعلقة في الحائط وقلبها يخفق مع رقاصها واذناها تسمعان دقاتها الاثنتي عشرة ترددها اجراس ساعات الكنائس المجاورة فتتصورها دقات جنازة حبها

نعم ان نار الغيرة كانت ترعى فوءادها وهذا الرجل الذي كانت ارتبطت معه وتلقبت باسمه تحت افظع الوسائط يزيد في عذابها بعدم حضوره . وبقيت كذلك الى ان دقت الساعة الثانية صباحا وحينئذ نهضت الى النافذة واطلت بنظرها فزادها الهواء العليل قلقا والنسيم البليل اضطرابا فعادت وارتمت فوق سريرها كئيبة حزينة ثم صرخت بحدة وغضب

« انني مجنونة . ان ليونال لا يقدر ان يحب سواي وانا امرأته »

«وان روابط متينة تربطنا سوية انني ممسكة به وعالمة اسراره »

الفصل الرابع

بينما كانت كلاديس تفكر في رجوع من تعبد · كان ليونال يتقدم بالقرب من مسكن جميل تحيط به الحدائق والاشجار في شارع باسي تسكنه كازال التي كان قد اوصلها اليه وراقب دخولها واختفاءها وراء جدرانه فعاد على مهل نحو شارع ميات حيث كانت كلاديس لا تزال بانتظاره

ـ ليونال ··

فنظر اليها بدهشة وقال

ـ لقد نهضت الان ؟

ـ انني لم انم بعد

ـ وهل كنت في انتظاري ؟

ـ نعم كنت في انتظارك

ـ ذهبت الى الاوبرا كما اخبرتك ومن ثم توجهت مع بعض الرفاق الى السركل

ـ وهل كنت في اللوج ؟

ـ واين تريدين ان اكون ؟

ـ انت تكذب

ـ اه ايتها العزيزة هل تسعين لايجاد سبب للخلاف ؟ ان هذا

ولا شك يسرك ولكنني اقول لك انني على غير استعداد لذلك

ــ وهل خسرت في المقامرة ؟

ــ ان لم يكن الا هذا

ــ انا اعلم ان هذا لا يهمك وانك لا تبالين بحالتنا

ــ انا لا انظر الى بضع مئات من الفرنكات لو لم يكن الا هذا ،

فاتقدت عينا كلاديس بنيران الغضب وقالت ان لم يكن الا انك وقعت في اشراك امرأة لا تعير حبك انتباها ، فمن هي ؟

ــ اريحيني من كل تخيلاتك

ــ تخيلاتي ؟

ــ نعم لانك لا تدرين ماذا تقولين

قد كنت في الاوبرا ونظرتك في اللوج المحاذي للمسرح

ــ اراك قد استعلمت جيدا فانني اهنئك بذلك

ــ كنت انت هناك تنظر عن قرب تلك الراقصة الخالعة الحقيرة الملتقطة من الازقة

ــ وبعد هذا ؟

ــ انك لا تنكر هذا ، قالت بحدة وغضب ، انك، لا تنكره .

ــ واي نفع لك من الانكار

ــ انك لا تقول لي كلمة ترضية ، كلمة عطف ، كلمة ندامة ،

ــ انك امرأة متعنتة غيرى

ــ متعنتة غيرى لانني ادافع عن حبي ، اليس لي الحق بذلك

بعد ان ضحيت في سبيلك كل شيء ؟

— اراك تعودين الى ذكر ثروتك ، الم نصرفها سوية ؟

— وثروة اسبارنس هل نسيتها ، الم اجعل ابنتي فقيرة في سبيل مرضاتك ؟

— انك لم تصنعي الا الواجب

— وماذا يحل بهذه الابنة بعد تبديد ثروتها ؟

— سوف تتزوج برجل امريكي انتخبته لها او تقترن بكوتياه ٠ لانني اريد ان اتخلص منها

— رجل امريكي ، انني لا اصدق كلمة مما تقول ، وانني اعتقد ان هذا الامريكي لا وجود له الا في مخيلتك تقول هذا لتعجل زواجها من كوتياه وانا اوءكد لك انهما لايطلبان خيرا من هذا الامر

— احقيقة ؟ قال روسكوف بضحكة معنوية ارجفت كلاديس، اصحيح ان هذا الامر يسرهما ؟ ولكن قبل موافقتك على هذا الزواج يجب على كوتياه ان يداعي مسمر بثروة دكسون ، لانه يجب ان اتمتع انا ايضا بهذه الثروة الطائلة ، يجب ان املك الجواهر الكثيرة والاموال الطائلة والاراضي الواسعة في وطني الاصلي

من اهم شروطنا على كوتياه ان يقاسمنا هذه الثروة ،والوقت قد حان للعمل يا كلاديس لان اسبارنس سوف تبلغ رشدها بعد سنتين وحينئذ يكون لها الحق باختيار من تريده دون رضاك فتنتهي الامر

— انك تخيفني ، ومع ذلك فماذا تنفع هذه الثروة ، التصرفهاعلى

معشوقتك الجديدة وترضي بها راقصة حقيرة

ولقد اصابت هذه الكلمات الجرح العميق الذي تركه حب كازال في قلبه الا انه لدى تفكره في حبه لهذه وتصوره وحبه لكازال ذات الوجه الصبوح والعينين السوداويين والشعر الذهبي والابتسامات الخلابة ملك عواطفه وتصنع في استرضاء كلاديس توصلا لمأربه من ثروة دكسون وقال لها

— يجب ان تثقي ياكلاديس بانني لا احب سواك ، وما كان تصرفي في هذا المساء الا انقيادا لرفاقي الذين ارادوا ان يشاهدوا هذه الراقصة عن قرب ويتأملوا جمالها

فصادفت هذه الكلمات قلبا متعطشا لسماعها وقالت له

— وهل انت غير كاذب ؟

— ولماذا الكذب ؟ فانك قد نظرتني ارقب الراقصة واصفق لحسن حركاتها وجمال تقاطيعها على ان جمالها لا يقاس بجمالك

— هل حقيقة ما تقول ؟ وقد وضعت يدها على كتفه . اهذا حقيقي ؟ اعد علي كلمات الحب وقل لي ايضا انك تحبني فانني بحاجة لسماع مثل هذه الكلمات . انني لاجلك قد صنعت كل شيء ولاجل حبك اصنع ايضا كل شيء ، وسوف اكتب الى كوتياه واطلب اليه الحضور وسوف اقنعه ليفعل ما تريد

— اه اراك قد عدت الى الصواب

— واي شيء لا اعمل لمرضاتك ؟

ــ نعم انها كانت تحبه فوق قدرتها وهذه الغيرة التي اظهرتها كانت اكبر برهان على هذا الحب الذي كانت تعرف انـه الاخير وتريد ان تحافظ عليه بكل قواها

وفي صباح اليوم الثاني كان المار باكرا امام قصر ميات يرى في احدى نوافذه وجه صبية حسناء ، ونظراتها المثقلة من النعاس تجول في جميع الطرقات المؤدية الى القصر، فان اسبارنس كانت قد نهضت باكرا في صبيحة ذلك اليوم ترقب الطرق انتظارا لقدوم كوتياه ،ذلك الشاب الذي احبته واختارته رفيقا لحياتها ولكي تقتل الوقت الذي رأته طويلا نزلت الى الحديقة وهناك التقت بوالدتها فحيتها وقدمت اليها جبينها قائلة

ــ هل نمت براحة

فسكتت كلاديس هنيهة تتأمل وجه ابنتها وسؤالها ثم قالت

ــ نعم ، وانت ؟

ــ وانا ايضا ياوالدتي على انني تصورت خروجك من الحديقة باكرا

ــ انك قد تصورت غلطا ، قالت ذلك ببرودة لم تذهل اسبارنس لانها كانت قد اعتادت مثلها من والدتها وتقدمت الاثنتان الى بيت الزهور تعتنيان بالازهار النادرة والخمائل الجميلة ولا تتحادثان الا قليلا الى ان ازفت الساعة الثانية عشرة واذ ذاك حضر احد الخدم وقال لهما الغذاء مهيأ فذهبتا دون ان تجسر الواحدة ان تبدأ الحديث عن

كوتياه . اما روسكوف فكان يذوق الاطعمة اللذيذة فقط دون ان يتناول منها الا قليلا لان فكره وقلبه كانا حائمين حول نزل شارع بومب حيث تسكن كازال وحيث كانت الابواب موصدة بوجهه من دون ما شفقة او حنان غير مرتين اتيح له فيهما الدخول ومقابلة كازال في قصرها وكانت هذه التذكارات تؤلمه وهو يسبح في سماء الخيال نحو تلك الغرفة الفسيحة ويتأمل كازال بشعرها الذهبي وملامحها الجذابة ويود لو تمكن من تضحية كلاديس على هيكل حبه الجديد وفي وسط هذه التأملات خرج من قاعة المائدة دون ان ينبس بكلمة، اما كلاديس فتبعته قائلة

ـ هل تخرج هذا النهار لامر ما ? او انك ذاهب للنزهة ?

ـ سوف اذهب الى السركل وفي غيابي اريد ان تقضي لي امرا

ـ وما هو ?

اكتبي الى كوتياه ليحضر ويقابلني هذا المساء لانني اريد ان نتكلم فيما يتعلق باقترانه بمدموازال دوبان

ـ حسن ، سوف افعل ذلك ، قالت هذا وتبعت روسكوف بنظرها الى ان توارى عن العيان حينئذ عادت الى حيث كانت ابنتها تلعب على البيانو

ـ ان ليونال يحبك ويريد سعادتك اكثر مما تتصورين ، قالت وهي تضع يدها على كتف ابنتها ، فهو يهتم بزواجك وقد طلب الي ان اكتب الى كوتياه ليحضر في هذا المساء

اما هي فكانت قد همت بان تقول لوالدتها عن المحادثة التي دارت بينها وبين كوتياه وانه سوف يحضر في ذلك النهار بدون ان تطلبه الا انها عرفت قيمة السكوت وحافظت عليه

وبينما كانت كلاديس تهم بالكتابة الى كوتياه واسبارنس تلهو على البيانو دخل احد الخدم حاملا صحيفة فضية عليها ورقة زيارة فاخذتها كلاديس وقرأت

كوتياه دكسون

ـ هذا كوتياه ، قالت كلاديس وهي مائلة نحو الابنة ثم نظرت الى الخادم وقالت ، ليدخل

ثم قالت الى ابنتها

ـ اذهبي الى غرفتك وانتظري الى ان ادعوك

فدخل كوتياه القاعة وعلامات الانهماك والافتكار بادية فوق جبينه لانه كان يعرف ان في هذه المقابلة سوف يتقرر مستقبل حياته

ـ كنت عازمة على ان اكتب اليك ، قالت كلاديس ، فقد سألني زوجي ان افعل ذلك لانه يحب ان تقرر امر زواج اسبارنس . فقد اكملت السنة التاسعة عشرة وحان الوقت لتقرر الامر ولولا الحزن على موت الاميرال لكنا دعوناك قبل الان

ـ انني اعبد مدموازال دوبان ، قال كوتياه بدون تحفظ واذا لم يبق من شيء يحول دون اقتراننا فانني ارجو منك ياسيدتي ان يكون ذلك في الاقرب من الوقت

— ولكن نحن ياعزيزي لا نطلب احسن من ذلك . وبلهجة المستعلم قالت وما هي استعداداتك المادية لحياتك المقبلة ؟

فساد سكوت خرقته كلاديس بعد دقائق قائلة بلطف

— انك لا شك تعذرني على تكلمي معك بحرية تامة في هذا الموضوع الذي كان متعلقا فيما مضى بالاميرال ، اما الان فقد حملت هذا الامر ولا بد لي من الاهتمام بمستقبل ابنتي

— عندي عملي ، قال كوتياه ببرودة

— ان الاتكال على المستقبل مهما يكن زاهرا ومجيدا هو خطأ

— ولكن اسبارنس غنية ، قال كوتياه وهو ينظر الى كلاديس بحدة ومع هذا فانا لا اتكل على هذه الثروة ولا يلزم لنا المال الكثير لنكون سعيدين

— ان اسبارنس لا تملك شيئا ، قالت كلاديس

فارتجف كوتياه وجمد نظره

— لا تملك شيئا على الاطلاق ، اعادت كلاديس

— ولكن ليس هذا ما عرفته من الدوق دوبان ، اجاب كوتياه

— يوجد اشياء موءلمة لا بد من الاقرار بها قالت كلاديس ويجب ان تعرفها وهي اننا باشغال خاسرة قد خسرنا ثروتي في اقل من سنتين ،

— ولكن ثروتك هي غير ثروة اسبارنس على ما اعلم

— حسن قالت كلاديس ، وبعد ان سكتت بضع دقائق كانت في نظر كوتياه احيالا عادت وقالت

ــ ان اسبارنس التي بلغت رشدها منذ سنة اعطتنا تفويضا شرعيا بثروتها وهذه الثروة موضوعة في اشغال قد تعوض علينا من خسارتنا الماضية وقد تفقدنا كل ما نملك

ــ ولكن تسمحين لي ياسيدتي بان اقول لك انك اسأت التصرف

قال كوتياه باستهزاء

ــ هل ترى ذلك ياولدي العزيز ؟

ــ بكل تأكيد اجاب كوتياه ، ولكن كما قلت لك سابقا انني احب مدموازال دوبان ليس طمعا بثروتها واننا نعرف كيف نكون سعداء بقطع النظر عن هذه الثروة التي اوءكد لك من الان انها ضائعة

ــ قد وقفت اذن على حقيقة الحال

ــ نعم

ــ اذن يجب ان تعلم انه للحصول على يد ابنتي يجب ان تكون غنيا لانك بالصور التي ترسمها لا تقدر ان توفر لها وسائط العيشة التي اعتادتها

ــ ان المحسن الي سوف يخصص لنا دخلا كافيا يكفل لنا ذلك

ــ اه قالت كلاديس وهي تهز كتفيها وهذا المحسن هو دوما جوست مسمر

ــ نعم سيدتي

ــ وهذا الدخل ما قدره ؟

ــ مائة الف فرنك في السنة

ـــ هذا حسن للغاية ، قالت كلاديس ، لو كان بالامكان الوثوق من قبض هذه القيمة دوما ،ولكن هذه القيمة غير مكفولة بسوى وعد رجل كهذا

ـــ سيدتي ، قال كوتياه وقد وقف على كرسيه حانقا

ـــ انني لاتعجب كيف تنتصر له هكذا ياولدي

ـــ انك تكرهينه كثيرا ، قال كوتياه ببرودة ونظرات حيرت كلاديس

ـــ انني لا اعرفه ، قالت برزانة ، ولكنني عرفت انه مختلس ارثا عظيما

ـــ اه ، انك تريدين الوصول الى هذه النقطة ، قال كوتياه بحدة فقد كان من الواجب ان تقولي لي من البداية ما تنتظرين مني

ـــ حسن فساقول لك ذلك

ولما كانت تتردد في الكلام قال كوتياه

ـــ تكلمي ياسيدتي ، ان روسكوف هو الذي املى عليك ما سوف اسمع منك أعيدي على مسمعي ما قاله لي تكرارا ، ان روسكوف يريد ان اداعي بارث دكسون العظيم والذي هو من حقي في اعتقاده اليس كذلك ؟

ـــ نعم

ـــ اذن يجب ان تثقي ياسيدتي وان يثق روسكوف بانني لن اطالب مطلقا بارث لا يخصني وانني اذا كنت لا ارفض ما يتكرم علي

به من بيده هذا الارث فانا لا ارضى به

ــ ولكن ياسيدي اي اهلية تخولك ان تطلب يد مدموازال دوبان

ــ سيدتي !

ــ من انت ؟ ولد لقيط من جوست مسمر

ــ سيدتي ! سيدتي ! ...

ــ انني اعرفك منذ حداثتك ، فانت ولد امرأة ارتكبت جميع المعاصي ومن كنت قبل ان صرت مصورا ؟ كنت عاملا حقيرا في محل طباعة ، وقد وصلت بك القحة الى ان تدخل بيتي وتطلب يد ابنتي . انها لوقاحة . فاصفر وجه كوتياه لهذا الكلام وتقدم حتى لاصق كلاديس وقال

ــ ياسيدتي لقد اهنت والدتي ، ان حياتها وافعالها كانت تتعلق بها وبخالقها فقط ، ولاجل الكلمات التي تلفظت بها اريد ان اقول لك هذا

ــ ان ماضي والدتي لا يتعلق بي ، انهـا لكي توفر لي القوت الضروري عملت ما قدرت عليه ، والتعاسة ياسيدتي مجلبة للنقائص والذين يتحملونها دون سقوط هم الابرار فقط . ثم ان والدتي كانت وحيدة في العالم ، كانت بدون عضد ، وانا طفل على ساعدها في هذه الهاوية المظيمة التي يسمونها باريس . في هذه المدينة التي كانت لها ولامثالها جحيما على الارض وقد احتملت كل انواع الشقاء والعذاب والاهانة ، كل ذلك لكي اصير رجلا ، اما ماذا صنعت فلا اعرف شيئا

من ذلك · وهب انها ارتكبت جميع المعاصي فان الحب الوالدي يكفي وحده لغسل كل ذلك ، ولقد كانت غير مقيدة وكان لها ملء الحرية بالتصرف كيفما ارادت ولا حق بمطالبتها بشيء الا لله واما انت ياسيدتي ····

ـــ ماذا تريد ان تقول ؟ سألته كلاديس مرتجفة

ـــ انت التي ولدت في وسط النعمة · انت التي لم ينقصك شيء من مال ولا من جمال ولا من مستقبل بسام ولا من سعادة وهناء ومع ذلك فانك امرأة ساقطة ، ان لك عددا من العشاق · وقد حقرت اسم رجل شريف ولك في وسط هذا العالم ولد تائه يلعن ساعة ولادته · ومع ذلك تريدين ان تسودي حياة والدتي ؟

ـــ ومع ذلك قالت كلاديس بحدة ، ان والدتك ياسيدي هي شر مني لانها كانت عشيقة سلفها ـــ شقيق زوجها

فازداد وجه كوتياه اصفرارا لدى سماعه هذا الكلام وخرج من الغرفة دون ان يقول شيئا

•••((•))•••

الفصل الخامس

بينما كانت كلاديس واقفة في وسط الغرفة منذهلة مما جرى في هذه المقابلة ، ارتفع سجف جميل من على الحائط وبانت اسبارنس التي كانت قد نظرت كوتياه وهو ذاهب وعرفت من هيئته ان شيئا مكدرا قد وقع بينه وبين والدتها · وازدادت تيقنا من ذلك عندما رأت تغير لون والدتها فقالت لها

ـ ماذا جد ؟

واذ بقيت كلاديس ساكتة عادت فقالت

ـ لماذا لا تذكرين لي نتيجة مقابلتك مع كوتياه ؟ لماذا ذهب دون ان يقول لي كلمة ؟ لماذا لا تقولين لي انا خطيبته وسوف اصير زوجته عما قريب ؟

ـ زوجته ؟ قالت كلاديس بحدة اخافت اسبارنس · زوجته ؟ كلا · كلا · هذا لن يتم ، ولن تصيري زوجة لهذا الشاب الضائع النسب المجهول المستقبل · كلا · كلا ·

ـ ان العلاقات بيني وبين كوتياه قد انقطعت اذن ، قالت اسبارنس بحزن ، الا تشفقين علي ياوالدتي ؟

ـ سوف تحبين غيره

ـ لقد اعطيته فؤادي ولن استرجعه

ــ سوف لا تتزوجين كوتياه ، واذا كنت تعتقدين انه يحبك فانت على خطأٍ مبين ، لانه يرفض ان يعمل اقل شيء يبرهن عن هذا الحب

ــ من الاشياء ما يصعب عمله على الرجل الشريف مهما كان حبه عظيما ، قالت اسبارنس ببرودة

ــ انك تنتحلين له عذرا

ــ نعم

فقطبت كلاديس حاجبيها وقالت بغضب ، لا اريد ان تفاتحيني بهذا الامر فيما بعد

ــ لقد قسوت علي ، قالت اسبارنس ، فانا ارجو منك ياوالدتي ان لا تفصليني عن كوتياه ، فانني احبه ولا اريد ان اسلوه ، اشفقي علي لانني اشعر ان هذه المعاملة القاسية سوف تو دي بحياتي ، لقد فصلتني اولا عن روجينا تلك الرفيقة الحبيبة التي كانت تقوم لدي مقام الوالدة وقد اعتقدت انني نسيتها والان تريدين ان تفصليني عن خطيبي · كلا ياوالدتي انني لم انس روجينا وسيظل اسمها محفورا على صفحات فؤادي مع اسم كوتياه

ــ انك ولد لا تدرين ما تقولين

ــ لقد اصبحت وحيدة بعد وفاة والدي وليس لي سلوى او تعزية وكثيرا ما شعرت بانك كذلك وكنت اسأل ذاتي عن سبب الدموع التي كانت تظهر في عينيك المرة بعد الاخرى

فارتجفت كلاديس وامتقع لونها

ــ اننا الان منفردتان عن العالم ياوالدتي ــ منفردتان تماما ٠ فلماذا لا تفرغين احزان قلبك في صدري ، لعلي اجد طريقة لتسليتك وتخفيف بلواك ؛ انني اقدر على ذلك اكثر من اي شخص كان ، لانني اعرف السبب اكثر من الجميع

ــ ماذا تقولين ؟ قالت كلاديس بحنو

ــ روسكوف ياوالدتي ٠ روسكوف

ــ لا تلفظي هذا الاسم

ــ هو الذي نغص حياتك ، وهو الذ ييسعى لينغص حياتي ايضا ويمنعني عن كوتياه ، ولكنني ارجو منك ان تبلغيه انه سوف يأتي يوم لا يبقى له فيه علي حكم ، ورغما عنــه ساقترن بكوتيــاه

وانسحبت اسبارنس الى غرفتها بعد هذا المشهد لتختلي بذاتها وتعيد في مخيلتها ذكرى احزانها الماضية اما كلاديس فبقيت حائرة في موضعها الى ان عاد روسكوف وقال لها

ــ هل كتبت الى كوتياه ؟

ــ لم اتكلف ذلك لانه حضر الى هنا بدون دعوة

ــ وماذا جرى ؟

ــ قد انقطعت كل علاقة بيننا

ــ ماذا تقولين ؟

ــ هي الحقيقة

ــ الحقيقة ؟ اذن لا تعرفين كيف تدبرين الامور

ــ انني كلمته بما يهمك فوق كل شيء ، اي المطالبة بتلك الثروة الطائلة وقد رفض ذلك رفضا باتا

ــ انه سوف يتحول عن فكره

ــ لن يتحول

ــ ولكنني ياعزيزتي اراك اجهل من بنسوا المحامي الذي كنت طلبت اليه ملاحقة هذا الامر وكل ما صنع هو انه قبض الاجرة مني ،

ــ وكيف تقتنع ان من الامور السهلة اقناع هذا الشاب

ــ انني قد عرفتك قبل الان لدى تعقد الامور ، فان هناك طريقة اكيدة هي انه كان من الضروري ان تستدعي اسبارنس وتكلمي كوتياه بحضورها وتبيني له وجوب الحصول على ورثة دكسون للحصول على يدها وانا متيقن من انك لو فعلت ذلك لرضي بكل مانريد

ــ انني متيقنة من انك لو كنت هنا لما نجحت اكثر مني

ــ اذن يجب ان تجدي زوجا موافقا لابنتك ، قال روسكوف باستهزاء ، وارى من الضروري ان نجد الامريكي الوهمي الذي كنا نهددها به ــ

ــلا تزال اسبارنس فتية ولم يفت وقت زواجها

ــ سوف تتزوج حينما اريد انا وبمن اراه موافقا لنا ، ومن المؤكد انني لا ابقيها هنا الا لهذه الغاية ، ومع ذلك فلم تقولي لي مفصلا ماذا حصل بينك وبين كوتياه ومن سوء الطالع انني كنت

متغيبا حين قدومه لان لي مقدرة على التفاهم معه

— انك كنت في السركل لانك لا تقدر ان تبقى بيننا حتى لو اضطررت الى ذلك يوما واحدا

— كنت في سباق الخيل

— وهل ربحت ؟

— كلا بل خسرت

فاصفر وجه كلاديس وقالت ، المقامرة ، النساء ، وسباق الخيل

— وهل يوجد حياة بغير هذه ؟

— انك هناك قد اضعت في سنة ونصف مبلغ خمسمائة الف فرنك اي كل ما لي من الثروة وهناك تضيع ايضا ثروة ابنتي الطائلة ، تلك الثروة التي ليست لك

— قد يكون ذلك

— وبعدئذ قالت وقد ارتجفت من هذه البرودة والاحتقار الذي كان يكلمها به ، ماذا يحل بنا متى صرفت كل ثروتي وثروة ولدي ؟ فلو كان في وسعي اعادة ما جرى لما قبلت به مطلقا

— ماذا تقصدين ؟

— لما صادقت على وكالتك على اسبارنس وانت تهمل مصالحها هكذا

— ان ابنتك جميلة ونقدر ان نزوجها زواجا يسعدنا لان دراهم اي عجوز كان او دراهم كوتياه تملأ هذا الفراغ

— المقامرة ، والنساء ، والسباق ، قالت وقد القت رأسها بين ذراعيها هي علة الخراب

— وهل تخافين التعاسة ؟

— نعم اخاف التعاسة لانها حين تصل الينا تتركني انت لوحدي احتمل مصاعبها فانا اعرفك جيدا

— ان السنين تضعف افكارك ياعزيزتي كلاديس

فانحدرت دمعتان كبيرتان فوق وجنتيها وقالت

— نعم قد كبرت ولكن حبي لك لا يزال فتيا على انني اشعر بانك لا تبادلني هذا الحب

— هذه رواية البارحة تشخص ايضا فانا ارجو منك ياعزيزتي كلاديس ان لا تقلقيني بهذه التصورات فقد كنت البارحة غيورة من راقصة واليوم شيئا اخر ، اليوم الخمرة والسباق

— نعم اخاف ، اخاف المقامرة

— ولكن كوني متعقلة ياعزيزتي ، واقبلي الحياة كما هي والرجال كما هم ولا تدعي مجالا للوساوس والاختلافات

— ان كوتياه قد اهانتني ، قد ندد بسلوكي وقبح ماضي

— انك ولا شك قد دفعته الى ذلك

— ولكنني لم املك عنان حدتي ، فقد عرفت ماضي حياة والدته ويكفي انها كانت عشيقتك لابغضها واقول فيها كل كلمة عوراء

— انت اذن التي هدمت كل شيء ، قال روسكوف بحدة ، ان

ماضي لا يتعلق بك ، هل انني تعرضت لماضيك بعشقك جوست مسمر وولدك ذلك البائس التائه في انحاء العالم ، واي حادث من حوادث غرامك

ــ ليونال

ــ هل اهتتك لاي شيء من هذه النقائص كلها ؟ فلماذا اذن تتدخلين بما ليس من خصائصك ، وباي حق تهينين كوتياه بعشق والدته . انت المحتاجة الى الشفقة والرأفة ، وما هي النتيجة ؟ لقد صعبت الامور بيني وبين ولدي حتى ليستحيل ان نتفاهم بعد الان

ــ نعم طردته من هنا وانقطع كل شيء وفوق هذا فقد اعلمت اسبارنس

ــ ولكنها تجهل انني خسرت اليوم مائتي الف فرنك وانه من الضروري ان تعطيني تفويضا لقبض هذه القيمة غدا عند وكيلها . انها تجهل ان كوتياه يقدر لو اراد ان يجعلنا اغنياء ، هذا ما تجهله وهذا ما يجب ان تقوليه لها

ــ ان اسبارنس لا تدرك هذه الامور ، وفوق هذا فان ثروتها لا تزال وافرة ولو تعقلت انت وتركت المقامرة لكنا نعيش بهنـاء وراحة من دخلها

ــ اترك المقامرة ؟ هذا كمن يحاول ان يمنع تيـار النهر من الاندفاع الى البحر ، انني ساقامر اليوم وغدا ودائما

ــ انك تقودنا الى الخراب

— قد يكون ذلك ولكن كوتياه لا يزال حيا

— ان كوتياه يعبد مسمر ولا يعمل شيئا يخالف ارادته

— ان مسمر غير خالد ، قال ذلك بحدة اخافت كلاديس ، واي وقت مات يتغير اعتقاد كوتياه بهذه الثروة ولا يمانع باقامة الدعوى للمطالبة بها وانا متيقن من فوزه وحينئذ يكون لنا كل ملايين دكسون وكل الحجارة الكريمةوالضياعوالمناجمفي القارة الاوستراليةوالاموال الوافرة المتجمعة في بنك فرنسا

— ولكن دون ذلك موت مسمر ، قالت باضطراب

— الم يتقرر ذلك بيننا منذ زمن بعيد ؟

— اه تريد اعادة تشخيص تلك المأساة المحزنة التي تشخصت في حديقة سان مافان ؟ اه انني لا اقوى على اعادتها ثانية، نعم انني لاجلك قد اصبحت قاتلة لانني كنت شريكتك ، قد ساعدتك على قتل ذاك الرجل الشريف الذي كنت احمل اسمه ولاجلك قد لعنت لانني اشعر بروح الاميرال ترف حولي دائما وتصب علي اللعنات وانت تريد مني ان اعود الان لتشخيص مأساة ثانية . اه كلا فانني لا اقوى على ذلك

— انا اتصرف بالامر

فساد سكوت عميق خرقته كلاديس قائلة بحزن شديد

— وهل تعتقد ان الله يسمح باعادة مثل ذلك الذنب دون قصاص

— دعيني من تخيلاتك واوهامك . فلا يوجد اله ولا سماء

وان الدينيات هي من اوهام البشر وخرافاتهم وكل ما هنالك انسعود المرء ونحوسه هي ما يقوده اما الى السعادة واما الى الشقاء

ــ وهل تفتكر فيما تقول ؟

ــ انني اعتقد بما اقوله

ــ وانا اقول لك ان الله حقيقة ، واني اسمع صوته في ضميري واشعر بقدرته في رقادي حينما يرسل الي شبح الاميرال دوبان موءنبا وموبخا ، واحيانا يرسل الي روح والدتي تصرخ في نبوءتها قائلة « احذري ياكلاديس ، ان هذا الحب سيكون شوءما ، سيكون قصاصا عن خطاياك سيكون جزاء لقساوة قلبك ، احذري ياكلاديس احذري »

ــ انك بدون تعقل

ــ اه لو كان ذلك حقيقة ، كم اشتهي ان اكون بدون تعقل ، ان كل شيء ينبئني باننا سائرون نحو الهاوية وقد صرنا على الشفير . انني اخاف ياليونال اخاف

فاخذها بلطف بين يديه وكأن الحياة عادت اليها لهذا التحبب الذي كانت محرومة منه مدة طويلة ونظرت اليه وعيناها تغشاهما الدموع وشفتاها محمرتان من الوجد والهيام وقالت له ، انني احبك وانت تعلم جيدا بانني اعبدك ، اه ان هذا الحب هو فوق قدرتي ، فلا احيا الا به ، ابق على جوست واترك المقامرة ، وامكث بقربي دوما فانه لا يزال لدينا ثروة تكفي لان نكون سعداء

ــ ولكنك اصبحت فقيرة مثلي

ــان اسبارنس لا تزال غنية جدا ،وتبذيرك لم يوءثرالى الان على ثروتها وانني لعلى يقين من حنو ومحبة ابنتي فهي لا تمنع عنا شيئا، وتحب كوتياء حبا اكيدا ولا ترضى عنه بديلا اننا نبقيها عندنا ونبقي لنا ثروتها

ــ ان مبادىء اسبارنس قد تتغير ، وحينما تبلغ سن الرشد تقدر ان تطردنا من هنا اي وقت ارادت ، وفوق ذلك فانا متيقن من انها تكرهني وحينما تكونين بقربها تظهر عليك علائم الكبر

ــ قد قلت لي ذلك منذ هنيهة ، قالت وهي تتخلص من بين ذراعيه

ــ لانني اريدك دوما صبية ، دوما جميلة ودوما طروبة

فنظرت عند سماعها ذلك الى مراة امامها صورت لها وجهها الجميل وعينيها الوقادتين وشعرها الحالك السواد تتخططه بعض اسلاك فضية ونظرت بعض تجعدات في جبينها وقرب فمها فانقبض قلبها لذلك ، نعم انها كانت لا تزال الى ذلك الوقت كلاديس الجميلة الفتانة وضياء جمالها لا يزال ساطعا ونور حسنها لامعا ، ولكن الساعة لزوال هذا الجمال كانت قد اوشكت ان تدق والزمان كان قد بدأ يثار منها فخانتها قواها لدى الافتكار في ذلك وارتمت على مقعد قريب منها واستخرطت بالبكاء ، بكت صباها الذابل وحبها المهدد بالزوال وحياتها التي كانت قبلا سعيدة طروبة ، وروسكوف كان قد ذهب من الغرفة لتضجره من مراها ، لانه كان قد فقد حبه لها من زمن بعيد

ولم يتزوجها الا ليجعل لذاته مقاما بثروتها وكانت مطامعه فوق الحب والشهامة والشرف

كان عند تركه كلاديس قد صعد الى غرفتـه فبدل حوائجه وخرج الى الاسواق والطقس كان جميلا رغما عن الهواء البارد وما زال يتقدم على مهل حتى وصل الى امام قوس النصر في الشان الليزاه فنظر عربة هناك اشار الى سائقها بالوقوف وصعد اليها

— الى اين اذهب بسيدي ؟ قال السائق

— الى جهة باسي

— اي شارع ؟

— قف بي في مدخل الحي

وكان والعربـة تتقدم به في تلك الجهة المهجورة من باريس يفكر في كازال تلك الراقصة التي كانت موضوع حديث الباريسيين على اختلاف طبقاتهم الى ان وصلت به العربة الى المكان المقصود فنزل منها وتقدم على مهل الى ان وقف امام مسكن الراقصة ، وكان فوءاده يخفق وهو مضطرب قلق رغما عن انه ذاك الرجل الذي كان قد تغلب في حوادث عشقه وغرامه حتى اصبح لا يحصيها عدا ، الا انه كان يريد ان يدخل ايضا رياض العشق ثانية مع هذه الراقصة ، اهذا ممكن ؟ انه لم يكن خائفا ولكن شيئا داخليا كان يقبض فوءاده

الفصل السادس

وصل روسكوف الى محجته البيت امامه وهو مغطى بثوب من الخضرة والاشجار الباسقة تحجبه عن الانظار والسكوت سائد في تلك النقطة المنفردة · على انه توقف ولم يجسر ان يقرع الجرس المغطى بالورود والازهار التي كانت بدأت تتناثر اوراقها المصفرة بنسمات الخريف على ان يده وقد حركتها عواطف فؤاده لمست الجرس عن غير قصد منه فسمع له صوت في الداخل وظهر خادم على الباب

ــ مدموازال كازال ، قال روسكوف

ــ ادخل ياسيدي ، قال الخادم ومشى امامه

فدخل الى غرفة فسيحة في الطابق الاول مفروشة ارضها ومدهونة جدرانها بلون ازرق مزركش بالنقوش الذهبية وامامه من النافذة الكبيرة حديقة مبهجة بازهارها النادرة وورودها الفاخرة والسجف المخملية الثقيلة معقودة بشرائط مذهبة فوق نوافذ ومداخل تلك الغرفة

كل شيء في تلك الغرفة كان مصنوعا بذوق ودقة مؤلفا من اللون الازرق الصافي والنقوش الذهبية وكانت التماثيل الرخامية الجميلة والتحف الثمينة تظهر من بين المقاعد والسجف وعلى احد المقاعد امرأة متكئة ورافعة يدها فوق رأسها الجميل

وحالما نظرت روسكوف وقفت وقطبت حاجبيها

اما اثوابها فلم تكن كباقي رفاقها الراقصات ، انها كانت قد احتفظت بالذوق

ثوبها من الحرير الناصع البياض لا اثر عليه للخلاعة والخفة وقد كانْ مشدودا عند خصرها بحزام ابيض ايضا فخيل الى الناظر انقوامها سيقصف من رقة ذلك الخصر واكمامها القصيرة تبين للناظر زندين كالرخام معلقتين بكتفين مستديرتين

هذه هي التي عرفناها اولا في الطريق بين موناستياه ومرفاجول وكان لها من العمر حينئذ ما يقارب الاربعة عشر ربيعا ، هذه هي التي تراها الان بنظرها الحاد وهيئتها الساحرة وقد عاد اليها رونق الفتوة بعد ان تخلصت من الموت جوعا ، انّ خطوط الثلاثين سنة كانت قد خططت جبينها المغطى بعقود من الشعر الذهبي ولكن عينيها السوداوين الكبيرتين كانتا تسطعان نورا وفمها المطوق بشفتين مصفرتين قلما كان ينفتح للابتسام

وكان روسكوف قد اظهر اكثر من مرة غرامه وكازال كانت تعرف كيف تتصرف بمقابلته فقد عرفته من مدة طويلة وعرفت انه ذلك الرجل الذي راته مرة في قصر سان سافان وانه عشيق الدوقة دوبان الجميلة لذلك كانت تنظر اليه ببرودة نظرات الاستهزاء ولم تنس انها لما اتهمت هي وكوكوس بالسرقة لم يقل كلمة ليحميهما بل كان مهتما بمغازلة الدوقة

فنظرت اليه نظرة تكاد تخترق بها صدره وتقرأ ما فيه وقالت

وهي تقدم له كرسيا بقرب المقعد الذي عادت واتكأت عليه

ـ انا اعلم بانك ستقول لي انك تحبني ، وتطرح امام قدمي قلبك وثروتك وتضحي في سبيل مرضاتي محبة زوجتك وثروتها

ـ نعم هي الحقيقة

فظهرت ابتسامة الكبرياء فوق شفتيها وقالت

ـ انني اعرف افئدة الرجال فقد كنت سابقا اقرأ حظوظ الناس في الضياع التي كنا نتجول فيها ، لاكتساب كسر من الخبز اسد بها رمقي وانني اعرف كم هي قيمة الوعود العشقية ، واحتقر كل تلك الوعود فهي اكاذيب ، ولذلك سوف لا احب مطلقا

ـ او ليس لك قلب ؟

ـ قد يكون ذلك ، فان فوءادي لا يخفق مطلقا لتلك الجموع التي تصفق لي بحدة في كل مساء ، وانا افتخر بهدوء عواطفي ، لقد كنت فيما مضى شيئا غير مذكور ، ابنة حقيرة متجولة في كل الجهات وكنت ابكي تعاستي وجوعي ، وكل هذه الامور قطعت في صدري كل العروق الحساسة

لم يكن روسكوف قد عرف ان كازال هي نفس الراقصة التي نظرها في ارجالاه ورفيقة كوكوس التعسة ، فان ذلك الحادث كان قد زال من فكره تماما اما كازال فلم تنسه

ـ اذن انت لا تحبينني مطلقا ، ولن تحبيني ابدا ، انا الذي اضحي كل شيء لابتسامة منك

ـ انني اسمعهم من غرفتي الخصوصية في المسرح يقولون كل هذا ولكن الحقيقة هي انهم يحبون شهرتي

ـ قد يكون ذلك

ـ واذا انسحبت غدا من المسرح لسبب من الاسباب وعدت الى العيشة الحقيرة التي كنت فيها قبلا فسارى كل المعجبين بي والمتحببين الي الان ينسحبون

وخطر لها ان تقول « ولماذا لم تحبني قبلا لما كنت ابنة حقيرة اكاد اموت جوعا وارزح تحت حمل تعاستي الثقيل ? لماذا لم تمد الي يدك ? لماذا لم تشفق علي وانا على ابواب الشتاء وباثوابي الحقيرة الرثة ? قل لماذا ومع ذلك فقد كنت ذات المرأة وكان لي ذات القلب وذات الهيئة البدوية انك لم تنتبه الي الا لتنضم الى الحشد الذي كان يسخر مني » وعند افتكارها في ذلك الماضي غير البعيد تساقطت الدموع من عينيها

ـ انك تبكين

ـ نعم ابكي

ـ ولماذا ?

ـ لقد تركت البكاء من مدة طويلة ولكن تذكارات قديمة جددته الان ، وحينئذ نهضت عن مقعدها ثم قالت

ـ لقد قربت الساعة الخامسة فارجو منك الانصراف ياسيدي وقد وعدت بعض الاصدقاء بموافاتهم الى القصر الذهبي .

وباشارة لطيفة ارته الباب الذي كان قد فتحه خادم لدى سماعه جرساً قريباً منها

فذهب ليونال مغموما متاسفا وكان للحصول على رضى كازال لا يتاخر عن تضحية كل عائلة دوبان وسحق فوءاد كلاديس ، ومع ذلك فان كازال لم تكن الى ذاك الوقت فتية بل كانت امرأة مجملة في نحو الثلاثين من العمر الا انها تخال الى الناظر اليها في نحو الخامسة والعشرين وكان ما يسحر روسكوف ذلك الصوت الموسيقي والعينان الساحرتان والهيئة البديعة بعكس كلاديس التي كانت تظهر بتصنعها اكبر من الراقصة بخمسة عشر عاما ، وهكذا وهو مسحور من هذه الامور خرج عائدا في طريق حرج بولون الذي كان بدأ يقفر في تلك الساعة ، نعم كان قد صادف تعاسات ومقاومات كثيرة في حياته ولكن رفض الراقصة له كان اقواها

ان برودة وعدم اكتراث هذه المرأة قد افقداه رشده فكان يتقدم وهو مطرق الرأس ينظر الى اعشاب شهر ايار الناضرة ويتامل كيف انها بدأت تذبل في ذلك الحرج الجميل والباريسيون الذين كانوا قد اعتادوا ان يتخذوه متنزها لهم في فصل الصيف قد اعتاضوا عنه بحضور السباق وهكذا كان في طريقه يصادف بعض المقامرين في السباق يتحدثون عن مكاسبهم وخسارتهم ويعرجون على بعض القهاوي في ذلك الحرج وفي واحدة منها كان رجل يكلم ذاته واثوابه المغبرة تدل على انه عائد من السباق فنظر اليه ليونال وعرف انه بنسيوا

ـ من اين انت عائد الان ؟

ـ اه · هذا انت ياروسكوف ، ما هذه المصادفة ؟

ـ انني اتنزه

ـ وانا ايضا

ـ واشغالنـا ؟

ـ لا اهتم بها ياصديقي ، لانني وجدت ان لا خير يرجى من دعواك

ـ اذن قد تركتني

ـ تماما لان لدي اشغالا تستغرق كل اوقاتي

ـ وهل وجدت عملا موافقا

ـ نعم

ـ وما هو ؟

ـ اراهن في السباق

ـ وهل تربح دائما؟

ـ هذا لا يكون

ـ اذن تجارتك خاسرة ياعزيزي نسيوا

ـ افضل ان ارى الخيول تتسابق من ان اهتم بدعواك التي لا اخفي عليك ان لا امل بها

فهز روسكوف كتفيه وقال

ـ وهل تعتقد ياصديقي بانني ساترك الامر عند هذا الحد ؟ لقد

بدأت المعركة ولا بد لي من ربحها اذا كنت تساعدني قليلا

ـ هذا لا يكون

ـ انك على خطأ ،فانت تعرف كوتياه وهو لا يحاذرك وتقدر ان تعيده الى الصواب

ـ لقد بذلت جهدي لذلك لانني بحاجة الى القيمة المتفق عليها وذهبت لمقابلة كوتياه في معمله حيث صرفت النهار بكامله احادثه في امور شتى ولكن هل تعلم ماذا حدث حينما قلت له كلمة واحدة بهذا الصدد

ـ كلا

ـ طردني من الغرفة

ـ ومن ذاك الوقت ؟

ـ لم اعد اقابله

ـ من السهل ان تعود اليه

ـ ارجو منك ان تتركني من امر هذا الارث الذي ارى انك قد خسرته ، وبلهجة المستهزىء التي لم تخف على روسكوف قال ، ان الاميرال مات وتزوجت انت الدوقة الجميلة فماذا تريد بعد هذا

وبينما كان هاذان الرجلان يتحدثان بهذا مر بالقرب منهما شاب يحمل سلة ملآنة تماثيل وهو مقوس الظهر من ثقلها وكانت اثوابه الرثة وحذاءه المرقع يكملان منظر الشقاء والتعاسة ، ورأسه الكثيف الشعر مغطى بقبعة من القش سودتها الاوساخ فزادت منظر وجهه نحولا وفيما

هو سائر على مقربة منهما حانت منه التفاتة اليهما عن غير قصد ، ولما عرف وجه روسكوف تغيرت ملامحه وتقطب حاجبـاه وانطبعت ابتسامة فوق شفتيه وبصوت خافت قال :

ــ هذا الرجل من ارجالاه وهو معشوق زوجة الاميرال

اما نسيوا وروسكوف فلم يلحظاه لان مثل هوءلاء التعسـاء والاشقياء قلما يستلفتون الانظار

وعلى مهل بقي هذا الشاب ماشيا في طريقه وهو يكاد يرزح تحت حمله الثقيل الى ان وصل الى عطفة وقف فيها طلبا للراحة وبينما هو يمسح العرق المتصبب فوق جبينه مر من امامه نسيوا وروسكوف دون ان ينظراه وسمع وقع خطواتهما يتباعد عنه

وكان الظلام بدأ يرخي سدوله وتلك الجهات اخذت تقفر تحت وحشة الليل وعادت الاطيار الى اعشاشها والحشرات بدأت تنسل الى اوكارها في شقوق الارض اما هو فلم يكن له مأوى يلتجيء اليه غير الغبراء مقعدا والقبة الزرقاء غطاء وما بينهما من الفضاء الواسع متسع لدموعه التي كانت تتساقط فوق خديه

هذا الولد كان كوكوس

ان كوكوس الذي كبر والشقاء والتعاسة ملازمان له كان قد عاد منذ زمن طويل لصنعته القديمة ــ بيع التماثيل

انه كان لا يزال حيا

الا انه لم يكن يذوق طعاما الا اذا باع شيئا من تمـاثيله ولم

يعرف احد احتراق فوءاده لان الاحزان كانت مالئة ذاك الفوءادوليس فيه لغيرها متسع الا ذكر كازال

الفصل السابع

هناك في ظلمة الليل رقد كوكوس

ولما افاق من رقاده كانت الساعة فوق كنيسة بولون تدق العاشرة وكانت كازال تنتظره حينئذ ، انها كانت محجوبة عن كل الابصار في ذلك المساء الا عنه ، انها لا ترقص هذا المساء في الاوبرا

واذ قد تنشط بهذا الفكر واستراح برقاده حمل سلته على كتفيه وتقدم قاصدا جهة ياسي · وكان الليل هادئا والنجوم سواطع في القبة الزرقاء والقمر في تمه يرسل اشعته الفضية على ذلك الحرج الجميل ، وهو يتقدم بسرعة الى ان مر من امام تلك القهوة التي كان قد وجد فيها السعادة لبضعة ايام انتهت عندما عرفه فنطوش واخذه منها ، ومن ثم مر من امام جسر النهار حيث كان يسكن سابقا مع كازال وحيث افرغ كل احساسات قلبه في حبها ، لذلك لدى هذه التذكارات زادت ضربات فوءاده

اه من هذه التذكارات

ماذا كان قد حل بفنطوش وبوادو

ربما عادا الى الزاوية المقفرة من باريس وهما راقدان الآن على صوت المياه المتكسرة على الرصيف

وكازال ؟

تنتظره في ذاك النزل الجميل المغطى بالورود والازهار لذلك كان يسرع الخطى وتلك الافكار تخفف من ثقل السلة المحمولة على كتفيه الضعيفتين وتجفف بعض الدموع التي كانت تغشى عينيه ، لقد مشى كثيرا ولكن الليل كان جميلا والهواء عليلا

النزل قائم هناك وقد بدأ ينظره ، لذلك تزايدت ضربات قلبه ولما وصل الى قرب الباب وقف مصغيا وعيناه تخترقان الظلام

ـــ هذا انت ؟

وللحال فتح الباب فوضع سلته في منعطف الممر وطوقته ذراعان بقوة

ـــ كازال

ـــ كوكوس

قالا ذلك وقادته كازال الى غرفتها الخصوصية وهناك ايضا ضمته الى صدرها قائلة

ـــ اه ياولدي ، ياولدي

ـــ اما هو فكان مستخرطا في البكاء ورأسه ملقى على صدر الراقصة ونظراته تجول في انحاء الغرفة

ـــ هل ان كل هذه الاشياء الجميلة لك ؟

ـــ نعم

ــ فبقي صامتا يتأمل تلك الاشياء التي اذهلته لانها كانت المرة الاولى التي حضر بها الى هذا النزل الجميل ليشاهد الابنة التي كان يحبها محبة والدية

فنظرت هي اليه واجابته بابتسامة طالما كانت بلسما لجراحه في الماضي

ــ نحن وحدنا هنا ولن يحضر احد ، كن مطمئنا ، فقد تمارضت لانني اريد ان اكون كلي لك ، سوف تبقى بقربي ولا شك ان جعبة كل منا مملوءة اخبارا فليفرغ كل منا للاخر ما لديه

ــ اه ، ان حياتي انا تقال بكلمتين ، فهي هي بالامس واليوم ، مدانها ولحمتها التعاسة والشقاء مضافا اليهما غمي العظيم لبعدي عنك

ــ ولماذا لم تحضر الى هنا قبل الان ؟ لماذا اعدت الي الدراهم التي ارسلتها اليك ؟

ــ فاصفر وجه كوكوس وقال بلطف ، لا تعيدي علي هذه السوءالات

وكانا وهما جالسان على مقعد ارضي قرب نافذة تدخل منها رائحة الازهار الجميلة سعيدين بلقيا بعضهما الا ان شيئا داخليا كان يقبض على فوءادهما

ــ انك جميلة وجميلة جدا بثوبك هذا الابيض ، وانا اعرف ان هوة عميقة اصبحت بيننا واخاف ان اعود فاخسرك ثانية ، اه لو كنت تعلمين كم بكيت لبعادك

ــ كنت تقدر ان تكون سعيدا لو اردت

ــ وما هو الثمن الذي اكون دفعته لهذه السعادة التي تعرضينها علي يا كازال ، كلا انني افضل التماسة ، افضل ان احضر الى هنـا باثوابي هذه البالية واجر ذيل تعاستي وشقائي من ان ارفل ببرود الهناء والسعادة . انك كنت تحتقرينني فيما لو قبلت الدراهم المرسلة منك ، انني لما لمستها تصورت ياوالدتي انها تحرق يدي وفوءادي ،

اما هي فكانت تصغي اليه ويداه مضمومتان بيديها فقالت

ــ انت شريف المبادىء والعواطف ياولدي ، تظهر لي الانسانية الحقة فوق ما عرفتها الى هذا الوقت ، انك لم تتغير يـاعزيزي وقد حافظت على الشعائر الشريفة ، وشقاءوك كان احقر من ان يذلك ، لقد ضربك بقسوة زائدة ولكنك ربحت المعركة وبحزن زائد تابعت الكلام

ــ اما انا فقد خسرت العراك ، كنت تقدر ان تكون مثل فنطوش سارقا ترتكب كل المعاصي ، كنت قادرا لو اردت ان تكون سعيدا معي ، وتقاسمني كل شيء ومع ذلك فقد رفضت هذا ، انني فخورة بك . وبصوت تقطعه العبرات عادت فقالت

ــ اه ، ياحبيبي ، ياولدي

اما كوكوس الذي كان راكعا عند قدمي كازال فقد قال

ــ لقد اصبحت شهيرة وعرفت كيف تكتسبين الشهرة في اشهر قليلة فقد حفظت لي قلبك ، ان هذا القلب هو لي منذ زمن طويل ، وقد كان لي دائما الست انا ولدك ؟ والفضل بمبادئي عائد اليك ،

انك كنت النجم الذي اهتدي بضيائه عنـد تصعب الامور واسوداد المشاكل

— اه ياحبيبي ، ياولدي

— ولم تقو على انتقول اكثر من ذلك ، وكانت تصغي بكل خشوع لكلمات التعس ، والعبرات تتساقط من عينيها والغصص تحرق صدرها اما هو فكان لا يزال جاثيا امامها وواضعا راسه على ركبتيها يعيد معها ذكرى الماضي

ان الحياة الحقيقية كانت لهما بمثابة حلم

ماذا حدث لهما لما تركا قصر دوبان مهانين من الجمهور ؟ واين اختبا لكيلا يسمعا اصوات الجمهور المتألب لاهانتهما ؟ ومناداتهما السارقين ، السارقين ؟

كانا قد مشيا بكل صعوبة وتعب حتى وصلا الى المحطة ومنها اخذا القطار الى لورد كما عرفنا حيث اجتمعا بفنطوش وهناك افترقت كازال عن والدها وذهبت الى حيث تنتظرها عيشة الشقاء والاهـانه والتعاسة

وكانا يتجولان وحيدين بين المزارع والضياع ولا يربحان ما يسد جوعهما فكانا عرضة للتعاسة والشقاء ، وفي صباح يوم قـامت كازال مريضة وهما بدون مأوى او ملبس اوغذاء ، فاتخذا لهما مسكنا في احدى الخرائب غير المأهولة في تلك الاودية وكانا يقتاتان من الاعشاب ، كانت النار قد هدمت ذلك البيت ولم تبق منه الا جدرانه

وقطعة من السقف كانا يحتميان تحتها من مفاعيل الطبيعة وهنالك رغما عن الزمهرير وتقلب الهواء والحمى القوية كانا يصارعان الموت

ان كازال كانت لا تريد ان تموت هنالك وتترك كوكوس وهو لا يزال يشكو الالم من رجله ، ولكي تقاوم الحمى القوية التي كانت ترعى احشاءها والضعف الزائد الذي كان يلقيها رغما عنها على وسادتها الحجرية ثابرت على مقاومة الاهوال بصبر غير اعتيادي

ولكن كاد الاثنان يموتان جوعا

ــ انهضي ، قال كوكوس لكازال بعد بضعة ايام كلها عذاب وشقاء ولنغادر هذا المكان ، انني اساعدك على الهرب ومن الممكن ان نجد عملا في غير هذا المكان ، سوف اشتغل في اي عمل كــان وانا مستعد للقيام باي عمل لخلاصك من هذه التعاسة

فنهضت من مكانها ولكنها وقعت الى الارض ووضعت يدها فوق صدرها وهي تقول

ــ لا اقوى على النهوض انني جائعة

فرفع كوكوس نظره الى السماء بحنق وغضب وانطبعت فوق وجهه المصفر دلائل اليأس والقنوط وارتمى على قدمي كازال والدمع يتساقط من عينيه وقال

ــ انت جائعة ، انت جائعة

ــ نعم جائعة ، وساموت جوعا

وكان العرق البارد يكلل وجه الابنة ويداها المصفرتان قد ارتجفتا

ـ ياكازال لن تموتي جوعا وفي عرق ينبض ، قال كوكوس بحدة وقد قدحت عيناه شررا ، وقبل ان تقدر ان تمد اليه يدها كان قد جرى وتوارى عن نظرها في البر الفسيح

كان يركض على غير هـدى الى ان ظهر له بعض بيوت من قرية قريبة هناك فتقدم بسرعة الى ان نظر فرنا والخبز معروض في الواجهة ، غير ان المكان لم يكن فيه احد ، فتقدم بدون تحذر واخذ رغيفا ودون ان يخبئه عاد مسرعا ، اما الخباز فكان قد راى كوكوس واطلق كلابه في اثره ثم لحقه هو وبعض سكان القرية ولكن رغبة كوكوس في انقـاذ كازال من الموت جوعـا كانت لا تجعلهم يتمكنون من اللحاق به الى ان ابصر الخربة فصرخ

ـ ها قد حضرت وجلبت الخبز ياوالدتي ، ها قد حضرت

ولما وصل الى قربها اراها الرغيف الذي قسمه قسمين ، فاخذ كل واحد منهما قسما ياكله بسرعة وتلهف

ـ انني قد شفيت الان ، قالت كازال ، ولكن من هو الذي حن علينا واعطاك الخبز

ـ لقد سرقته

ـ سرقته ؟ سرقته ؟

ـ نعم سرقته ، اصغي الا تسمعين الجلبـة على الطريق ، الا تسمعين نباح الكلاب ، ولكن ماذا يهم كل هذا ، كلي ياوالدتي كلي

ـ سرقته ، انت ياكوكوس سرقت

ـ ايجوز ان اتركك تموتين جوعـا ، هي الحيـاة قد سرقتهـا لك ولولا هذه الكسرة من الخبز التي كثيرا ما يطرح مثلها للكلاب لكنت الان ميتة ، اصغي الان اصغي ، ان الكلاب قد عرفت مقرنا وسوف تصل الى هنا قريبا وينادينا هوءلاء الناس كما نادانا غيرهم في سان سافان ، السارقين، السارقين ،وبحرقة موءلمة قال ايضا

ـ وماذا يهم ان نكون سارقين الان ، اننا قد اتهمنا البارحة بذلك ولم نكن الا ابرياء ، اما الان فقد سرقت وما بعد هذا الا القتل ، ان من السرقة الى القتل لا يوجد الا خطوة واحدة ، قال ذلك والقى على خنجره نظرة راعبة

ـ تمس

ـ ان الكلاب قد وصلت اتسمعين صوتها يا كازال انها سوف تمزقنا

ـ اه قد وصلت

وفي الحال وصل كلبان كبيران كان الزبد يرغي على شدقيهما ولكنهما لم يريا كوكوس الذي لم يكن يبالي بهما وهذه المرأة ملقاة على وسادة حجرية حتى خمدت سورة هياجهما

ـ اه الحيوانات شفوقة ، قال كوكوس ، انها اكثر شفقة من البشر

•••((+))•••

الفصل الثامن

كانت تذكاراتهما قد وصلت الى هنا

وكانت كازال قد جلست على مضجعها وقالت له انت لاتذكر ما حدث بعدئذ ، او انك لا تريد ان تتذكر ، اذن سوف اقول لك ذلك واعيد على مخيلتك ذكرى بقية ذلك النهار فاصغ

وصل الرجال بعدئذ وحيث كانوا اقل شفقة من الكلاب فقد اقتادونا الى القرية امام وكيل البوليس الذي اخذنا الى تارب وتبعنا عدد من الفلاحين فهل تتذكر ؟

— نعم ياوالدتي

— كنا قد سجنا سوية ، ثم اخلوا سبيلي ، اما انت ياولدي فكانوا قد حافظوا عليك وكنت في نظر القضاة من المجرمين وكانت قد اعيدت حادثة سان سافان للظهور ووقعت المسوءولية عليك وانت لا تحسن دفاعا ، حينئذ قصدت الذهاب في صبيحة يوم لمقابلة القاضي وكان هذا رجلا متقدما في السن وغير متزوج ولما كان يقال ان كل شيء سهل على المرأة الجميلة لديه كنت اريد ان اخلصك واهرب واياك من ذاك المكان الممقوت

— وبعدئذ

— بعدئذ ذهبت لمقابلته ، وكنت نظفت وجهي بماء النبع

ورفعت شعري عن جبيني وكنت اذ ذاك صبية وعلى ما يقال جميلة، وكان هذا القاضي يسكن بيتا في ضواحي تارب ومعه خادمة كانت قد حضرت ولادته وعرفت كل نقائصه فلم تعد تستهجنها فادخلتني وقد قطبت حاجبيها عند رؤيتي ولكن التعليمات لها كانت ولا شك ان لا تغلق الباب بوجه امرأة جميلة لذلك اخذتني الى غرفة فسيحة في وسطها طاولة عليها اوراق مبعثرة وامامها رجل هو القاضي ، كم كان عمر هذا الرجل ? ان ورقة ولادته كانت تعطيه اربعين عاما ولكن تجعدات وجهه تدل على الستين، اما انا فقد وقفت امام الطاولة فكان ينظر الي والابتسامة على شفتيه

ــ ماذا تريدين ? قال لي

ــ انقاذ كوكوس

ــ سارق سان سافان وقرية اكس

ــ ان كوكوس ليس بسارق ياسيدي القاضي

ــ انه في ارجالاه قد سرق الاميرال دوبان وهنا سرق رغيفا

ــ كنا كلانا نكاد نموت جوعا

ــ هل يمكن ان تكون ابنة جميلة نظيرك تكاد تموت جوعا ، اذن اصغي لما ساقول

ــ اقدر ان اخلص هذا السارق الذي تتوسطين له ، اقدر ان آمر بان يطلقوا سراحه ، فالمدعي الذي سوف يحضر هذا النهار بامر مني يسحب دعواه باشارتي ، وهو اب عائلة ويقتنع بالبراهين التي اقدمها له

فركعت امامه اشكره على احساساته وكدت اطير فرحا لدى سمـاعي هذا الكلام ولكن هذا الفرح لم يكن الا لوقت قصير حيث عاد وقال لي

ــ انا اعمل هذه الاشياء على شرط واحد ، وكنت لا افهم الاشياء جيدا لذلك نظرت اليه باندهال

ــ ارجو منك ياوالدتي ، صرخ كوكوس ان لا تبوحي لي بهذا الشرط فقد عرفته فاتمت حديثها بهدوء

ــ لكي اخلصك اصبحت معشوقة هذا الرجل ، وقبل ان يمضي ورقة الافراج عنك كان قد

بانت معانيه وانجت طفلها يـاويله مما جنته يداه

وقد اقتادني الى باريس ، ولما كان يعشق المسارح والمراقص ووجد في استعدادا لذلك احضر لي الاساتذة ، ولم يمض الا اشهرقليلة حتى تقدمت تقدما غريبا ، ان اعضائي كانت لينة نحيلة ، وقد كنت كذلك منذ حداثتي حيث تذكر انني كنت كثيرا ما ارقص رقصات جميلة ، اما انت فكنت قد خرجت من السجن منذ ثلاثة اشهر الا ان انقطاع اخبارك عني كان يولمني وذلك الشقي الذي لم يكن يفارقني دقيقة واحدة يمزق كل التحارير التي كنت اكتبها اليك وقد شغف بي جدا حتى انه ترك كرسي القضاء واصبح اتبع لي من ظلي

وبعد ذلك ؟

ــ بعد ذلك دخلت الاوبرا ، وبحرقة قالت حيث اصبحت كما يقولون « نجمة ساطعة »

ــ وهذا الرجل ?

ــ قد توفي ، ولدى هذا الفكر انطبعت فوق شفتي كازال ابتسامة السرور

ــ يظهر انك غير اسفة عليه

ــ أاتاسف على هذا الدنيء الخسيس ? قالت وهي تقهقــه ضاحكة ، هذا الذي بعته ذاتي لانجيك ، اه كلا ، ومع ذلك فقد ترك لي خمسمائة الف فرنك الا انني لا اقبض منها فرنكا واحدا بل اعطي فائدتها للفقراء

ــ وقد عدت الى الفقر ثانية

ــ كنت قد ادخرت شيئا فوق ما كنت اكسبه من الاوبرا

ــ اذن انت غنية وهل تملكين هذا البيت ?

ــ لا قالت وقد قطبت حاجبيها ، انني لا املك شيئا من هذا بل ارقص لاحصل معاشي واقدر ان اقول بافتخار انهم لا يقدرون على مشتراي في الاوبرا ، ان هتاف الجمهور وتصفيقهم الحــاد ورغبتهم بمرضاتي والازهار المطروحة تحت قدمي كل ذلك لا يعادل تذكار حداثتي التعسة

ــ لقد صرت ذات شهرة طائرة

ــ قد يكون ذلك ولكنني حينما اعود الى هنا بعيدة عن الاوبرا التي ينقبض فوءادي لدى دخولي اليها اصبح في هذا البيت البعيد عن الجلبة تلك الكازال التي عرفتها سابقا وتعود الي سائر التذكارات التي

تربط احدنا بالاخر

وكان كوكوس لا يزال راكعا عند قدمي كازال ينظر اليها بحنو وتأمل

— وانت لم تسأليني كيف اهتديت اليك ، قال كوكوس

— تكلم فانني مصغية لك

— بعد مضي سنتين قضيتهما في التفتيش وانا بعيد عنك كنت مارا ذات نهار امام الاوبرا حيث نظرت جمعا غفيرا يقرأون اعلان مشاهد المساء وقد قادتني الرغبة ايضا الى قراءة ذلك

— وبعدئذ

— وقع ، اسمك امام نظري فكانما كان قبسا لا اقدر ان احول نظري عنه « كازال » كنت افتكر بذاتي ثم تقدمت وهذا الاسم لا يفارق عيني اللتين كانتا متقلتين بالنعاس ، ووددت الدخول الى الاوبرا ولكن فقري المدقع حال دون المرام ففي السنتين الاخيرتين قد كابدت منَ العذاب والشقاء ما لا يوصف

— وكيف صرفت هذه المدة ياعزيزي ؟

— تجولت في كثير من المدن والقرى طاويا الايام جوعا والليالي بردا وقلقا متخذا الارض فراشا والسماء غطاء وسابقت البهائم على الاعشاب والكلاب على الفضلات ، تاركا نفسي للصدف وحياتي تحت رحمة الطبيعة ، ومكثت في تاربعدة اشهر رجاء ان اسمع منك او اعرف عنك شيئا ولما انقضت الايام سراعا والاشهر تباعا

غادرت تلك البلدة وانا اعتقد انك انتقلت الى عالم الفناء

ـ لم يكن لي في باريس سوى بضعة اشهر لما قرأت اسمك على جدار الاوبرا ولا درهم في جيبي انا الذي كنت اود الدخول اليها ولو ببذل الحياة ، كنت في المساء انتظر امام الاوبرا عند خروج الممثلات وفؤادي يرقص بين جنبي لدى الامل بان التي ستمر من امامي قد تكون كازال التي اعبدها ولكني لم اعرفك والليل حالك السواد وانت باثوابك النضرة مقنعة ومجلببة بالفراء الثمينة فكنت استسلم اذ ذاك للاقدار ولا تدرين يا كازال الى اين كان يقودني فؤادي حينئذ

ـ الى اين ؟

ـ الى هناك الى تلك الجهة المقفرة حيث كنا نعيش سوية في وقت الحصار ولكن الكوخ كان قد فقد من هناك ونبت العشب موضعه وهناك على العشب الذي كان قد بدأ يصفر كنت اتمدد وانام ، هناك كنا تعسين يا والدتي على انني كثيرا ما بكيت على تلك التعاسة

رب يوم بكيت منــه فلما صرت في غيره بكيت عليه

كنت اتأسف على ذهاب تلك الايام من حياتنا حيث كنا لا نفترق وحيث كنا باجتماعنــا في المساء نجدد النشاط لاحتمــال مصاعب اليوم الثاني

ـ ياولدي التعس

ـ اه كم قضيت في ذلك الليل المظلم وكم سكبت من الدموع السخينة في ذلك الموضع الذي كان يجمعنا سوية ، وفي الصبــاح

نهضت خائر القوى مهدود الحيل والسعال الحاد يكاد يشق صدري ، وكانت الشمس متحجبة وراء الغمام ونقط المطر بدات تبلل الارض واذا بعامل مر من امامي فنظر الي وقال — خامل — ولم اجبه ولكنني نظرت اليه نظرة جعلته يندم على ما قال فعاد الي وسألني

— وهلا تجد عملا

— لا عمل لي ، فمديده الى جيبه واخذ منه قطعة بعشرين سنتيما وناولني اياها

— اه هذا كثير قلت له ، اعطني فقط ما اقدر ان اشتري به خبزا لسد الرمق

— خذ الكل ايها التعس ، قال ذلك وذهب في طريقه

عشرون سنتيما ياوالدتي ، تاملي قيمتها ، كنت بها غنيا مدة يومين وكان الوقت مبتسما لدي ، فرجعت الى مكاني امام الاوبرا ، من دون ان افتكر في ان ادخل اليها لانني حاولت الدخول وانا بحالتي فقادوني الى محل التوقيف اعتقادا منهم بانني من الفوضويين لذلك عدت الى الباب الذي تخرج منه الممثلات ارقب خروجك ، وكانت معشوقة بعض عمال المسرح تاتي وتقف بقربي في كل مساء انتظارا لحبيبها فسألتني

— ماذا تعمل هنا ؟

— انتظر لاكازال

— فقهقهت ضاحكة

ــ لاكازال ؟ قالت ، لاكازال ؟

ــ تماما

ــ الراقصة الشهيرة التي تخلب الان الباب كل سكان باريس فهل تعرفها ؟

قد يكون ذلك ، ومن اين هي هذه الراقصة وهل تعرفينها ؟

ــ ان عشيقي يزعم انها ولد التقطت عن الطرقات وانها كانت تستعطي وترقص في الشوارع والازقة

ــ هذه هي ، هذه هي ، صرخت

ــ ولكنها ليست فتية ، هي في نحو الثلاثين على ان هيئتها لا تدل على ذلك ، وهي غاية في الجمال

ــ وهل هي شقراء اللون ؟

ــ شقراء

ــ والعينان ؟

ــ سوداوان كاجنحة الغراب

ــ هذه هي ، هذه هي

ــ هيئتها بدوية وهذه الهيئة هي ما يحببها الى قلوب الرجال ، وبما انه قد دقت الساعة نصف الليل فستخرج عما قريب وتراها

وفي نفس الوقت وصلت عربة جميلة ووقفت امامي ، فتقدمت نحوها و نظرتك وقد دخلت اليها والقيت راسك على وسادة فيها ،ورغما عني صرخت باسمك باعلى صوتي ، على ان العربة كانت قد اسرعت

امامي فتبعتها وتمسكت بها ووصلت معها الى مقرك هنا ، ثم كتبت اليك ، وها انا الآن بحالتي التي كنت تعرفيني بها لانني قصدت ان ابرهن لك ياوالدتي عن انني لا ازال اشتغل واعمل واني غير خامل لذلك استمدت شجاعتي وعدت لمقابلة ذاك الذي كنت اشتري منه التماثيل سابقا وقد سمع رجائي واداني سلة ملآنة منها

وكانت كازال عند سماعها حكاية هــذه الحوادث المؤثرة تسكب الدمع مدرارا ثم قالت وهي تلاعب شعر الفتى باصابعها النحيلة، اما الآن فسوف تبقى بقربي حيث نقدر ان نكون سعداء

فلم يجب كوكوس

فاقلقها سكوته وقالت

ــ اذن انت ترفض

ــ نعم ياوالدتي ، لانني لا اريد ان اعرف شيئا عن حياتك هذه الجديدة ، هي التقادير التي فرقتنا ولا يجوز ان اقاوم الاقــدار التي تعاكسني دائما

ــ ان فراقك الطويل قد جرح فؤادي وارى انك تلومني لعدم سعيي المتواصل للاهتداء اليك

ــ كلا ياوالدتي ، انني متيقن من انك سعيت جهدك

ــ نعم ، فقد كتبت اليك مرارا وكان ذاك الرجل يحول في كل مرة دون وصول تحاريري لانه كان يخاف قربك مني ــ يخاف ان اعود واياك الى العيشة سوية

ــ وهل كنت تقصدين العودة الي ؟

بدون تردد ، فان عيشة الشقاء التي تقاسمناها كانت تحلو لي بقربك وكنت متعطشة للرجوع اليها ، بحثت عنك في كل مـكان وناديتك بكل ما في نفسي من القوة حتى انني لاستغرب عدم سماعك ايـاي

ــ ياكازال التعسة

ــ كلا ، انك لا تغفر لي بعدي الاضطراري عنك وهربي مغ ذلك الرجل الذي نقلني من تارب ليبعدني عنك دائما ، وكان دومـا يهددني بانه يعيدك الى امام القضاء ويحاكمك على سرقة قصر دوبان وخوفا عليك كنت ارضخ لارادته ، اما وانت هنا الان فلن نفترق ، قالت ذلك وضمته الى صدرها

اما هو فتخلص من بين ذراعيها وكان السرور طافحا على وجهه ثم نظر من النافذة الى السماء المرصعة بالنجوم والازهار التي تحاكيها تحت ضوء القمر والاغصان تتلاعب بنسيم الليل ثم اخرج من صدره زفرة عميقة لم يقو على ضبطها وترقرقت الدموع التي كان يجتهـد لاخفائها بين جفنيه

اما هي فقد ارتمت على المقعد وبصوت خافت قالت

ابق هنا معي ، انني امك ولي الحق بك

ــ لا يا اماه دعيني اذهب في طلب رزقي ، وقد عرفت الان انك سعيدة وهذا يكفيني

ــ الا تريد الاقامة معي ؟

ــ كلا

فاسودت الدنيا في عيني الراقصة وارتجفت اعضاءوها

انك ترتجفين من الهواء الداخل من النافذة فلنغلقها قال ذلك وبعد ان اغلق النافذة عاد وجلس بقربها على المقعد وهو يجيل نظره في جوانب الغرفة ويوءلمه دلائل الاسراف البادية فيها

ــ هل نظرت فنطوش ياوالدتي ؟

ــ كلا

ــ اذن لا تعرفين ماذا حل به

ــ اعرف مقره

ــ اه

ــ هو لا يزال برفقة ذاك الشقي بوادو وقد عادا كما كانا سابقا يسكنان بالقرب من جسر النهار ، لقد كان بوادو سبب تعاستنا ولولاه لما تعود فنطوش اللصوصية التي كانت سبب افتراقنا ولما كنت اقرأ فوق جبينك اليوم سطور الاحزان التي اقرآها الان ، نعم انت مسرور بروءيتي ولكن هذا التغير الذي طرأ على حياتي هو الذي يكسر قلبك اليس كذلك ؟ فانت تتصور انني لم اعد كازال التي اضعتها

ــ لا، هذا هو انت دائما يا اماه

ــ الأجل هذه الرياش والمظاهر الفاخرة انت غير مرتض ؟ في وسعنا الاستغناء عن كل ذلك ، قالت الراقصة ، وماذا يهمني من كل

ما ترى ، هذه الصور الثمينة ، هذه النقوش البديعة ، هذه السجف الحريرية — انني حينما افتكر في المصاعب التي قضيناها والشقاء الذي احتملناه ، ومكابدة الشدائد التي كابدناها سوية يا كوكوس اشعر بان هذه الرياش وهذه النعمة تطبق على فوءادي كالصخور وتسحقه ، ثم تساقطت عبراتها وتنهدت من اعماق قلبها وقالت

— انك تغتفر لي ، اليس كذلك ؟ لقد كان علي ان انقذك ، ولم يكن من سبيل الى انقاذك الا بما فعلت

وكان كوكوس وهو راكع امامها لا يحاول كفكفة دموعه فقال

— لا يحق لاحد ان يحاسبك على حياتك يا اماه

وكانت الساعة المعلقة في الممشى تدق الواحدة فنهض

— ا انت ذاهب ؟

— نعم ياوالدتي

— واي متى تعود ؟

— قريبا

قال ذلك وارتمى بين ذراعيها

•••«(•)»•••

الفصل التاسع

ان كوتياه حين خروجه من نزل ميات عاد الى مسكنه وهو ساخط قانط فتلك المقابلة كانت قد قضت على اقترانه باسبارنس ومضى يومان وهو متحجب في قصر مسمر ثم عاد الى محل شغله عله يتلقى هناك خبرا ما من تلك التي كان يحبها ولما دخل الطابق الاسفل قابلته الوكيلة فقال لها ، هل لي تحارير

ــ كلا

ــ ولكن هذا يذهلني ، قال الشاب

ــ ان سيدتين فتيتين حضرتا لمقابلتك وقالتا انهما ستعودان

ــ وما هي ملامحهما ؟

ــ الواحدة شقراء اللون وهي لا ريب ابنة بيت كريم كما يستدل من ملامحها ولابسة السواد ، والثانية خادمة لها على ما لحظت

ــ انعودان اليوم ؟

ــ ربما كان ذلك ، فهل اسمح لهما بالصعود ؟

ــ بدون تردد

قال ذلك وصعد الى مصنعه وهو يفكر ان هذه الابنة هي ولا شك اسبارنس التي قد يضطر الى وداعها وداعا ابديا

وهو ايضا كان يجد نفسه تعسا ، فان مسمر كان محقا باعتقاده

ان المال وحده لا يجلب السعادة ، فقد كان لديه كل ما يشتهي الشاب الغني من الشهرة والمال ومع ذلك كان يشعر بالتعاسة والشقاء ، وكان تلبد السماء بالغيوم ومرور فصل الخريف بسرعة منهزما امام زمهرير الشتاء يزيد في انقباض فؤاده وهو واقف امام احدى نوافذ غرفته وبجانبه صورة كان قد بدأ بصنعها منذ زمن طويل الا ان موت الاميرال دوبان ومعاكسات الظروف لاقترانه باسبارنس زهداه بالعمل ، وباريس الفسيحة امامه متحجبة بالضباب وهو في مكانه يفكر بكل شيء وفي الحقيقة كان لا يفكر بشيء الى ان نبهه طرق خفيف على البـاب وبانت منه اسبارنس

ــ انت ? قال كوتياه باندهال ، انت ?

ــ قصدت ان اراك يا كوتياه وقد اتيت قبل الان ، انني تعسة ، قالت باكية

ــ وهل اخبرتك والدتك بما جرى بيننا ?

ــ نعم

ــ وهل قالت لك ان كل علاقة قد انقطعت ?

ــ نعم اخبرتني بكل شيء لكنني عصيت ارادتها

ــ انا احبك يا اسبارنس حبا محرقا وهذا الحب هو ما يحاول روسكوف ووالدتك ان يحولا دونه ، انهما يحاولان يا اسبارنس حملي على الاتيان بعمل دنيء ضد جوست مسمر ولا يعطياني يدك الا بهذا الثمن

ــ عرفت كل شيء ياكوتياه

وانا اوء كدلك يا اسبارنس كما اكدت لهما بانني لن اقترف جرما كهذا

ــ انت محق ياكوتياه فان روسكوف بعد ان اضاع ثروةوالدتي اخذ ثروتي وانا اخاف من هذا الشقي واعلم ان والدتي غير سعيدة لانني كثيرا ما رأيتها والدموع في عينيها

ــ ان ذلك قصاص لهــا

ــ انها امي ياكوتياه

ــ انني احترم هذه العواطف ولكنني لو اردت ان اخبرك عما جرى بيننا لعرفت لماذا لا اسامحها ولن اسامحها ابدا

ــ ومع ذلك فانت تحبني

ــ نعم انا اعبدك

ــ اذن يجب ان تنسى وان تطرد من قلبك الحقد وتسامح

ــ ابدا ، اتعلمين لماذا لا اصفح ؟ لا اصفح لانها لا تحبك ، لانها سبب عذابك ، ولانني متيقن من ان ارادتها وارادة روسكوف همــا اللتان تحولان دوننا ، انك تجهلين الروابط التي تربطني بهذا الرجل فساطلعك عليها ، انني ابن روسكوف وهذان الاثنان اللذان كان يجب ان يحبانا وان يبذلا جهدهما لسعادتنا يتحدان ويتامران علينا ، انني ارى هوة عظيمة بيننا ، لانني سوف احافظ على شرفي دون تلويث رغما عن حبي ، اه ولن اطالب ابدا بثروة دكسون ولو اقتضى ان لا

اراك فيما بعد وان اموت في حبي

ــ انني فخورة بك ، فخورة بمباديك ، وكن على يقين من انه لا توجد قوة تقدر ان تفرقنا ، وانا قريبا سوف ابلغ سن الرشد والى ان ابلغ تلك السن سوف احضر للاجتماع بك هنا قالت ذلك وعادت الى عربتها حيث كانت تنتظرها خادمتها الامينة وذهبت الى نزل ميات

اما كلاديس فكانت لا تزال في مخدعها تذرف الدموع سخينة وتتعذب من وخز ضميرها لان ساعة القصاص كانت قد دنت ، كانت تشعر بان روسكوف لم يعد يحبها وانه يذهب بدونهـــا كل يوم ولا يخاطبها الا ببرودة ، وكان قد رجع يوما من نزهة على الجواد ليغير اثوابه فقط ثم خرج بدون ان يدخل غرفتها ، الى اين هو ذاهب ؟ انه ذاهب ولا شك لموافاة احدى عشيقاته او للمقامرة ، ولدى تذكرها الليلة السابقة في الاوبرا وضعت رأسها بين يديها وصرخت ، عـــاشق راقصة ، عاشق كازال هذه التي صارت حديث الباريسيين ، واكتسابا لرضى هذه الابنة يقودنا الى الخراب ، اه ولكنني رغما عن ذلك لا ازال احب هذا الرجل ، واشعر بانني لا اقدر على الحياة بدونه اه لو كنت اجسر ان اذهب لمقابلة هذه المرأة التي تستقبله وارجو منها ان تعيده الي ، ولكن ماذا اقول لهذه الراقصة وهل تعرف عذاب قلبي ؟

وكانت الايام تمضي وهي تزيد الغم في قلب كلاديس ، اما روسكوف فكان يزداد تطوحا في عشقه وهو لا يقوى على امتلاك فؤاد كازال فقد كان يذهب في كل مساء الى الاوبرا حتى اذا قاربت

الانتهاء يخرج مسرعا الى قصر باسي ينتظر دخول كازال ولكن الخدم هناك كانت التعليمات لهم مشددة بان لا يسمحوا له بالدخول فكان يرد من الباب ويقف في الحديقة عل نار غرامه تقدر على خرق تلك الجدران واضرام قلب الفتاة ، وكثيرا ما كان يرى كوكوس داخلا عند منتصف الليل وهو باثوابه الرثة فيظنه احد انسباء بعض الخدم ولا يقوم في فوءاده شيء من الغيرة الى ان كان مساء صادفها فيه وهي تتمشى منفردة في حرج بولون والمارة تقف وتنظر اليها معجبة بذاك الجمال الخارق والقد المياس وهي ذاهلة عن ذلك بطرح الحبوب للاطيار التي كانت تتسابق حواليها لالتقاطها فوقف روسكوف على بعد بضع خطوات يتأملها ثم تقدم قليلا وقال

— سيدتي

فانتبهت من ذهولها وقالت .

— اه المسيو روسكوف ، وقطبت حاجبيها ، انني الهو بالاطيار

— حتى الاطيار تعبدك

— ليس ذلك بالشيء الجديد الذي تخبرني عنه يامسيو روسكوف قالت ضاحكة

— اسمحي لي ياسيدتي ، قال وهو يضع يده تحت ذراعها ، ان اكلمك بصراحة

فتغاضت عن ذلك ثم نظرت اليه بعبوسة وقالت

— وماذا تريد مني ، الا تعلم منذ زمن مديد ايماني في الحب

الا تعلم انني بصنعتي لا افتح فوءادي الا للعموم

ــ الا تحبينني ?

ــ انا .

ــ نعم ، الا تحبينني ?

ــ ابدا

ــ انني اضع تحت قدميك فوءادي وثروتي

ــ بكل ما تقدر ان تصل اليه من الغنى لا تشتري ساعة من حبي

ــ اتعتقدين ذلك قال وهو يضغط بلطف على ذراعها ، انني للحصول على حبك لا ابالي بالخراب

ــ وتفقر ايضا كل عائلتك ، اليس كذلك ، قالت وقد تبسمت عن صفي لوءلوء منضود ، تفقر الدوقة دوبان الجميلة التي كنت احببتها كثيرا في السابق وتزوجتها موءخرا

ــ لم احب سواك

ــ انا متأسفة لحالتك واوءكد لك انني لا ابادلك هذا الحب

ــ اه ، لا تقولي لي ذلك ، واذا قدرت ان اطرح تحت قدميك الاموال الطائلة والحجارة الكريمة ، والجواهر النادرة ، الا تقابلين ذلك ببعض الحب ? قال ذلك وهو يفكر في نفسه انه اذا حصل على ثروة دكسون تصبح هذه المرأة لي ولا سبيل للحصول على الثروة الا بموت جوست اذن يجب ان يموت جوست لتكون ثروته وسيلة للحصول على كازال ثم قال

ــ انني احبك حبا يدفعني الى ارتكاب اي جريمة كانت للحصول عليك انت التي تسحرين باريس

ــ لا تقل مثل هذه الاقوال لفتاة تعسة لم يكن ينظر اليها احد فيما مضى وكثيرا ما كادت تموت جوعا

وكانا وهما يتقدمان على مهل قد دخلا في الطريق العمومية حيث كانت عربات المتنزهين بدأت تعود وروسكوف فخور انه رفيق النجمة الساطعة التي تسحر الباريسيين ، وفيما كانا يتقدمان مرت من امامهما عربة اطل منها رأس امرأة هي كلاديس وقد رأتهما وبينما كان روسكوف وكازال يتابعان نزهتهما كانت كلاديس قد دخلت نزل ميات وهي تكاد تموت غما وغيرة

ــ ان روسكوف كان يخدعها

ــ انها كانت تسمع الان باذنيها نبوءة والدتها وهي تموت ، وقد تحققت الان صحة النبوءة ، ومع ذلك لم تقدر ان تنزع من فوءادها حب هذا الرجل

ولما عاد روسكوف في المساء حفظت ضمن طيات فوءادها ما شاهدته في النهار لانها كانت تعلم ان اقل مظهر من مظاهر الغيرة تتظاهر به يكفي لنزع بقية الحب الباقية لها في فوءاد هذا الرجل القليل الشعور ولم يكن من عذاب اقوى على فوءاد هذه المرأة من علمها بعشقه لغيرها واهماله اياها وهي لا تقدر ان تعترض على ذلك لانها تعلم نتيجة هذا الاعتراض فكانت تنتظره الساعات الطوال من الليل وجبينها

ملقى على زجاج نافذتها وعيناها تغشاهما الدموع وقلبها يخفق اضطرابا وقلقا ثم تراه يعود في الساعات المتأخرة من الليل واحيانا كثيرة في الصباح منهوك القوى فتعود الى سريرها حزينة كئيبة تندب سوء حظها ونار الغيرة ترعى فوءادها وتثأر منها للدوق دوبان وكان روسكوف دائما يقول لها

— انك تشيخين ياعزيزتي ، ان شعرك مبيض ووجهك يتجعد فتنظر الى المرآة لترى اذا كانت لا تزال تلك الدوقة الجميلة كلاديس ثم تعود عنها مرتجفة وجلة وتنظر الى روسكوف وتقول له بحزن وكآبة

— انني احبك حبا لا اقوى على اطفاء ناره فابق بقربي واشفق علي

— انك حمقاء

— ماذا يحل بي بدون حبك وانا زوجتك ? قالت له يوما وهي راكعة امام قدميه ، انك لا تقدر ولا يجب ان تحب سواي ، انك لم تعد حرا انك تخصني

— انك حمقاء

وكانت تعيد في فكرها كيف انها لاكتساب محبة هذا الرجل كانت قد ضحت ثروتها وقست على ابنتها ، وكيف وافقت على مقتل زوجها وكيف يعاملها الان هذه المعاملة فيزيدها وخز ضميرها عذابا وصعدت يوما الى غرفة ابنتها علها تعود الى اكتساب فوءادها ولكنها وجدت نفورا منها فقالت

— وانت ايضا تبتعدين عني ، لقد اصبحت مقصية من الجميع

ـ مضى وقت طويل وانا مهملة منك فقد ماتت شعائر فوءادي من كثرة الاحزان

ـ تريدين ان تكلمي عن فسخ زواجك مع كوتياه

ـ انك وروسكوف قد اخترتما اتحادنا على اننا لم نفسخه وانني الان أكثر من كل وقت انتظر ان ابلغ سن الرشد لاعطي فوءادي لمن احببت

ـ انا لا احب الا سعادتك ، قالت كلاديس

ـ سعادتي ؟ قالت الابنة بضحكة معنوية ، سعادتي ؟ ولكن هي السعادة التي تمنعينها عني ، وانني فوق ذلك اعلم لماذا تأخر زواجي ، فاضطربت كلاديس لذلك اما اسبارنس فاتمت حديثها

ـ انني اعلم كل مقاصدكم واعرف الحيل والطرق الشريرة التي لا تنمو الا بمخيلة ذاك الاب المحب ـ ذاك الرجل الذي كان سبب تعاستنا ـ ذاك الرجل الذي قد انقلب حبه لك الى كره ـ ذاك الرجل الذي لم يحبني قط

اما كلاديس فكانت ترتجف دون ان تقول كلمة

كانت ابنتها قد عرفت سبب احزان قلبها ، وعرفت باهمال ليونال وسبب ابيضاض شعرها وتقرح جفونها وتجعد وجهها

ـ ومن قال لك ان زوجي لا يحبني ؟ قالت كلاديس وقد امسكت بذراع ابنتها ، من قال لك ذلك ؟

ـ لقد عرفته ، فهو لا يكاد يحضر الى هنا

ــ ان الخدم ايضا يعلمون ما هو جار ، قالت كلاديس ، وانك عوضا عن ان تعزيني اراك تذكرينني بما اريد ان انسى

ــ لو لم يدخل هذا الرجل بيتنا لبقينا بحالة السعادة ولما كنا اصبنا كلانا بالحزن والغم وفوق كل ذلك لكان والدي بقي حيا ،

فارتجفت كلاديس وقالت ماذا تريدين ان تقولي

ــ ماذا اريد ان اقول ? انني لا اعرف زيادة ، ولكنه فكر خطر لي وصوت خفي اسمعه في اذني الان يقول لي ما اعيده عليك

ــ هو صوت بعيد ، قالت كلاديس في نفسها ، انه صوت الاميرال، اه ايها العشق الممقوت ، ايها العشق الملعون

ثم نظرت الى ابنتها وهي مضطربة وصرخت فيها ، اخرجي من هنا ودعيني منفردة ، اخرجي، اخرجي

ــ لا اخرج قالت اسبارنس ، فقد حان الوقت يا اماه لاقول لك كم انا تعسة ، وحان الوقت لاقول لك ايضا انني لا اريد ان يبذر هذا الرجل من ثروتي فوق ما بذر منها ولاوه كد لك انني سوف ادافع عن حقوقي وعن حبي

فانذهلت كلاديس من كل ذلك لان تلك كانت المرة الاولى التي عصت فيها ابنتها كلامها

ــ نعم هو يقودنا الى الخراب ، قالت كلاديس مرتجفة ، وانني سعيدة لانك افتكرت بالمقاومة للمحافظة علينا كلينا ولكنني اقول لك بانك ستخوضين حربا عوانا

ـ انني سوف ابلغ رشدي بعد ثلاث سنين واكون اذ ذاك حرة باعطاء فوءادي للذي اريده سوف انتظر هذه المدة اذا قضت الامور لانني ارى جيدا يا اماه انك لا تقدرين على مقاومة هذا الرجل وانه لو لم يكن حبك له قويا لما ضحيت ولدك التي كنت تقدرين ان تكوني سعيدة معها لو اردت

ـ اخرجي من هنا اخرجي ، صرخت كلاديس ، فانني لم اعد اقوى على الجواب

وبقيت وحدها تسكب الدموع السخينة

ان ابنتها كانت قد عصتها ولم تعد تحترم ارادتها

وذاك

ذاك الذي كانت تعبده كان يخونها ويحتقرها

ولم يعد بوسعه ان ينكر عليها ذلك وقد رأته مع امرأة غيرها في حرج بولون ، وهذه المرأة هي الراقصة الشهيرة التي سحرت باريس

هل تذهب لمقابلة تلك الراقصة وترجو منها ان تعيد اليها روسكوف الم تكن هي ايضا جميلة ؟ ومن هي المرأة التي تفوقها جمالا ؟ الم يقل لها ليونال مرات عديدة انها اجمل من كل المعشوقات اللواتي هام بحبهن ؟ انها كانت لا تزال قادرة على الافتخار بجمالها واذا كان هنالك بعض التجعدات في وجهها او بعض الاسلاك الفضية في شعرها فهي قادرة على اصلاح ذلك ، ولدى هذه الافكار تبسمت وقالت

ان ملكي لم ينته بعد ، واني لا ازال قادرة على اقتياد القلوب

فالعشاق لا ينظرون الى الفتيات ، بل يرغبون النساء نظيري اللواتي تجري في عروقهن دماء العشق الحقيقي انني لم اغلب بعد ولي امل شديد باستعادة محبة روسكوف ، تلك المحبة التي كانت لاجل استعادتها مستعدة لارتكاب كل الجرائم ، ثم تقدمت نحو مراة كبيرة تتامل وجهها المتجعد ولونها المصفر وعينيها اللتين فقدتا كثيرا من لمعانهما فصرخت قائلة ، ايها الحب الملعون ، اه لو كنت قادرة ان اقتلعك من صدري ، وهناعادت الى اذنيها كلمات والدتها القائلة « ان هذا الحب سيكون شوءما عليك فاحذري ياكلاديس »

الفصل العاشر

وتنبهت كلاديس من ذهولها بقرع خفيف على الباب ثم بانت منه احدى الخادمات

— ماذا تريدين ياجوليات؟ قالت كلاديس

— ان رجلا يطلب مقابلة سيدتي بالحاح

— دعيه يدخل ، قالت وقد اصلحت هيئتها وسكنت روعها وللحال ظهر في الباب رجل متوسط في العمر كان محرر مقاولات عائلةدوبان فارتجفت كلاديس لدى روءيته وقالت له ، انت قادم ولا شك يامسيو نيمار ببعض الاخبار المكدرة

ــ نعم ياسيدتي

ــ هات ما عندك حالا

ــ ان المسيو روسكوف المفوض بالامضاء عنك وعن مداموزال اسبارنس قد حضر هذا النهار الى مكتبي واخذ مائة الف فرنك

ــ كنت عارفة بذلك، قالت كلاديس ببرودة

ــ انني على يقين من علمك بذلك ، ولهذا حضرت لاحذرك كخادم نصوح من هذا التبذير الذي يؤدي الى فقر مدموازال دوبان فالمسيو رومكوف يحب المقامرة بناء على كل المعلومــات التي حصلت عليها وانت تعلمين ان الخراب المحتم هو اخرة المقامرة

ــ وهل نحن قريبان الى هذه الدرجة من الدمار ؟

ــ كلا ولكنني وجدت ان الامر يتكرر كثيرا فخفت العواقب

ــ اشكرك كثيرا ياسيدي على هذا الاهتمام بنا

ــ لا شكر على الواجب ، فقد كنت صديقا للاميرال

ــ كنت على معرفة بمحبة الدوق دوبان لك

ــ لا تجهلين ياسيدتي انك قد افتقرت فالخمسمائة الف فرنك التي كانت لك من كرم الدوق قد صرفت

فتنهدت كلاديس وقالت

ــ نعم ، ان هذه الثروة خمسمائة الف فرنك قد صرفت ولكن ما العمل ؟ وزوجي الذي يحب المخاطرة والمجازفة قد خسرها بمضاربات كان يعتقد انها رابحة

ــ قصدت ان اطلعك بذاتي على حقيقة الامر ياسيدتي عملا بواجباتي ولما كانت حقوقي لا تسمح لي باكثر من ذلك فانني اقف عند هذا الحد وانصرف ، وفيما هو في الباب الخارجي مر بروسكوف دون ان يلتفت اليه

ــ من هو هذا الغريب؟ قال ليونال وهو داخل الى غرفة كلاديس

ــ محرر مقاولات عائلة دوبان

ــ وما غرضه هنا ؟

ــ افادني انك اخذت في هذا الصباح مائة الف فرنك

ــ هذا صحيح

ــ لتفي عنك بعض ديون المقامرة

ــ نعم ، ولكن لا يزال لدي نصف القيمة لاعوض بها هذا المساء

ــ في البكرة؟

ــ او في السباق

ــ وقد يكون منها ايضا هدية لبعض السيدات قالت كلاديس باستهزاء

ــ انك تتدخلين كثيرا ياعزيزتي في الامور فارجو منك ان لا تتدخلي باموري الخصوصية

ــ ان امورك الخصوصية هي اموري ، قالت كلاديس بغضب ، واعلم انه لا يروقني بعد ان بذرت ثروتي وافقرتني ان تفقر ابنتي

ــ مهلا ، مهلا ، ولا تمنني قال ليونال ، ان هذه القيمة الصغيرة

التي تعدينها ثروة سوف تعاد اليك ، لانني لا انتظر ان ابقى دوما بدون عمل فضلا عن اني سوف اعيدها بالمقامرة

ــ انك تخسر دوما في مقامرتك وان ربحت يوما فانك تصرف ربحك على الراقصات

ــ وهب كان ذلك ، الست انا حرا فافعل ما اريد ؟

ــ لا لست حرا لتعرض نفسك ومعشوقتك كما فعلت البارحة في حرج بولون

ــ ان الغيرة تعميك ياعزيزتي

ــ فليكن ، انني غيرانة

ــ انك لعلى خطأ كبير ياعزيزتي كلاديس ، فانا لا اغار ولا اريد الغيرة ، واذا كان يسرك ان تعيدي ما مثلته معي على حياةزوجك الاول فانني لا احنق عليك

ــ اتهينني ايضا ؟ قالت كلاديس بكبرياء وحنق

ــ اتريدين ان اقول لك الحقيقة ؟ انك تثيرين غضبي بغيرتك فهي غيرة غير لائقة بامرأة متقدمةفي السن نظيرك ، لانك لم تعودي فتية وها المراة تبين لك ذلك

ــ تعس لئيم ، الا تخاف غضب امرأة

ــ انا عالم باموركِ فلا اخاف شيئا .

ــ خفض صوتك فانني اسمع حركة في الغرفة الثانية

ــ ماذا يهمني ، انك تنفدين صبري وتجملينني اكرهك

ــ انت لم تحبني قط

لم يجب بشيء

ــ لماذا اذن تزوجتني ؟ لماذا ؟

ولما لم يجب على ذلك قالت

ــ سوف اذكر لك السبب

ــ تكلمي

ــ تزوجتني لانني كنت غنية ولانك كنت تأمل ان تتمتع بثروة ابنتي وان تفقرها وعليه يجب ان تثق بانها لن تمضي لك شيئا بعد الان

ــ ومن يمنعها ؟ انت تمنعينها ؟

ــ كلا ، لا ينبغي ان اتدخل بذلك ، فهي التي قررته وقد كانت هنا منذ هنيهة واطلعتني على ارادتها

ــ هذا ما سوف نراه وانا هنا صاحب القول الفصل ولا يقدر احد على معارضتي ، فاذهب اي وقت اردت واعود اي وقت اردت ، اقامر ويكون لي معشوقات وراقصات، نعم لو كانت كازال تريدني لوضعت تحت قدميها ثروة دوبان وثروة جومت مسمر الذي سوف اغتاله ، فانني لابتسامة من هذه الابنة ابذل حياتي واسحقك تحت قدمي ، واضحي اسبارنس ، انني احبها كما لو كنت لم احب احدا بعد ، ومع ذلك فهي ترفض هذا الحب ، واما انت يادوقة دوبان ، انت السيدة الشريفة التي لها الثروة والمجد والخدم والحشم والرفعة والعظمة فقد سلمتني نفسك

لدى اول كلمة

ــ شقي ، لئيم ، دنيء

ــ انني احبها واحبها كثيرا ، وبمقدار حبي لها هو بغضي لك ،

ــ اذن انا الة بيدك للحصول على رغائبك ، قالت كلاديس وقد وضعت رأسها بين يديها وقالت ايضا ، نعم هذا هو دم الاميرال الذي يصرخ الانتقام ، اننا كلانا قاتلان

ــ اخرسي ، انتهرها روسكوف وقد ارتعب لدى سماعه هذا الكلام

ــ اخرس ؟ سوف لا اخرس ، نعم هذا هو دم الاميرال دوبــان الذي يصرخ طالبا الانتقام

ــ اخرسي ، فانني اسمع حركة في الغرفة المحاذية

ــ وماذا يهمني ، انني اصرخ بملء صوتي وابين للعالم الذنب الذي اقترفته

ــ وقد كنت شريكة لي

ــ ليكن ، ولكنني كنت منقادة لك ايها الشيطان ، لقد قصدت ان تميت هذا الرجل فلم اعارضك ولكن مساعيك اخفقت ، ان اسبارنس سوف تتزوج كوتياه لانني اريد ذلك الان ولهذا لا يمكنك الحصول على ثروة دكسون

فتقدم روسكوف ولطم كلاديس على وجهها

ــ اصغي لما اقول ، قال وهو ماسك بخناقها ، كلانــا قاتلان والمتصلة تنتظر كلا منا ، فليكن ذلك ، ولكن

اما هي فكانت ترتجف من الخوف

فانم قائلا

ــ ولكن امنعك عن الموافقة على زواج ابنتك من كوتياه دكسن

ــ واذا رفضتِ مجاراتك

ــ اقتلكِ كما قتلت ذاك

ــ الموت لا يخيفني لانني قانطة من الحياة ، تعسة وشقية ، لكنها كانت تشعر من نفسها بانها لا تقدر على المقاومة فارتمت على ركبتيه وقالت والدموع تكاد تخنقها

ــ اغفر لي فانني احبك ، لا تقل ما يكسر فوءادي ، انني تعسة ، شقية ، وقد كانت سورة الغضب في قوية فاعذرني ان بعدك عني قد قادني الى الجنون وها انني اصرف ليلي بانتظارك متطلعة من نافذة غرفتي ، ولما ابصرتك البارحة برفقة تلك المرأة كدت اموت كمدا ، قصدت اولا ان لا اقول لك شيئا ولا اوبخك على مـا فعلت ولكنك كنت قاسيا في معاملتي ، تذكر الماضي ، تذكر كم كنا نحب بعضنا بعضا ، عد الي فافعل لاجلك كل شيء ، ان جمالي سيعود الي لان الاحزان هي التي افقدتني اياه ، كن انت الامر وانا المطيعة

وكان ينظر اليها وعيناه لا تتحركان ثم افتكر وقال لذاته

ــ لا بد لاتمام مقاصدي من تمثيل دور الحب مرة اخرى فاخذ كلاديس بين ذراعيه وضمها الى صدره قائلا

ــ تعزي واصفحي عن كل ما قلته لك الان ، فانني احببتك ولا

ازال احبك وانت تعلمين ذلك

فساد السكوت وتيقن روسكوف انه ربح المعركة

وفي الغرفة المجاورة سمع حركة

هنالك كانت اسبارنس جالسة وبالكدّ تقدر ان تقف الا انها من وراء تلك السجف الثقيلة التي كانت تفصلها عنهما قد سمعت كل شيء وعرفت بكل شيء ، ولما حاولت المشي في الغرفة كادت تقع على الارض فاضطرت ان تستند على الحائط والكراسي وتتقدم حتى وصلت الى غرفتها فارتمت على مقعد هناك لا تعي على شيء خائرة القوى متضعضعة الفكر دامعة العين

هل كانت لتموت هناك على تلك الحالة ؟

ان مرآة في الحائط طبعت على لوحها صورة وجهها الشاحب وعينيها المنبعثة منهما اشعة القلق والاضطراب والجنون

كانت قد سمعت ووعت كل شيء واطلعت على السر الخفي الهائل الذي يخفيه هذان الشقيان قاتلا ابيها

وكانت هذه الامور اكثر مما تقدر على احتماله فوقفت في موضعها فاقدة الرشد ولما عادت الى رشدها كان الليل قد ارخى سدوله وبالكدّ قدرت ان تنظر الى وجه امرأة قلقة كانت منحنية فوق رأسها

— هذا كان وجه والدتها

— ما بالك ؟ قالت كلاديس بصوت خافت ، لماذا لم تدعي جولين ؟ لقد حان وقت العشاء فهلا تقدرين على النزول الى غرفة المائدة

اما اسبارنس فبقيت ساكتة

ــ هل تريدين ان تستدعي طبيبا .

ــ لا اشعر بشيء دعيني وشأني

ــ انك ترتجفين ويداك كالجمر ، انك محمومة

ولما ادنت كلاديس النور من وجه ابنتها صرخت هذه قائلة

ــ لا، لا اريد ان اراك ، دعيني لوحدي هنا ابكي تعاستي ، فاصفرت كلاديس ولم تجسر على سؤالها بيان السبب وارتجفت كل اعضائها

ــ خففي روعك ، ما بالك ، اين رشدك ، هل انت مجنونة ؟

ــ نعم لقد اضعت رشدي ، انني مجنونة انني سمعت غلطا ، ولكن اذني لا تزالان ترددان صوت روسكوف وصوتك ، اه نعم انني مجنونة

فتصبب العرق باردا من جبين كلاديس وفهمت ماذا تعني ابنتها وتراجعت الى الوراء وهي مرتعدة ، ان اسبارنس كانت قد اطلعت على سرها الخفي وتلك الخطوات التي سمع روسكوف وقعها كانت خطوات اسبارنس

ــ نعم ، نعم ، قد تذكرت ، قالت اسبارنس وهي ترفع يدها فوق جبينها ، نعم انني اذ كنت في تلك الغرفة قد سمعت اشياء راعبة

ــ انت مجنونة يا ابنتي

ــ ياليتني كذلك ، كم اود ان اكون مجنونة ، ولكنني لست

كذلـك ، انظري الي تري انني لا ازال ارتجف ، اه من ذاك السر المخيف ــ السر الرهيب

ــ اخرسي فمن الممكن ان يحضر احد ، وفي الحال سمعت حركة قوية وارتفع السجف عن الباب وبان منه روسكوف

ــ واخيرا ، واخيرا ، قال وهويتقدم نحو الابنة ، ان الغداء قد اعد

ــ هو هو ، صرخت اسبارنس وقد نهضت من مكانها وبصوت قوي قالت ، القاتل القاتل !

ــ ان هذه الابنة مجنونة

ــ قاتل ! قاتل !

ــ هدئي روعك ، قالت كلاديس وهي تحاول ان تضمها الى صدرها

ــ ولكنها تخلصت منها بغتة وصرخت

ــ قاتل ، قاتل

ــ اخشى ان تنتهي هذه الرواية بفصل محزن ، قال روسكوف وهو يرتجف من الحنق

ــ انت قتلت والدي ، قالت اسبارنس ، وقد امسكت بذراع روسكوف بقوة ، انت قتلته ، ووالدتي كانت شريكة لك في الخيانة ولم يكن البراز الا خيانة منك لاخفاء اثمك ، لقد قتلت والدي ،وانت ووالدتي شقيان قاتلان

ــ هل تريدين ان تحترميني ؟ قالت كلاديس وقد امسكت بها

انت تعلمين جيدا بانك تكذبين ، لقد توهمت ما سمعته ، وما انت الا حمقاء اعماك العشق

ــ اننا سوف نسجنها هنا ، قال روسكوف ببرودة

ــ لا تقدرون على سجني ، قالت اسبارنس ، ولكنني سوف اترك هذا البيت الدنس ، قالت بكبرياء واشمئزاز ، وسوف اذهب لانني لا اقدر على البقاء في هذا الجحيم ، ولكنكم تقدرون ان تثقوا من انني لا اقول شيئا عن الجناية التي ارتكبتماها اعتبارا للاسم الذي احمله

ــ سوف لا تذهبين من هنا ، قال روسكوف وقد اعاد الابنة بعنف بعد ان كانت قد اقتربت من الباب وقال ثانية سوف لا تذهبين

ان ذهاب اسبارنس ضربة على روسكوف لانه لا يعود يقدر ان يحصل على امضائهـا ليأخذ مـا يريـده من المال ، لذلك نظر الى كلاديس وقـال

ــ منذ الان لا تخرج من هذه الغرفة ، قال ذلك وقاد كلاديس خارجا واقفل الباب

اما اسبارنس فلم يكن ليخيفها هذا السجن لانها كانت قادرة ان تتحين بصبر الفرصة المناسبة للهرب

•••«(•)»•••

الفصل الحادي عشر

مضى خمسة عشر يوما على الحوادث التي ذكرناها حتى كان صباح يوم من شهر تشرين الثاني وكان المطر يتساقط بغزارة فتقدمت عربة في طريق سافار ووقفت امام بناية كبيرة مكتوب عليها

ملجأ العجزة

فنزل السائق من المركبة وفتح بابها فبانت منه صبية هي مدموازال دوبان وبعد ان دفعت للسائق اجرته واعطته بخشيشا تقدمت الى الباب الضخم وقرعته بيد مرتجفة

فاقبلت احدى راهبات الشفقة وفتحت الباب

ــ ماذا تريدين ياسيدتي

ــ الاخت روجينا

ــ ان الاخت روجينا في الخارج ولكنها ستعود قريبا اذا كانت سيدتي تريد ان تنتظرها

ــ بكل سرور

ــ ان الاخت روجينا ذهبت الى باريس لتستعطي في حي المادلين ، والرب اعطاها قوة الاستجداء والحسنات تتساقط بين يديها، وكانتا وهما تتحدثان قد دخلتا الحديقة التي كانت تتساقط اوراقها

وتنظران للعجزة هنا وهناك يودعون نسيم الخريف المنعش استعدادا للشتاء

— هل تريد سيدتي ان تزور دار العجزة ؟ قالت الراهبة

— بكل سرور

فتقدمتا معا في غرف المائدة والنوم حتى وصلتا الى الكنيسة فركعت كلتاهما تصليان بحرارة حيث وجدت اسبارنس بعض العزاء لقلبها المنسحق وبانت دلائله على وجهها بعد ما قاست انواع العذاب في سجنها الذي خرجت منه بمعونة جوليان وكان اول شيء عملته انها ذهبت الى محرر المقاولات المسيو ليمارلانها رغما عن صغر سنهـا كانت ورثت عن والدهـا الدقة بالاعمال فاخذت منه بعض المال واعطته التعليمات اللازمة بان لا يدفع شيئا فيما بعد الى روسكوف وتوجهت لمقابلة روجينا وهناك وهي مستغرقة في صلواتها ورأسها بين يديها انتبهت ليد لمست كتفها فالتفتت وصرخت

— روجينا

— انت ؟ قالت روجينـا بصوت رقيق كالنسيم ، اهـذا انت ياعزيزتي اسبارنس ؟

وكان النور القاتم الداخل من زجاج الكنيسة الملون قد منع روجينا من ان ترى علائم الحزن والاضطراب على وجه اسبارنس

— كم انت جميلة باثوابك هذه ، قالت اسبارنس وهي تتامل روجينا

ــ ان خادمة الفقراء دوما جميلة ، اجابت روجينا ، ثم اخذت يد الابنة وقادتها الى غرفتها

ــ انظري ايتها العزيزة المقر الذي المس فيه السعادة ، هنا قد عرفت اشهى ايام الحياة ، وثقي يا ابنتي العزيزة ان الله قد اعاضني عن كل اتعابي الماضية

ــ لقد اخذت تحريرك البارحة قالت اسبارنس ، فان جوليان اوصلته الي وانت ولا شك تذكرينها من سان سافان ، ان الله قد الهمك الكتابة الي وانا في احرج اوقاتي واشد احزاني

ــ وهل انت حزينة ؟ وهل كوتياه هو السبب ؟

ــ انني سوف اتزوج كوتياه ولكن ذلك لا يكون قبل ان اصبح حرة في تصريف اموري ، انما ليس ذلك ما يحزنني قالت بحرقة

ــ اذا لم يكن ذلك فلا اريد ان اعرف سبب حزنك ، انني اشعر ياولدي بان هناك سرا تريدين ان تحفظيه لذاتك وهو سر اتعبك جدا ولا تقدرين ان تبوحي به لاحد

ــ كم انت قادرة على فهم افكاري

ــ انك تعسة وتطلبين المعونة مني فماذا اقدر ان اصنع في سبيلك ياملاكي المحبوب

ــ ان تحفظيني معك هنا

ــ حبذا لو كنت اقدر قالت روجينا بلطف ، لاننا هنا لا نقبل الا العجزة والفقراء وانت فتاة غنية

ـــ اذن ماذا سيحل بي ؟

ـــ وهلا تريدين العودة الى والدتك ؟

فارتجفت اسبارنس وقالت ، لا . لا .

ـــ وهل عدت فنظرت كوتياه

ـــ نعم نظرته وعلا وجهها الاحمرار

ـــ وهل يعرف قصدك بتركك بيت والدتك ؟

ـــ هو يجهل ذلك لان هناك اشياء لا يمكن ان تقال

فافتكرت روجينا فيما سمعت « هناك اشياء لا يمكن ان تقال » ثم ادركت المغزى لانها كانت قداطلعت على جميع اسرار عائلةدوبان وحفظتها رغماعما لحقها بسببها من الاهانة والعار حتى انها احتملت الطرد ومات الاميرال وهو يعتقد بخيانتها ومع ذلك بقيت محافظة على تلك الاسرار نعم ان اسبارنس كانت محقة بقولها ذلك وكانت روجينا تود لو امكنها ان تعرف تفاصيل تلك الاسرار التي تحزن حوادثها اسبارنس لتجتهد وتخفف عنها عذابها

ولكن اسبارنس بقيت مصممة على ان لا تبوح بالحديث المخيف الذي كانت قد سمعته

ـــ اذن قد عدت فنظرت كوتياه ، قالت روجينا وهل هو قابل والدتك ؟

ـــ نعم

ـــ اذن ؟

ــ كل ما كنت تعتقدينه قد تم فان والدتي قطعت كل علاقة لي معه

ــ وهل هذا ما يحزنك ؟

ــ لا، لا، ان كوتياه سيبقى مخلصا لي والى ان ابلغ رشدي يكون قد احرز الشهرة التي يتطلبها ثم انني عرفت بواسطة جوليان انه ذهب الى ايطاليا وسيمكث هناك هذا الشتاء

نعم ان ذهاب كوتياه كان قد غمها ولكن التحرير الذي ارسله اليها مع جوليان بعباراته الصادرة عن قلب مخلص في الوداد وتاكيده الثبات على العهود كان قد اوجد الطمأنينة في فوءادها فالقت راسها على ذراع روجينا وقالت ، خذيني بين ذراعيك كما كنت تفعلين في الماضي وكلميني عن كوتياه ، نعم سوف اتزوجه رغما عن روسكوف ورغما عن والدتي وهو للحصول على يدي سوف لا يضطر الى اتيان اي عمل مغاير للشرف ، وسوف لا يكسر قلب المحسن اليه بنكرانه الجميل واقامة الدعاوي كما يريد روسكوف

ــ لماذا تريدين اذن ترك والدتك ؟

ــ لا تسأليني عن هذا الامر ، لا تساليني السبب مطلقا

ــ اه ، قالت روجينا مذعورة ، ماذا يجري اذن ، وكانت تحدق نظرها بوجه الابنة وتفتكر في نفسها قائلة ، هل ياترى عرفت بالسر الرهيب وبالحادثة المؤلمة التي حدثت في عائلة دوبان

ــ انني لن اسألك شيئا بعدالان ، ولا اريد ان اعرف شيئا ،

فاعذري فضولي يا اسبارنس ولا اسألك لماذا تركت بيت والدتك لانني متيقنة من سمو مداركك واعتقد انه لو لم يكن هنالك سبب كاف لما اقدمت على ذلك ، ثم انني افتخر بانك ياولدي قد حضرت الي في ساعة ضيقتك ومع الاسف لا اقدر ان احفظك هنا ولكن حيث اريد ان اخذك ستكونين براحة وامان اكثر من اي موضع اخر ، سوف اخذك الى مدموازال ملدلين برامون اذا اردت فهي فتاة شريفة جميلة وكريمة تقدر ان تخفف من احزانك وتكون لك رفيقة محبة

ــ انني اصنع ما تريدين ايتها العزيزة

ــ سوف نذهب حالا ، انها اديبة كريمة تقضي اوقاتها وتصرف معظم ثروتها في اغاثة الملهوف واسعاف المنكوب والعطاء للمعوز ، وكثيرا ما كان لملجأ نا نصيب وافر من كرمها واحسانها وقد نظرتها البارحة عائدة من زيارة في السافان حيث كانت في حفلة تدشين الملجأ الخيري الذي شاده جوست مسمر

ــ كثيرا ما يتحدث الناس عن اعمال هذا الرجل الخيرية

ــ هومحسن ومسعف للبشرية التاعسة ، نعم ايتها العزيزة انه يستحق كل مديح

وكانت اسبارنس مع كل ما لديها من اخبار الحوادث لتقصها على روجينا لم تجد في تلك الساعة غير الافتكار بمصيرها وبالخطة التي ازمعت عليها مع علمها الاكيد بان والدتها وروسكوف لن يرضيا عنها الا انها كانت مصممة على المقاومة الى النهاية

— اذن انت سعيدة في خلوتك هذه وغير نادمة على انقطاعك عن العالم

— انك تدعين هذا المكان الجميل بحدائقه الغناء وازهاره واشجاره خلوة ! اه ايتها العزيزة كم هي جميلة هذه الحياة ، نعم اننا لسنا اغنياء حتى اننا في هذا النهار لا نعلم كيف نقدر ان نشبع عجزتنا غدا ولكن ايماننا بالله متين فهو ينظر لحالنا ويرسل لنا من حيث لا نعلم وسوف نذهب للاستعطاء باسم فقرائنا ونعود وايدينا ملانة من الصدقات ومع ذلك فانت تسمين هذا المكان خلوة ، سميه البيت السعيد البيت المبارك وانظري الى هذه الحديقة ، هذه الاشجار الباسقة هذا البستان المثمر ، انظري هناك في الافق قمة جبال السافان واصغي لخرير المياه المتدفقة في النهر وحينئذ لا تسمين هذا المكان خلوة ·

— نعم كان هنالك في لورد خلوة

— في لورد ?

— انك تجهلين ماذا حدث لي بعد تركي اياك فانا ساقص عليك الخبر

— لقد مكثت في لورد ستة اشهر كنت فيها مستحبسة في بيت منفرد لا اخرج منه مطلقا وانــا سميرة احزاني ولا يعلم الا الله كم قاسيت وبكيت في تلك الخلوة وهنالك عرفت بموت الاميرال دوبان المسكين ، بموت ذاك الشهيد الذي لم يكن احد يعرفه مثلي وحينئذ غادرت لورد الى باريس اطلب نصيحة الاب اوليفاه وقد كنت صغيرة

جدا في زمن الحصار ولكنك ولا شك تذكرين ذاك الاب الفاضل الذي كان يحضر الى قصر البسكال وكان لـه الفضل الاكبر في السعي لادخالي الى هذا المكان وجعلي خادمة للخير

— انت سعيدة اذن ؟

— بكل تأكيد ، على انه يقتضي لاتمام سعادتي شيء واحد وهو ان اراك سعيدة فارتمت اسبارنس بين ذراعي روجينا وقالت ، « لا عدمتك من مخلصة شفوقة »

وبينما كانت روجينا واسبارنس تسيران في شارع فولتار كان روسكوف وكلاديس باشد حالات القلق والاضطراب لانهما كانا قد عرفا بذهاب اسبارنس من تحرير كانت قد تركته في غرفتها تقول فيه انها لن تعود الى البيت الوالدي ، وكان روسكوف قد ارتأى ان يعلم ادارة البوليس الا ان كلاديس اعترضت خوفا من ان تفضح اسبارنس الاسرار التي كانت قد سمعتها ولذلك قررا ان يعالجــا الامر بــالصبر والانتظار رغما عن ان ذهاب اسبارنس قد وضعهما بمركز مالي حرج لان كلاديس وهي وصية ابنتها لا تقدر ان تقبض الا دخل الثروة فقط وهذا لا يكفي لمصاريف روسكوف ومقامراته ، اما الثروة الاصلية فيقتضي امضاء اسبارنس لسحب اي مبلغ منها وكان هذا ما يقلقهما اكثر من اي امر اخر

اما روسكوف فبعد ان استعلم عن كوتياه بواسطة محاميه تسيوا وعرف انه موجود في رومية وان اسبارنس ليست معــه تيقن انهــا

موجودة في باريس ولكن اين ؟

ــ لماذا لا تذهبين الى محرر المقاولات وتطلبين مساعدتــه لايجادها ، قال رومكوف لكلاديس

ــ لا فائدة من الذهاب اليه لانه على فرض معرفة مقرها فهو لا يبوح به

ــ لا يقدر ان يخفي ابنة عن والدتها ، خصوصا متى كان سلوكها على غير ما يجب وعلى الوالدة اصلاحه

ــ اذن سوف اذهب

الفصل الثاني عشر

وفي صباح الغد قصدت كلاديس الى مكتب المسيو ليمار محرر مقاولات عائلة دوبان واذ راها مبكرة عرف القصد من زيارتها ،وحالما وقعت عينها عليه قالت

ــ ان ابنتي تركت البيت دون ان تذكر لنا مقرها ونعتقد انــا وزوجي بانك تعرف ذلك فهل لك ان تفيدنا عنه ؟

ــ ان مدموازال دوبان قد حضرت البارحة وسحبت مبلغــا من الدراهم

ــ وهل اعطيتها ما تريد؟

ــ بنون تردد

ــ او لم تقل لك الى اين هي ذاهبة ؟

ــ كلا ياسيدتي ، ان كل ما عرفته هو انها خصصت لكم قسما من دخل ثروتها وتركت الاوامر المشددة بالمحافظة على الثروة الاصلية

ــ حسن ولكنني اعتقد ياسيدي بانك لا تجهل انني وصية ابنتي

ــ انا اعلم ذلك ياسيدتي ولكنني اعلم ايضا بانك كوصية يطلب منك المحافظة على هذه الثروة

ــ انا اعرف واجباتي ، قالت بكبرياء وغضب وخرجت من المحل

اما روسكوف الذي كان ينتظر نتيجة هذه المقابلة على احر من الجمر فقد صرخ صرخة القنوط لدن ابلغتـه كلاديس ما دار بينها وبين محرر المقاولات من الحديث وقال

ــ وماذا يبقى لنا اذن ؟ ان قصر ميات وقصر سان سافان لا دخل منهما فاما ان نعتزل هنا مدى الحياة او نعود الى سان سافان لنعيش بين المزارعين

ــ انني قلقة نظيرك على انني ارى من الجهة الثانية ان اقتصادنا بالمعيشة والتصرف بحكمة مع ما ابقته اسبارنس لنا من دخل ثروتها الذي يتجاوز المائة الف فرنك يكفل لنا العيشة الهنيئة الهادئة على ان ذلك لا يكفي لاشباع مطامعك بـالمقامرة والسباق وهدايـاك الى راقصات الملاهي واهل الخلاعة .

ــ وما هي الحياة الهادئة التي ترسمين طريقها ؟ من الضروري

الاهتداء الى ابنتك التائهة واعادتها الى هنا

ــ انا على يقين من ان اسبارنس غير بعيدة وانها ملتجئة الى احد الاماكن النظيفة على ان السعي لوجودها واعادتها عنوة قد يكون فيه بعض الخطر

ــ انت حمقاء ياعزيزتي في تقديراتك هذه ومن الخطأ الفاضح تركها بعيدة عنا

ــ اذن عليك باحضارها

ــ هذا ليس من خصائصي بل هو من واجباتك

ــ واذا قلت لك ان اسبارنس تعرف كل اسرارنا ــ تعرف بجريمة سان سافان الهائلة ــ تعرف بمقاصدنا نحو جوست وكوتياه ، وانها اذا كانت لا تبوح بشيء من هذه الامور فماذلك الا محافظة على الاسم الذي تحمله

ــ انك تتكلمين كمن بيده ميزان العدالة والحكمة

ــ انك لا تريد ان تعمل بمشورتي وتنتظر عودة اسبارنس عن طيبة خاطر والى ان نعود نسعى كلانا لتخفيف نفقاتنا والاقتناع بريع ثروتها فقط

ــ ولكن وانت وصية ابنتك واعتقد ان لك الحق بثروتها كلها تتصرفين بها كما تريدين

ــ قابل المسيو ليمار محرر المقاولات فهو يعرفك ما هي حقوقي

وكانت هذه المشاحنات تتكرر كل صباح بين كلاديس

وليونال حتى لم يعد لهذا من سبيل للخلاص منها الا بــالالتجاء الى محال المقامرة والسباق والملاهي قتلا للوقت وتسلية للخاطر ، وبينما هو ذات يوم في محل السباق مر تسيوا المحامي الذي كان كلفــه سابقا بملاحقة كوتياه واقناعه بمطالبة جوست وفيما هما يتجاذبان اطراف الاحاديث اخبره روسكوف عن اختفاء اسبارنس

ــ ان ادارة الشحنة تقدر ان تعيدها ، قال تسيوا ، وانني لاعجب كيف انكم لا تلجأون اليها ، الا انني ارى بعض الخطر من الجهة الثانية لان ادارة الشحنة متى علمت بما جرى سوف تبحث عن جميع وجوه الامر وقد لا يروقكم ذلك ثم نظر الى روسكوف نظرة استهزاء وقــال : دلدشت

ــ وارث دكسون ؟

ــ قد تركته

ــ ولماذا ؟ انك لفي خطــأ يــامسيو روسكوف فمن السهل استجلاب كوتياه لجهتكم ودفعه الى المطالبة بالارث

ــ انك ادرى مني بما يعتقد كوتياه بهذا الامر

ــ انا اعرف بان كوتياه لا يريد ان يقابل معروف مسمر نحوه بنكران الجميل ولكن جوست غير خالد وبموته تتغير مبادىء كوتياه

ــ قد يكون ذلك ولكن قد يعيش جوست اكثر منك ومني

ــ وغرام كوتياه ومدموازال دوبان هذا السلك الكهربــائي الذي يربط هذين القلبين مفتاحه بيدك وهو سلاح قاطع ، قال ذلك

وصعد الى احدى المركبات العائدة نحو باريس تاركا ليونال يتقدم على مهل نحو المدينة يقتل الوقت بكل شيء ويلهو باقل حركة وقد استوقف نظره عدد من المارة تجمعوا حول مظلة كبيرة تحتها رجل يدير بيده دولاب يانصيب فدفعته الرغبة في التفرج الى الاجام واذا به عن غير قصد قد لفظ اسم بوادو

— لخدمتك ياسيدي ليونال روسكوف

— وماذا تعمل هنا ؟

— كما ترى

— وفنطوش ؟

— يمشي وراء الزبائن لان ليس من السهل وجودهم ولولا الاعتقاد المعشش فينا لما كنا نجد احدا

وكانت الجموع بدأت تتفرق فسار بوادو في طريقه يتبعه فنطوش من بعيد الى أن غابا عن الابصار فتقدم اليه وقال

— وكم حصلت من هؤلاء المجاذيب ؟

— ثلاثين فرنكا وهي معي

— انت تحتفظ دوما بالدراهم اما انا فما علي الا العمل

— وما الفرق سواء كانت معك او معي ? أفلست بثيابك المرتبة وقبعتك العالية اسعد خلق الله ? وكانا وهما يتحدثان قد وصلا الى كوخهما في جسر النهار وجلسا الى طاولة قديمة عليها جريدة قذرة

وفوقها بعض قطع اللحم المقدد وقنينة نبيذ وفيما هما يأكلان قال بوادو

ــ لم اخبرك عما صادفت في هذا النهار

ــ لا انك تزعجني باسرارك

ــ صادفت عشيق الدوقة دوبان الجميلة ، فهل تذكره ؟

ــ نعم

ــ ذاك الذي كان قد سألني سابقا ان اترك له عنواني

ــ نعم وسنلتقي به مرة اخرى وفي الحين القريب يكون غنانا عن يده

ــ فليستجب الشيطان دعاءك ، لاننا بحاجة كلية الى الدراهم ومن الثلاثين الف فرنك التي اقترضناها من خزينة الدوق دوبان لم يبق لدينا غير حصان هزيل وعربة قديمة وما ذلك الا ان طمعك بالغنى السريع ومر اهناتك في السباق قادتنا الى هذه الحالة التعسة والى احتراف هذه الحرفة التي تعرضنا في كل دقيقة للوقوف امام العدالة

ــ انا اعتقد بان حالتنا ستتغير اذا شرفنا فريسة اليوم بزيارة

ــ واذا قلت لك ان لدي شيئا جديدا قد يوءثر على مستقبلنا

ــ وما هو هذا الشيء ؟

ــ انا اعرف ماذا حل بكازال وكوكوس

ــ لا تحدثني عن اعرجك ورفيقته

ــ اذا قلت لك ماذا عرفت تتعجب جدا

ــ ماذا عرفت ؟

ــ كازال صارت راقصة

ــ في احد المراقص الدنيئة

ــ اشرف من ذلك

ــ في سان كلود

ــ لم تصل بعد اليه ، قال فنطوش وهو يفرك يديه

ــ انك تسخر بي

ــ كلا فان كازال راقصة وقد جعلت سكان باريس قيد خطواتها

ــ الست كاذبا في ما تقول ؟

ــ كلا فهي ترقص في الاوبرا

فبهت بوادو اما فنطوش فتابع الكلام قائلا

وتسكن في قصر جميل في باسي ولديها الخدم والحشم والخيل والعربات

ــ ابنتك ؟

ــ نعم ابنتي هي ساحرة الاوبرا ومليكة الرقص والغناء ، تنهل عليها الخيرات والنعم ، نعم ابنتي ، كازال ، اه كم انا مشتاق لرؤيتها ، وهي وكوكوس لا يكادان يفترقان وقد نظرته في هذا النهار داخلا الى القصر

ــ وعلى اخر زي ، قال بوادو ، على ما اظن

ـ كلا، فانه يبيع دوما تماثيل خزفية على جاري عادته وقد هزل كثيرا حتى اخذتني الشفقة عليه واستوضحت اهل الجيرة ما اذا كان يسكن هو ايضا في القصر فقالوا كلا ولكنه ولد فقير تشفق كازال عليه وتحسن اليه

ـ كل هذا حسن ، ولكن كيف وجدت مدموازال فنطوش

ـ شاهدتها يوما تتنزه في حرج بولون ولم اعرفها اولا لدلائل الغنى والاسراف البادية عليها واذ لم تكن وحدها لم اتقدم لمحادثتها على انني هدأت روعي وتبعتها من بعيد حتى عرفت مقرها

ـ لم تذهب بعد لمقابلتها

ـ لم اجسر على ذلك

ـ هي ابنتك ، اليس كذلك ؟ ان لك الحق بالسكنى معها

ـ لم اجسر اولا على الدنو من قصرها حيث شاهدت كوكوبس وشاهدت ايضا عشيق دوقة سان سافان

ـ وماذا تختط للمستقبل ؟

ـ لا اعرف بعد

ـ لماذا تتردد عن مواجهة ابنتك ؟

ـ لا اجسر على ذلك

ـ انني اذهب اليها بدلا منك اذا كنت ترغب

ـ انهذا من خصائصي ولا اريد منك التدخل فبذهابك اليها تهدم كل ما ابني للمستقبل لانني اعرف كازال فهي فلذة من كبدي

وانا فخور بهذه الدرة الثمينة والابنة الشريفة ، انهـا اميرة في جميع تصرفاتها والعالم لا يقدر الا ان ينحني امامها احتراما واعجابا ، اه كم انامشتاق لرؤيتها على انني اوصيك بالا تذكر شيئا من هذا لان اقل اشاعة بان لها علاقة معنا تكون الضربة القاضية عليها

ــ كن على ثقة من انني لا اتلفظ بشيء ، ولكن في اي وقت تذهب لمقابلتها ؟

ــ سوف اذهب هذا المساء وانتظرها عند باب القصر فهي لا تعود الا حوالي الساعة الواحدة فلا ازعجها في مثل هذا الوقت

ــ هذا هو الوقت الذي تزعجها فيه ؛ قال بوادو باستهزاء

ــ انك على خطأ مبين يا اخي ، فان كازال تعود دوما منفردة

ــ اذن ستذهب هذا المساء

ــ بكل تأكيد

وفيما هما في الحديث واذا بقرع خفيف على نـافذة الكوخ الوحيدة

ــ زائر ، قال بوادو وهو يتقدم الى النافذة

ــ ادخل ياسيدي ، قال وهو يوسع مجالا للداخل الذي لم يكن غير ليونال روسكوف

ــ انا ذاهب الى حيث تعلم ، قـال فنطوش ، ثم مـال نحو روسكوف وقال

ــ ان الامور المهمة لا يقتضي غير اثنين لتقريرها

الفصل الثالث عشر

كانت الساعة المعلقة فوق قبة دار المحافظة تدق التاسعة حين وصل فنطوش الى امام قصر ياسي ، اما كازال فلم تذهب في ذلك المساء الى الاوبرا فبعد ان جال حوالي القصر مدة دخل الى قهوة هناك وبينما هو جالس وامامه زجاجة خمر اذا بشاب خرج من احدالاسواق المقابلة للقهوة وتقدم نحو القصر

وكان هذا الشاب كوكوس فعرفه فنطوش ونهض من موضعه في الحال ومشى نحوه وما كاد كوكوس يهم بقرع الجرس حتى كان فنطوش قد استوى امامه

— الا تعرف اباك بالتربية ؟ قال فنطوش وهو يضع يده فوق صدر كوكوس

— نعم عرفتك يامسيو فنطوش

— نرى انني قد اصبحت بحالة حسنة تستدعي انتباهك الى ان تدعوني « مسيو » اما انت فلا تزال ذاك الولد التعس الهزيل ومع ذلك فما غرضك في هذا القصر الجميل

— انني آت لمقابلة احد اصدقائي

— لماذا الكذب ؟ قال فنطوش وقد مسك بيد كوكوس وشدها بين يديه لماذا ؟ »

— انا لا افهم ماذا تريد ان تقول

— سوف تفهم ؛ انني اريد منك ان تـذهب وتمكث في تلك القهوة المقابلة لهذا القصر وانا الذي اقرع الجرس وادخل بدلا منك

— اه ، كلا ، انك لا تدخل ، قال كوكوس بحدة

— هذا ما سوف ترى فيه ، اليس لي الحق بالدخول الى منزل ابنتي ؟ نعم ان كازال تنتظرك ولكنها ستقابلني عوضا عنك لان بيننا حسابا قديماً يجب ان ننهيه

— انك لن تدخل الى هذا المكان ، قال كوكوس وقد امسك باثواب فنطوش ليبعده من هناك

— سوف ادخل بالرغم منك ، قال ذلك وضرب كوكوس ضربة القته على الحضيض وقبل ان يتمكن من النهوض كان فنطوش قد قرع الجرس وفتح الباب فدخل واغلق وراءه

— ماذا تريد ، قالت الخادمة التي فتحت له

— اريد ان اقابل مدموازال كازال

— انها لا تقابل احدا في مثل هذه الساعة

— ولكنها لاجلي تفعل ذلك

— لا اظن ؛ قالت الخادمة الامينة وهي تلقي على فنطوش نظرات التأمل

— قولي لها انني مرسل اليها من قبل تعس تعشقه واسمه كوكوس

— اه هو نسيب سيدتي الذي يحضر في كل مساء بعد عودتها من الاوبرا ليراها ولكنه يرفض كل مساعدة منها رغما عن تعاسته

ــ هذا هو

ــ اذن ارجو منك الانتظار الى ان اعلمها

قالت ذلك وخرجت من الغرفة ثم عادت بعد هنيهة وقالت

ــ ان سيدتي في انتظارك

وكان فنطوش وهو يتقدم في مماشي القصر يعجب لـدلائل العظمة والاسراف البادية في تلك البسط الحريرية والرسوم الجميلة والتحف النادرة والانوار المتلألئة ثم اوقفته الخادمة امـام سجف مخملي رفعته بيدها وسمع صوت كازال يقول

ــ ادخل ياسيدي

فتراجعت الخادمة وتقدم فنطوش في وسط الغرفة ومـا كاد نظر كازال يقع عليه وتعرفه حتى صرخت من الاضطراب وقالت

ــ انت ، انت !!

ــ نعم انا والدك فنطوش علة وجودك

ــ لم اكن متوقعة هذه الزيارة ، قالت بحدة ، لانني بعد حادثة سان سافان اعتقدت بانك لا تجسرعلى مقابلتي

ــ ومع ذلك فانا هنا وترين من مظاهري انني على غير مـا تعتقدين

ــ انا لا اسأُلك ماذا تعمل ولا ماذا حدث لك لانني منـذ افترقنا عقدت النية على عدم الافتكار فيك والاهتمام بك

ــ اني ارى ان النعمة والغنى والمجد التي تنالينها كل يوم في

حياتك هذه الجديدة تقودك لتناسي والدك وهو علة وجودك

— اذا كنت اربح معاشي فما ذلك لانني اليوم اغنى من البارحة ولانني لن اكون غدا ، فالغنى وحده لا يفيد وفي النفس الام تنزلها الى الحضيض وفي الكون تعساء تستوجب حالتهم الشفقة والحنان

— وانا اولهم

— انت ؟ انني لم اعد اعرفك وقلبي قد اغلق من مـدة دون ذكرك ، لقد جرعتني كاس المصائب طافحة واذا كنت ابتعـد عن الشهرة والمجد فما ذلك الا لان سوابقك المـاضية تخجلني ، لذلك احظر عليك الرجوع الى هنا فيما بعد

— على انك لا تحظرين علي القول انني والدك

— وماذا يهمني وكل سكان باريس يعلمون انني ابنـة رجل مشعوذ ، وما يجهلون هو ان هذا الرجل سارق وانني قادرة على تسليمه الى القضاة اذا احرجني

— عجبا ! انك تخجلين بوالدك وتقبلين عندك ولدا لقيطا

— لا تأت على ذكر كوكوس ، قالت كازال بحدة ودع ذكره صافيا في فؤادي ، انني لا اشعر بالسعادة الا حين يكون هنا وارافقه بافكاري حين ذهابه

— وما هذا التعلق

— لم احب سواه ، وقد ربيته فهو ولدي

— انك تعشقينه

ـ اخرس ولا تتلفظ بمثل هذا الكلام ، ولا تدنس هذه المحبة الصافية

ـ انه تعس يكاد يموت جوعا وانت تنفقين من غير حساب

ـ انا اعرف انه يحصل رزقه بشق النفس ويرفض كل مساعدة وهذا ما يزيدني اعجابا به وتعلقا ، ولقد برهن عن شجاعة وعزة نفس لم اقدر عليهما انا فقد كنا كلانا تاعسين بائسين نحارب الدهر بالصبر والجوع اما انا فقد غلبت على امري ولكن كوكوس برهن على انه شجاع شريف ، فلا تدنس اسمه بشفتيك ولا بافكارك

ـ انك الآن بحالة السعادة والنعم تديرين على مائدتك الخمور المعتقة والمآكل الشهية ولا اجد بلغة اضعها في فمي

ـ فرمت اليه ورقة بمائة فرنك ولكنه رفضها قائلا

ـ قد تكون كافية لاحد خدمك اما انا فلا ارضى باقل من الف فرنك وانك لعلى ضلال اذا كنت تعتقدين انك تتخلصين من والدك بسهولة كهذه ، اما هي فكانت تنظر اليه بكل هدوء وبعد سكوت قليل قالت

ـ يظهر انك لا تزال كما كنت سابقا واذا سمحت لك الآن بالتصرف كما تريد هنا فانك تعود الي في كل مساء لاخذ ما تقدر عليه ، فاما ان تاخذ هذه المائة فرنك واما ان تتركها وتنصرف حالا ولا تعود فيما بعد

وهذه الجواهر قال وقد تقدم نحوها لينتزع الاقراط من اذنيها

وبينما هي تتراجع من امامه مضطربة فتح البـــاب وبـــان منه كوكوس وهو بحالة التهيج العظيم ووقف امام كازال ليحميها وبيده خنجر تلمع شفرته فصوبه نحو فنطوش وقال

ــ اخرج من هنا والا فانني قاتلك ، انك منذ هنيهة رميتني الى الحضيض ودخلت الى هنا بخدعة وانا الان بدوري امرك بالخروج والا قتلتك ككلب حقير ، قا لذلك ووثب نحوه فامسكته كازال بيده وقالت

ــ سوف يخرج حالا ، قالت ذلك وكبست على زر كهربائي امامها فدخل احد الخدم فقالت له ، قد هذا الرجل الى الخارج ولاتسمح له بالدخول فيمـــا بعد تحت اي الظروف ثم تقـــدمت من فنطوش وهمست في اذنه

ــ كنت سارقا وسوف تصبح قاتلا ، وان قبلتك في منزلي اكن شريكة لك في نقائصك فاذهبولا تعد ابدا فقد كفاني مـــا قاسيت بسببك وعبثا حاول فنطوش ان يقاوم لان الخادم امسكه من كتفـــه وقاده الى الخارج

ــ ذهب الان ، قالت كازال ، وقد سمعت اقفال الباب

ــ ولكنه سوف يعود ، قال كوكوس

ــ كلا انه لا يعود ابدا ، وهب انه عاد فسيجد البيت فارغـــا ، وتنهد ت تنهدا عميقا ثم قالت

ــ لو تعلم ياعزيزي الاحلام الذهبية التي احلمها وانا انتظرك

كل مساء على هذه النافذة ، واذا وافقتني فاننا نترك هذه الديار ونذهب الى بعض الجبال البعيدة حيث لا يعرفنا احد وهناك نعيش سوية بهدوء وطمأنينة ونتناسى كل ايامنا الماضية ، في وسعنا ان نشتري بيتا حقيرا نلهو بحديقته وهناك اعود ياعزيزي كوكوس تلك الكازال التي كنت تحبها قبلا ، اني لا ادخر من المال الا لعيشة الكفاف ونحن لم نعتد الغنى وكنا سعداء ايام كنا نحصل كلانا ثلاثين سنتيما في اليوم وانا اوزع كل ما لدي على التعساء وابقي مدخول مائة الف فرنك في الشهر وبذلك اكون كفرت عما ارتكبت من النقائص والزلات وعملت ما يريده ضميرك الحي ونفسك الشريفة ، نعم انا اشعر معك كم هي جميلة مساعدة البائس واعطاء الفقير واشباع الجائع واغاثة الملهوف وكم كنت اضرع لله ان يهبني الغنى ليس لكي اتمتع به بل لاوزعه على المساكين ، لانك ولا شك تذكر كم كنا نشعر بالسعادة حينما كانوا يتصدقون علينا ولو بقطعة من الخبز ، واي سعادة اعظم من ان نجعل البائسين سعداء ؟

— نعم اذكر ذلك

— اذن يروقك قصدي

— وهل تتركين الاوبرا ؟

— بدون تردد

— وبدون ندم ؟

— فبهتت كازال لدى هذا السؤال

ـ سوف تندمين قال كوكوس ، انك تندمين على ترك المجد والفخر ، تندمين حينما تذكرين كيف ان الالوف من الرجال والنساء يصفقون لاقل حركة من حركاتك ولاقل كلمة من كلماتك ، ويتسابقون ليطرحوا تحت قدميك الازهار والورود ، انك لا تقوين على ترك هذه الحياة المملوءة بالاضطرابات والعواصف بين المراقص والمسارح عرضة للمحن والتجارب طمعا بما فيها من المجد والشهرة وابدالها بعيشة الهدوء والسكينة بين الجبال والادغال في حضن الطبيعة الهادئة ، فابقي هنا ربة المراقص وساحرة القوم والهة الملاهي فسكتت كازال قليلا ثم قالت

ـ وانت ماذا يحل بك ياعزيزي كوكوس ؟

ـ انني ابقى كوكوس رفيق الفاقة واليف الفقر وبائع التماثيل

ـ اه لو كنت تجبر قلبي الكسير وتقبل مني مرتبا سنويا الست انا والدتك ولي الحق بل علي الواجب باسعافك ؟

ـ طالما انا قادر على العمل واكتساب رزقي لا اقبل شيئا

ـ انك توءلمني بذلك

ـ ارجو معذرتك ياوالدتي فقد يكون في تصرفي هذا بعض الكبرياء ولكنها فوق طاقتي وبينما كان كوكوس وكازال يتحدثان كان فنطوش يتقدم في تلك الساعة المتاخرة من الليل نحو كوخه الحقير وهو يحترق غيظا لما توقع له وعند وصوله الى امام الكوخ سمع صوت رجل يحادث بوادو فتنحى الى ان خرج الرجل

الفصل الرابع عشر

كان روسكوف قد وقف مبهوتا في وسط الكوخ ينظر الى بوادو ثم مال نحوه وقال

ـ كنت وعدتك بالحضور وانا منجز وعدي

ـ على الرحب والسعة يامسيو روسكوف

ـ انك ولا شك تذكر مقابلتنا في اعالي البيراناه

ـ بكل تاكيد فذاكرتي حسنة للغاية

ـ اذن نحن معارف من قديم وليست هذه بالمرة الاولى في العلاقات بيننا

ـ انني اذكر جيدا فهل لسيدي ان يقول لي ماذا يريد ؟ كان القصد في السابق اهلاك رجل يدعي جوست مسمر الذي يلقبه الفقراء نظيري ملك الذهب

ـ ارى ان ذاكرتك جيدة

ـ واعتقد انني خدمت سيدي بكل نشاط وامانة وان اكن اخفقت سعيا على انه لم يكن لاي كان تحت تلك الظروف ان يقوم باحسن مما قمت به

ـ كنت على غاية الرضى من عملك

ـ اذن ارجو منك ان تتكلم بصراحة تامة وانا اصغي لك

فسكت روسكوف هنيهة يفكر في ما يجب ان يقول و كان يتردد عن وضع ثقته ايضا بهذا المجرم واخيرا قال

— اني وان لم اكن من الاغنياء الكبار ففي وسعي ان اجلب لك السعادة

— حسن ، قال بوادو وهو يفكر فيما يجب ان يعمل للحصول على السعادة

— اذن ؟

— اذن ارجو منك ان تفصح لي عما تريد ان افعل

— في ذلك خطر

— الا تعلم انني قادر على استماع كل شيء وانه لا يوجد شيء يذهلني ؟

— انا اعرف ذلك

— اذن تكلم

— يقتضي قتل شخص

— امرأة ؟

— كلا ، هو رجل

فسكت بوادو قليلا ثم قال ، نعدمه الحياة ويقضى الامر

— كنت علي يقين من انني اقدر ان اتكل عليك

— ليس من خلقي التردد ولكن كم تدفع مقابل ذلك ؟

— قلت لك انني لست من الاغنياء العظام

ــ قد يكون ذلك ، ولكن ما تريد ان اجريــه هو الامر الـكبير ويقتضي له اكثر من رجل واحد وسوف اضطر لطلب مساعدة صديق ولا بد لي من ان ادفع له مبلغا

ــ ادفع لك عشرين الف فرنك

ــ نقدا ؟

ــ النصف نقدا والنصف بعد قضاء المهمة ، ولك مهلة خمسة عشر يوما لقضائها

ــ لا يكفي لانه لا بد من ترقب الفرص وفي اي وقت خابت الضربة الاولى يصعب النجاح بعدها ، انني قديم العهــد بهذه الامور واكلمك عن اختبار

ــ انا اعرف مقدرتك من سرقة قصر سان سافان والصاقك الشبهة بغيرك

ــ نعم ان كوكوس وكازال حملا تبعة الجرم

ــ كازال ! تقول · كازال ؟

ــ نعم كازال ابنة الرفيق فنطوش ملكة الاوبرا اليوم وساحرة الباريسيين

اهذا ممكن ؟ قال روسكوف في نفسه ، كازال تلك الابنة المستعطية ــ تلك التي اتهمت بسرقة قصر سان سافان اصبحت مليكة القلوب وساحرة الالباب ، انني لم اعرفها ، ثم مال نحو بوادو وقال

ــ ان ما اعلمتني اياه الان يفوق باهميته عندي ما حضرت لاجله

ــ قد تكون من عشاقها ايضا

ــ واكثر من عاشق لها

ــ هذا لا يذهلني ، لان جمالها رائع وعشاقها كثيرون

ولهذا السبب اريد ان اكون من الاغنياء لاطرح على قدمي ابنة رفيقك المال والجواهر بدون حساب

ــ ولكي تطرح على قدمي مدموازال فنطوش الذهب والجواهر تريد ان تنزع حياة رجل نظيرك ، فاين يسكن هذا الرجل ؟

ــ في السافان

ــ حسن ولكن السافان مقاطعة كبيرة فزدني ايضاحا

ــ تذهب الى موناسيتاه ومنها على الاقدام الى قصر اربواز

ــ وهل القصر منفرد ؟

ــ تماما

ــ الامر سهل اذن ولكن ما اسم هذا الرجل

ــ جوست مسمر

ــ ملك الذهب ! قال بوادو وقد ارتجف

ــ هو نفسه

ــ لا بد من وجود عدد من الخدم ، قال ذلك وتذكر ذهابه مع فنطوش الى قصر الامبراتريس في وقت الحصار فارتعد خوفا

ــ انك تتردد ، قال روسكوف ضاحكا ، فلماذا الخوف ؟

ــ يوجد هناك حاشية كبيرة

ــ سوف ندبر الامور لاجتناب كل ذلك

ــ حسن ولكن

ــ ولكن ماذا ؟

ــ ولكن ارى ان القيمة قليلة ، ان فنطوش لا يعمل شيئاً بدون مقابل ولا بد لي من مساعدتــه فهو الذي سوف يرقب الخدم ويلهي الكلاب ويلاحظ الاشياء من الخارج

ــ ادفع لك الف فرنك علاوة ولكن لا تسأ لني زيادة الان وفي اي وقت قضي الامر اكون كريما معك

ــ قد اتفقنا

ــ فنقده روسكوف احد عشر الف فرنك وهم بالخروج

ــ اذا اراد سيدي ان ارافقه في الطريق ، قال بوادو

ــ لا موجب لذلك على انني اعتمد عليك بقضاء الامر

وبعد ان خرج روسكوف من الكوخ متقدما في طريقة دخل فنطوش قائلا

ــ قد سمعت كل ما جرى

ــ انك تكذب وتدعي ذلك لتستطلعني الحقيقة

ــ اقول لك انني سمعت كل شيء والامر متعلق بارتكاب جريمة

ــ نعم في قصر اربواز

ــ وكم دفع لك ؟

ــ احد عشر الف فرنك حالا وعشرة الاف عند النهاية

ـ واسم الشخص المراد قتله

ـ مسمر

ـ مسمر ؟ اليس هذا هو الرجل القاطن في شارع الامبراتريس حيث حاولنا الدخول وقت الحصار ؟

ـ نعم

فارتجف فنطوش

ـ اذا كنت تتردد فاني اقدم على العمل وحدي لانني لا اجد فيه صعوبة ولانني اود التنزه في جبال السافان

ـ هل القصر المقصود في السافان ؟

ـ كما تقول

ـ ومتى ؟ وكيف ؟

ـ حين تتمكن من ذلك ، واني ارى ان نذهب اولا الى موناسيتاه بهيئة صائدين لان هذا هو وقت الصيد

ـ حسن قال فنطوش ، بصوت يدل على اضطراب

ـ اراك تضطرب من الان

ـ لا ، ولكن

ـ جبان ،قال بوادو

ـ انني اعترف لك بالشجاعة

ـ هذه هي خطتي

ـ تكلم فانا مصغ لك

ـ اذا قدرنا ان نلاقي الرجل في الاحراج فلا اسهل من قضاء مهمتنا ، والا فاننا نضطر الى دخول المنزل وفي هذا ما فيه من الصعوبة

ـ انا اعرف ذلك ، لان تسلق الجدران و كسر الابواب من دون ما حركة او ضجة ليس بالامر السهل

ـ ان ما يساعد هو ان الوقت منفسح لدينا فنترقب الفرص

و كانا وهما يتكلمان قد وضعا امامهما زجاجة من الكحول واخذا يشربان

ـ انني اوافق على خطتك ، قال فنطوش ، فالاشغال هنا ليست على ما يرام ثم قص عليه باختصار ما توقع له في ذلك المساء

ـ لا بأس ، قال بوادو ،واي وقت رجعنا من قنص الرجل نتدبرالامر معها وانا الذي سوف اتكفل بالامر ، اما كوكوس فان انزاله الى قاع السين ليس من الامور الصعبة ، وكانا وقد لعبت براسيهما الخمرة قد ارتميا على السرير الخشبي الوحيد الموجود في ذلك الكوخ الحقير

الفصل الخامس عشر

في الساعة العاشرة من مساء اليوم الثاني وقفت عربة جميلة امام نادي الامراء في شارع مادلين ونزل منها رجل وتقدم راسا الى الطبق الثاني حيث وضع قبعته ورداءه ودخل الى قاعة الالعاب وكان حول طاولة هناك عدد من الاشخاص يلعبون لعبة البكرا وكان السعد قد

خدم صاحب البنك فما فتئت اوراقه تاتي ثمانية وتسعة

صاحب هذا البنك كان روسكوف ، والغريب كان مسمر

اما روسكوف فلم ينتبه الى احد ممن كانوا حواليه ولما فرغ كان ربحه خمسة وعشرين الف فرنك

ــ انه ربح عظيم ، قال مسمر بصوت عال ليسمعه روسكوف

فرفع روسكوف نظره ولدى وقوعه على مسمر اصفر لونه ولكي يخفي اضطرابه قال بصوت عال

ــ البنك مفتوح فماذا تدفعون ايها السادة

ــ هل المسيو روسكوف يحفظ البنك ؟ قال مسمر

ــ نعم ياسيدي

ــ وكم هو الرسمال ؟

ــ الخمسة وعشرون الف فرنك التي ربحتها لانني اريد اناعطي الخاسرين فرصة للربح

فعطى مسمر القيمة وقال بانكو

ولما اعطى روسكوف الورق كان عدد تسعة من نصيب مسمر فوقف روسكوف تاركا البنك

ــ انا ادير البنك بخمسين الف فرنك ، قال مسمر

فساد السكوت بين الحضور الى انخرقه روسكوف بقوله والغيظ باد على وجهه

ــ انا اغطي القيمة يامسيو مسمر

ولما دار الورق كانت ورقة مسمر التاسعة ايضا

فاكمد لون روسكوف وهم بالخروج فامسكه مسمر من يده وهمس باذنه قائلا

— اريد ان اكلمك ياسيدي ، ولكي نكون منفردين ارجو منك ان تتبعني الى الخارج ، قال ذلك وخرج الاثنان من النادي

وكان المطر يتساقط بغزارة ونسمات الخريف بـدأت تبرد الطقس فقال مسمر

— اذا اردت فاننا ندخل احد المطاعم لانني وصلت من اربواز الساعة التاسعة والى الان لم اتناول طعامي

— وهل حضرت رأساً الى نادي الامراء

— كلا ذهبت اولا الى منزلك

— الى منزلي ؟

— نعم وقد عرفت من مدام روسكوف انني اقدر ان اجدك هنا حيث تقضي اكثر اوقاتك

— يظهر ان ما تريد ان تقوله لي على جانب عظيم من الاهمية

— اهم ما يمكن ان يكون

— تكلم اذن ، قال روسكوف وهو ينظر الى ساعته لان وقتي قصير ولا بد لي من الذهاب الى الاوبرا

— لا بد من العجلة اذن لانهم في مثل هذه الساعة يمثلون الفصل الاخير واذا كنت على ميعاد لموافاة احدى الممثلات فقد يـكون

انتظارها طويلا

ـ اراك ياسيدي تهتم باموري الخصوصية ، قال روسكوف وقد قطب حاجبيه وكانا قد دخلا الى مطعم جوفروا ولما اعاد روسكوف النظر الى ساعته وهم بالذهاب رغما عن تساقط المطر بغزارة امسكه جوست بقوة من يده وقال له

ـ انني حضرت خصيصا من اربواز لمقابلتك لذلك سوف تبقى

ـ ولكن ياسيدي

ـ لا سبيل الى ذهابك لان لا بد لي من محادثتك

ـ انك تستنفد صبري ياسيدي

ـ كن على ثقة من انني سوف اختصر ما قدرت وينفرج لك الوقت لمقابلة من تحب

ـ تكلم حالا فانني مصغ لك

ـ انني في هذا المساء قد ربحت منك خمسة وسبعين الف فرنك

ـ نعم

ـ واي متى تنتظر ان تدفع لي القيمة ؟ لا شك بانك لا تجهل ان دين المقامرة يجب ان يدفع في خلال اربع وعشرين ساعة

ـ انا اعرف هذا ياسيدي واوءكد لك ان المبلغ سوف يدفع قبل مساء الغد

ـ اسمح لي بان اقول لك انني لا اصدق كلمة مما تقول

ـ سيدي !

ـ لا تقاطع حديثي ودعني اتمم ما اريد ان اقوله فقد كنت اريد ان اعتقك من هذا المبلغ ، لانك لا تقدر انتدفعه الامن ثروة مدموازال دوبان وانا احاول ما استطعت المحافظة عليها لئلا تبذرها كما بذرت ثروة والدتها

ـ انك ياسيدي تتجاوز الحد بحديثك هذا وتحاول ان تهيج غضبي فاحذر

ـ ان ما اريد ان اقوله لك هو على غاية الاهمية،قال جوستبرودة

ـ ولكن تكلم

ـ انني سوف ابدأ بقولي لك ما هو جار الان ، فمنذ ايام قليلة كنت قادرا ان تتصرف بثروة مدموازال دوبان ، ولكن تبدلت الحال الان واصبحت اسبارنس مليكة ثروتها ولا تستطيع والدتها ان تقبض منها الا ما تجيزه الشريعة وهو مدخول الثروة فقط

ـ هذا ما سوف نرى فيه

ـ هذا ما قد تقرر وترى انك بنصف ساعة قد خسرت مدخول سنة

ـ قد يكون ذلك ولكن هذامنخصائصي

ـ اتظن هذا ؟

ـ بكل تأكيد

ـ انا لا اعتقد ذلك ، خصوصا ومدموازال دوبان قد تركت بيت والدتها

ـ لجهالة منها ، قال روسكوف

ــ لا بد من امور هامة دفعتها الى الاقدام على هذا العمل وثق بانني عرفت هذه الامور وعرفت الى اين التجأت اسبارنس وعرفت ايضا بانها وهي بحالة الحمى القوية قد افشت اسرارا هائلة

ــ انك تضحكني ياسيدي بما تقول ، قال روسكوف وهو يحاول تهدئة اضطرابه فهل تعتقد انك تخيفني بما تقوله فتاة طائشة وبحالة الحمى ؟ ان كل ما قلته لي لا احفظ منه الا امرا واحدا وهو انك تعرف مقر اسبارنس وبما ان والدتها تبكي لفراقها وهي مضطربة البال لاجلها فانني اكون سعيدا باعادتها اليها فان كنت الرجل الشريف كما تحسب ذاتك يجب عليك اطلاعنا على مقرها والا فقد نضطر ان نلتجيء الى ادارة الشحنة لعلها تكون اسعد حظا منا بذلك

ــ لماذا لم تلجأوا الى ادارة الشحنة قبلا ؟

ونما لم يجب روسكوف على هذا السوءال قال جومت

ــ انا اقول لك لماذا ، « لانكم خفتم »

ــ حقا انك لا تدري ما تقول ، خفنا ؟ ان مدموازال دوبان فتاة طائشة وسبب تركها البيت معروف لدينا

ــ وما هو هذا السبب ؟

ــ ذهبت للاجتماع بكوتياه

ــ انك مخطيء ياسيدي فان كوتياه الان في ايطاليا

ــ هو معها

ــ وحده ومدموازال دوبان في باريس مع عائلة شريفة حيث لا

ترى الا الانموذج الحسن ولا تسمع الا الكلام الصالح ولكنها مريضة وبحالة تشغل البال وانا كطبيب اقدر ان اتصور حالتها تماما واعلم انها نتيجة ضربة ادبية موءلمة يصعب عليها تناسيها

فسطعت اشعة السرور على وجه روسكوف

ــ لا يجب ان تفرح ، قال جومت ، لان موتها لا يجعلك من الاغنياء بــل بالعكس يحرمك حتى دخل الثروة الذي تحصل عليه بواسطة والدتها رغما عما تذيقها من العذاب الذي لم تكن لتقوى على احتماله لولا حبها الزائد لك ، لان اسبارنس وهي الحكيمة العاقلة قد اوصت بثروتها للفقراء لئلا تتدنس بيدك ، اراأيت كيف انني اعرف مقاصدك حتى ما خفي منها

فوقف روسكوف غاضبا وقال

ــ والى اين تريد ان تصل ؟

ــ الى امر هو على غاية البساطة ــ الى امر كنت نزعته من فكري سابقا ولكن الظروف تقودني الى ان انظر فيه الان على غير ارادتي وشعائري وهو اقتران كوتياه دكسون بمدموازال دوبان

ــ اه الى هنا تريد ان تصل ؟

ــ نعم فان حب هذين الولدين قد تغلب على كل افكاري . وتغلب على كل المخاوف التي كانت تجول في مخيلتي لدن تاملي ما يأتيه الارتباط مع ابنة الدوق دوبان من المتاعب

ولكي تنال رضى مدام روسكوف حضرت لمقابلتي في النادي

وربحت مني خمسة وسبعين الف فرنك

ـ انني لا ارجم بالغيب لاعرف انني سوف اربح هذه القيمة منك اما وقد ربحت فما ذلك الا لان الحظ قد خدمني

ـ ولكن زواج مدموازال دوبان ليس من خصائصي وعبثاً حضورك الى النادي لمقابلتي بخصوصه فقد كان الاوفق ان تقابل والدتها

ـ هذا ما لم احب ان اجريه لان بيني وبين الدوقة دوبان هوة عميقة · انني عرفت مدموازال دالابوسيار سابقا وكنت طبيبها ولكنني لم ارها بعد زواجها

ـ انا اعرف كل هذا ،قال روسكوف بعظمة ،نعم اعرف هذا واكثر منه من الامور ولكنني لا اريد ان اقولها لك

ـ هذا خير وابقى ، قال مسمر ،فان من الامور ما يجب تناسيه ولست اقصد من مقابلتك التحدث عن كلاديس دالابوسيار بل قصدت ان احادثك بامر زواج ابنتها من كوتياه دكسون

ـ الذي لا يملك شيئا ؟

ـ وهل ثروة مدموازال دوبان لا تكفي الاثنين

ـ لا اعتقد ان كوتياه يرضى ان يتزوج ابنة يعيش من ثروتها

ـ ولكن كوتياه مصور مشهور

ـ مصور مثل كل اصحاب الفنون الجميلة يموت جوعا قبل ان يصل الى الشهرة التي يقود اليها الغنى وعليه ان يقطع طريقا وعرة

يعيش في خلالها من مال امرأته

ــ قد تكون ياسيدي على صواب في هذا ، فانا اعرف كم يشقى ارباب المواهب والفنون ، نعم ان شقاءهم فوق حد التصور ومن الاسف ان ليس في الامكان اصلاح هذا الخلل في المجتمع الانساني

ــ انت اذن من رأيي وباعتبار هذه الظروف لا يقدر كوتياه ان يحلم بالحصول على مدموازال دوبان

ــ هاك ما قررته ، قال مسمر ، انني اخصص لكوتياه حين زفافه مدخولاً مائة الف فرنك في السنة وبعد موتي يكون له نصف ثروتي ويجب ان تتأكد ان هذه الثروة عظيمة جدا

ــ اي ثروة اخي ، قال روسكوف حانقا ، الملايين التي جمعها دكسون

ــ قد يكون ذلك ولكن هذه الملايين هي الان لي وانا السيد المطلق بالتصرف فيها

ــ لو كان كوتياه يتبع نصائحي لكنت اليوم فقيرا مثلي

ــ ولكن في صدر كوتياه ينبض قلب شريف

ــ لن يحصل على مدموازال دوبان لانني لا اريد ذلك

ــ مدموازال دوبان تنتظر ان تبلغ سن الرشد وينقضي الامر ، ان كل ما تقدر انت على اجرائه هو ان تعوق سعادة شخصين لمدة فقط

ــ فليتزوجا ، بشرط ان تعيد الي نصف ثروة اخي

ــ انك احمق في طلبك هذا

ــ وانك شقي فاحذر ، قال روسكوف بحدة وقد توقدت عيناه

ــ انا لا اخشاك بل اعيد ما قلته لك وهو انك شقي ، بدون شرف ولا ضمير

ــ انا اطلب مبارزتك ، قال روسكوف

ــ وانا ابارزك ، او · لا · فانني لا ابارز غادرا قاتلا ، فقد تغدر بي كما غدرت بالدوق دوبان

فرفع روسكوف يده بحدة ثم اسقطها وهو يفكر في نفسه ، ان هذا الرجل يعرف بالجريمة التي ارتكبتها في حديقة قصر سان سافان · وان اسبارنس التي تعرف السر قد افشته له ، ثم نظر بغضب الى جوست وقال

ــ احذر ان تعيد ما قلته لي الان فقد تكلفك اعادته حياتك

ــ اننا الان في باريس ولا اخشى غدرك ، وان معرفتي بسوابقك تجعلني دوما على حذر منك ، انت ترى انني على علم بكل ماتيك ومفاسدك وكنت اظن دوما ان في موت الاميرال دوبان سرا عميقا على انني كنت لا احب ان اعتقد بان الجبانة تقودك الى الغدر به ، ومجرد هذا الظن وما اعرفه من نقائصك كانا يدفعانني لابعاد كوتياه عن هذا الجحيم الذي اوجدته بدخولك الى بيت عائلة دوبان وقد كنت ارقب عن بعد حياتك واشفق على تلك المرأة التي قادتها الخيانة الى تضحية اشرف رجل على مذبح حب رجل شرير نظيرك

ــ احذر ياجوست احذر

— دعني اتمم حديثي فهذه هي المرة الاخيرة التي نتقابل فيها وجها لوجه

— هل تعتقد ذلك ؟

— بكل تأكيد ، ان نجمي يبعدني عن الدنو من رجل مثلك ، والآن فاصغ لما اريد ان اقول

— اني اعطيك فرصة ثلاثة اشهر للافتكار فيما عرضته عليك ، واطلب منك عند نهايتها ان تحضر لي من مـدام روسكوف دوقـة دوبان سابقا رضاها عن زواج ابنتها اسبارنس من كوتياه دكسون ، امـا الخمسة وسبعون الف فرنك التي ربحتها منك فان زمبا سوف يطلعك على ارادتي بخصوصها غدا

— وهل لم تعرض علي ان تتناساها ؟

— كان يجب ان تستفيد من كرمي في وقته ، اما الان فقد عدلت عن ذلك

قال هذا وساد سكوت كان يتخلله انهمار المطر بغزارةووقع اقدام بعض الحرس الذين كانوا يمرون ذهابا وايابا امام المطعم الذي بدأ يخلو من الحركة لولا صوت مسمر وليونال واخيرا خرق روسكوف السكوت قائلا

— واذا لم احضر لك الوثيقة التي تطلبها في خلال ثلاثة اشهر

— اسلمك ومدام روسكوف الى العدالة كقاتلي الدوق دوبان وتكون ابنته اسبارنس على كرسي الشهادة تعيد ما سمعته من الحديث

الذي دار بينك وبين والدتها

— بعد ثلاثة اشهر يصلك جوابي

— سوف انتظر

— وغدا يصلك الخمسة وسبعون الف فرنك ، قال ذلك وهو يفكر في نفسه انه قبل مضي الثلاثة اشهر يكون جوست قد قتل

الفصل السادس عشر

جلس جوست الى المائدة وهو مسرور من نفسه للشجاعة الادبية التي اظهرها امام روسكوف وقوله له كل ما كان يجول في خاطره وبعد ان بدأ بتناول الطعام اخذ من جيبه تحريراً ليعيد قراءته

هذا التحرير كان قد استلمه في اربواز وهو ما جعله يحضر الى باريس ويقابل ليونال روسكوف وكان قد اعاد قراءته عشرات المرات وهذه صورته

« ياصديقي العزيز ، انني انقل اليك خبرا هاما لا بد من ان يذهلك وهو ان مدموازال دوبان قد هجرت بيت والدتها والسبب الذي احوجها الى ذلك هو فوق ما اقدر ان اتصوره وكان اول ما فعلته انها لجأت الى العزيزة روجينا الملاك الارضي التي كرست حياتها لخدمة العجزة والفقراء في مأوى سافار الذي تعرفه من زياراتنا المتعددة اليه حينما كنا نسعى سوية لتخفيف مصائب التعساء ومساعدة المساكين والفقراء

نعم ان روجينا التي لم تقدر اقذار العالم على تلويث نفسها الشريفة قد انقطعت الى هذا الملجأ الخيري لخدمة الانسانية وتخفيف الام التعساء والمصابين وتسلية العجزة والمقعدين ولم يمنعها عن الذهاب اليك الا خوفها من ان حبها الزائد لك واعتبارها الشديد لارادتك قد يحولان دون اتمام قصدها من الانقطاع تماما عن العالم والرضوخ الى طلبك في البقاء عندك ، هذا ياعزيزي جوست ما منعها من زيارتنا في تلك الجبال حيث كنا ننتظرها كلانا »

« وقد اسعدني الحظ برؤيتها عندي فقد حضرت تستعطي لفقرائها وكلفتني بنقل معذرتها اليك واظهار اسفها لعدم مقابلتك

« وقد كنا ونحن مختليان على حدة نعيد على افكارنا ذكرى الايام الماضية جميعها دون ان ننبس بكلمة ، وكنت اعيد على فكري زيارتها لك في شارع سفولك تلك الزيارة التي لا يفنى ذكرها بمرور الزمان عليها ، انك ولا شك تذكرها وتذكر كيف ان امرأة دنيئة قد كسرت قلبك من دون ما شفقة ولا حنان وانك وانت على اهبة القضاء على نفسك تخلصا من شقاء الحيــاة اذا بروجينـــا ــ الملاك الطاهر توقف يدك عن اتمام قصدك وتقرأ بحدة ذهنها كل مصائبك وقنوطك وتعاستك وفقرك فتترك لك وهي عائدة من زيارتك بعد ان اخذت منك وعد الشرف بعدولك عن الانتحار صدقة القلب المحب »

« انني لا اقدر لدى الافتكار في هذا الحادث على ضبط دموعي وانت قد حفظت هذا السر وحافظت عليه على انني عرفته واذا سالتني

كيف فانا اجيبك لان صداقتنا قديمة حتى لا يوءثر عليها حادث ٠ ان ذلك حدث وقت مرضك في اثناء الحصار حيث وقعت يدي على دفتر صغير فقلبته بغير قصد بين يدي الى ان قرأت في صفحة فيه هذه العبارة

ــ ذكرى موءلمة ــ

وكانت تلك الذكرى زيارة روجينا لك مكتوبة بعبارة من نار تدل على جسامة مصائبك وشدة تعاستك في ذلك الوقت فاعذر ياجوست اعادتها الى مخيلتك الان واعذر تطفلي الماضي ، لقد كنت ياجوست في حالة النزع وكان حبي لك فوق طاقتي ، لنترك هذا الماضي الان فاعود الى ما اريد ان اقوله لك

« في ذات مساء وانا عائدةالى هذا البيت الواسع الموحش بعد وفاة المرحوم والدي دخلت خادمتي تعلن لي زيارة سيدتين

« راهبة وصبية

« وشد ما ذهشت حينما وقع نظري على روجينا بثوبها الاسود الذي لم يكن الا ليزيد نور عينيها الزرقاوين لمعانا

« وعلى بعد بضع خطوات منها كانت واقفة الصبية التي برفقتها فاومأت اليها روجينا بهدوء وقالت

« مدموازال دوبان

« وكانت وهي مقنعة بالسواد اية الجمال فعذرت كوتياه على تعلقه بها

« ومن تأملي فيها ظهرت لي علامات الدموع الكثيرة التي كانت فد سكبتها الا انها لم تكن لتخفي نور عينيها ولا لتمحو ابتسامة الطهارة عن شفتيها وكنت افكر فيماعسى ان يكون سبب حزنها وغمها لما قالت لي روجينا وهي ممسكة بيدي

« جئت اليك بهذا الولد ، ولدي انا لانني انا التي ربيتها ولي الحق بدعوتها كذلك وان ما ارجوه منك لا اعلم اذا كان يقع لديك موقع القبول ؛ لانني اعرف تمسكك بالحق ومحافظتك على الشرف واخشى ان لا يكون لرجائي عندك مكان

« تكلمي ، قلت لها ، قولي ما تريدين وانا لمرضاتك

« لاسباب اجهلها ولا اريد ان اعرفها ايضا تركت مدموازال دوبان بيت والدتها في هذا النهار وأتت لاجئة الي وكان اول ما عملته اني بذلت لها نصيحتي بالعود الى حضن والدتها غير انني عندما تأكد لي رفضها وجدت ان المتوجب علي ان اجد لها ملجأ شريفا واني لي خير من هذا المكان ؟

« كنت اود من صميم فوءادي لو تيسر لي ابقاءوها بقربي لانها ولدي ورفيقة ايام حداثتي ومعزيتي لاحتمال قسوة والدتها وقد كان سروري عظيما حينما ضممتها الى صدري في هذا الصباح لانها اعادت الي ذكرى ايامي بقربها لو لم يعكر سروري معرفتي بتعاستها وعدم تمكني من ابقائها معي لانني وانا في ملجأ الفقراء لا سبيل الى ابقائها عندي وحينما افتكرت في ان اجد لها ملجأ امينا لم اجد الاك

« اما اسبارنس فكانت هادئة في اثنـاء هذا الكلام تنظر الى صورة العذراء امامها كمن يطلب منها المعونة فقد كانت حاضرة غائبة كأن افكارها تحوم حول موضوع بعيد وهي واقفة امامنا تجيل احيانا نظرها في الفضاء الواسع وابتسامة الكآبة بادية فوق شفتيها ولا تعرف عمن تتكلم ، فامسكتها من يدها وقلت لها ، ثقي ياسيدتي بانك تكونين هنا في بيتك واكون انا وخدمي لخدمتك والاخت روجينا بقربك ما استطاعت الى ذلك سبيلا فاسالت هـذه الكلمات دموع اسبـارنس المتجمدة في ماقيها وتساقطت غزيرة كانها اللالىء تقذفها امواج فتعلق حينا على شاطىء الاهداب ثم تنقلب وتتدحرج على وجهها الجميل

« ولكي تخفي اضطرابها تقدمت الى النافذة والقت جبينها الوضاح فوق زجاجها البارد وقد تورمت وجنتاها واحمرت عيناها وكانت الحمى قوية

« فتقدمت نحوها روجينا قائلة وهي تضمها بين ذراعيها ، امريضة انت ? فابتسمت لصديقتها ولكنني عرفت حالا ، وانت تعلم انني نصف طبيب ان هنالك بداية حمى قوية

« وكانت روجينا تنظر الي بقلق فقلت لهـا كوني مطمئنـة ياعزيزتي فاننا سوف نعتني بها ، قلت ذلك واخذت اسبارنس الى الغرفة الفسيحة الزرقاء التي كانت غرفتي وانا في ريعان الصبا

« وان ما خشيته قد تحقق لان اسبارنس قضت ليلا مزعجا كانت فيه بحالة الغيبوبة وفي الصباح ظهرت اعراض الحمى التيفوئدية وفي

حالة غيبوبتها من الحمى افشت اسرارا اضطربت لها انا وروجينا وعرفنا منها سبب كآبة الابنة واحزانها

« آه ياجوست ان كل ما كنت افتكرت فيه وكل ما قلته لي عن موت الاميرال دوبان الغريب كله حقائق افشتها ابنته وهي بحالة الحمى وهذا ما دفعها لترك والدتها . انك تذكر ولا شك محادثتنا في اربواز ونحن في الحديقة حيث زرتك بعد وفاة والدي ببضعة اشهر وقد قادنا الحديث حينئذ الى ذكر عائلة دوبان فقلت لي ما خالفتك آنئذ فيه اما الان وقد باحت به اسبارنس فلا سبيل للريب . فهل من الممكن ان يكون في الكون شرور كهذه والحق يقال ان حياة الدوقة دوبان ليست الا سلسلة جرائم

« وقد بقيت الحمى قوية سحابة النهار وبقيت اسبارنس تصرخ باضطراب معيدة الحديث الذي سمعته من والدتها وروسكوف — ذلك الحديث الذي اود انا وروجينا ان تتناساه . انها كانت ترفع يديها وتبكي وتضحك في وقت واحد وتصرخ قائلة

« انهم قتلوه ، انهم ارتكبوا الجريمة معا في حديقة سان سافان »

« وكنا نخشى ان يسمع الخدم هذا الكلام »

« اه كم كنت محقا ياجوست . فلقد كنت على معرفة بهذين الشقيين . والعجيب كيف يعيش اشقياء مثل هؤلاء . فاين الحق والعدالة الا ان يكون فرار اسبارنس بداية القصاص

« اما الان فان مريضتنا تتقدم نحو العافية وبدأ الخطر يزول .

وما نرجوه هو ان تنسى اسبارنس كل ما قالته في اثناء الحمى حتى لا يبقى هذا الذكر طعنة في فوءادها ونخشى ان لا يكون رجاؤنا في محله لان اسبارنس كثيرا ما تنظر الينا بهدوء وسكينة ثم تقول·وهل غبت عن الرشد ? وتهدئة لروعها تقول لها انها كانت هادئة تماما لان الحمى كانت قوية جدا وبمثل هذه الحال لا يقوى العليل على الحركة والكلام ، فكانت تظهر على وجهها دلائل الارتياح الى هذا الكلام وتسيل الدموع من عينيها

« وكم كنت اتمنى ان يكون كوتياه قريبا لانه هو الشخص الوحيد الذي يقدر ان يخفف هذه الدموع

« اما الان وقد اطلعت ياجوست على هذا السر فهو سلاح لديك يمكنك ان تشهره بوجه مدام روسكوف وزوجها للمدافعة عن مصالح اسبارنس وتضطرهما الى ان يسلما بزواجها من كوتياه الذي سيعود الينا قريبا لك الى الابد »

مادلين برامون

يالك من ابنة شريفة ، قال جوست وهو يطوي التحرير الذي كان قد اعاد قراءته عشرات المرات ، انني منتصح بنصيحتك · قال ذلك وقرع الجرس فحضر الخادم واحضر له الطعام

وبينما كان مسمر يتناول عشاءه بشهية كان روسكوف يتقدم في طريق الاوبرا ويكاد لا يرى طريقه من الغيظ والغضب · وبوصوله الى قرب مدخل الممثلات وجد عربة كازال على اهبة الذهاب ففتح

بابها ودخل دون استئذان فدهشت كازال من دخوله وبينما هي تهـم بان تأمر السائق الذي كان قد اطلق لخيله العنان بايقاف المركبة انحنى نحوها قائلا

ــ انني ات اليك بعد مقابلة فنطوش

فاجفلت لدى سماعها هذا الاسم الذي لم تكن تتوقع سماعـه حينئذ ولكنها ملكت روعها وقالت

ــ وماذا يهمني من ذلك ? انا لا اعرف عمن تتكلم

ــ ارجو منك مراجعة ذاكرتك ياسيدتي ، هلا تعرفين فنطوش؟

ــ كلا لا اعرفه

ــ عجيب ، انك تعرفينه اكثر مما اعرفه انا وتذهلني جسارتك على نكرانه امامي ، لانني متأكد ان الرجل الذي نقب صندوق الدوق دوبان الحديدي واخذ ما فيه ليس غريبا عنك بل هو علة وجودك

فاصفرت كازال وارتجفت اعضاؤها

فضحك روسكوف وقال ، الا ترين انني اضع الاصبع على الجرح؟

ــ وماذا تريد من كل هذه الامور ?

ــ ان اقول لك لتخففي من غلوائك وعظمتك لانك لست الابنة قاطع طرق

ــ انك شقي

ــ لا يؤلمنك قول الحقيقة ، وتأكدي انني اعرفك جيدا فانت

هي الابنة التي طردناها من قصر سان سافان برفقة المشعوذ كوكوس اليس كذلك ؟

ــ اما وقد بلغت بك القحة لاهانتي الى هذا الحد فانزل من مركبتي حالا ، ان الماضي هو لي وحدي ولا يهم احدا سواي وخصوصا انت

ــ سوف يعلمون في الاوبرا من انت

ــ وماذا يهمني من ذلك ؟

ــ سوف اسرد لهم تاريخ حياتك

ــ قل ما اردت ، فانا لا انكر انني ابنة قاطع طرق ولكني لم ارتكب شرا في حياتي ، كنت تعسة فقيرة وانما لم اعرف الاثم ،جعت عريت ، والفت الشقاء وتعودت الفاقة ولكن نفسي لم تذلّ والى هذا الشقاء يرجع الفضل بصيرورتي ما انا الان مليكة المسارح والهة الاوبرا كان نصيبي ان امشي الى المجد عن طريق مفروشة بالاشواك ومحفوفة بالشقا والاخطار فقطعتها بصبر وشهامة واني اراك خسيسا دنيئا بذكرك الماضي الذي احاول ان انساه » قالت ذلك والقت وجهها الجميل على نافذة العربة التي كانت تسرع في تلك الشوارع المقفرة في تلك الساعة من الليل وهي تحاول ان تخفي دموعها

فكان سكوتها هذا قصاصا صارما لروسكوف الذي حاول عبثا ان يسترضيها تارة بالحسنى وتارة بالوعيد الى ان وصلت العربة الى منعطف شارع الاليزاه فوضعت يدها على زر صغير قرع الجرس بجنب السائق

فالتفتت الى روسكوف وقالت

ــ انك على بعد بضع خطوات من شارع ميات فارجو منك النزول

ولما بقي في مكانه نظرت الى السائق الذي كان ينظر اليهـــا لاخذ امرها وقالت

ــ اطرح هذا الرجل على جانب الطريق واسرع الى باسي

وقبل ان يتمكن روسكوف من المقاومة كان السائق بساعديه المفتولتين اللتين كان قد وضع بهما فنطوش قبلا خارج باب باسي قد القى روسكوف على مقعد على جانب الطريق واسرع بمركبته

منهوكا من التعب والغيظ دخل روسكوف الى منزل ميات حيث كانت كلاديس تنتظره قاطعة الساعات الطوال تترقب من نافذة الغرفة قدومه وهي لا يغمض لها جفن ولا يقر لها قرار ، ترى الدقائق ساعات والساعات اجيالا وتتصور امامها شبح الدوق دوبان ووالدتها مدام دالابوسيار يمران في عرض الغرفة ويقولان لها ، خائنة ، خائنة ، وكثيرا ما تهرب من هذه الافكار الى الحديقة مغمضة عينيها وسادة اذنيها لكيلا تسمع ولا ترى ولكن اي اذن لا تسمع صوت الضمير واي عين لا تتصور اشباحه ؟

فلما دخل ليونال الى الغرفة وراها بقرب النافذة قال لها

ــ الم تنامي بعد ؟

ــ كنت بانتظارك

ــ انك على خطأ فقد كان ممكنا ان يطول غيابي الى الصباح

ــ انها الساعة الثانية الان

ــ وبعد ذلك ؟

ــ هل انت عائد من النادي ؟

ــ نعم حيث خسرت خمسة وسبعين الف فرنك

فارتجفت كلاديس

ــ وهل تعلمين من ربحها ؟

ــ وكيف اعلم وانا لا اعرف اصدقاءك؟

ــ جوست مسمر

فامتقع لونها

ــ نعم جوست مسمر ، قال روسكوف ، ويجب ان اجد هذه القيمة غدا لان لا طاقة لي على مقاومته

ــ وعساك تريد مني ان اجد لك هذه القيمة بين اليوم ومسائه ؟ ان ثروتي قد نفدت ولا سبيل للحصول على شيء من ثروة اسبارنس

ــ لديك جواهر ثمينة فقد اقدر بقيمتها ان استر خسائري

ــ جواهري ؟ قالت وهي تضع راسها بين يديها ، جواهري ! اه جواهري

ــ نعم جواهرك ، انها تثمن بمبلغ كبير ، وعقدك وحده يوازي خمسين الف فرنك

فبقيت كلاديس صامتة ، ان تسليمها جواهرها كان يعني تسليمها كل تذكاراتها الماضية وكل سلواها الحاضرة ، انها كانت

تقتل كثيرا من وقتها في النظر الى هذه الجواهر التي كان بعضها من جواهر والدتها وكثيرا ما كانت تتحلى بها وتتامل نفسها امام المرآة معيدة في مخيلتها ذكرى صباها الغابر ، والآن تراها مضطرة الى ترك هذه الذكرى

ثم مالت نحو رومسكوف وقالت

— خذها ولكن لا تدعني اراها وكن على يقين من ان هذا اخر شيء لدي اكرسه امامك ومتى عرضت هذه الجواهر في مخازن الصاغة اكون قد خسرت كل شيء وتجرعت كاس الغصص طافحة

اما هو فلم يهتم لشيء من هذا الكلام بل ذهب في الحال واخذ الجواهر واحدة واحدة ثم مال نحوها وقال

— انني بقيمة هذه الجواهر ارجو استرداد ما خسرت ولكي يبعد فكرها عن جواهرها قال

— هل تعلمين انني تحادثت مليا مع مسمر

فجلست على مضجعها مضطربة

— لقد اكتشف مسمر سر مقتل الاميرال واذا كنا في خلال ثلاثة اشهر لا نوافق على زواج امبارنس من كوتياه رومسكوف فانه يسلمنا للعدالة ، قال ذلك وتركها مضطربة قلقة وذهب الى غرفته

•••((•))•••

الفصل السابع عشر

دخلت كازال قصرها وهي ترتجف اضطرابا وقلقا وكلام روسكوف يرن في اذنيها فيحرك اعصابها ويدمي فوءادها وفي اليوم الثاني لم تقو على الخروج من غرفتها فانقطعت عن الاوبرا بضعة ايام كان فيها كوكوس بقربها تشكو له همها وقد اخبرته بما توقع لها مع روسكوف

ـ انني سوف ابقى معك ياوالدتي بضعة ايام وسوف نترك باسي

ـ وهل تفتكر بالرحيل انت ايضا ؟

ـ افكر بذلك من وقت طويل

ـ اه لو تعلم ياولدي المسكين كم من مرة تضرعت الى الله لتحقيق هذا الرجاء ان نعيش سوية حتى لا يبعد احدنا عن الاخر وننسى الماضي والامه ونعيش للمستقبل

ـ كم هو جميل هذا الحلم

ـ انه جميل حتى لاخشى تحقيقه ، هل يمكن ان نكون سعداء نحن الذين لا نعرف الا الشقاء والتعاسة وهل يستجيب الله دعاءنا ؟ انني لا اجسر ان ارجو ذلك رغما عن كوننا لم نوءذ احدا في حياتنا

ـ ان ما تكلمنا عنه سابقا ربما تحقق باسرع ما كنا نرجو فلا يقتضي لنا ان نكون اغنياء وانا اقدر ان ابيع جواهري فاحصل بها على

ما لا يقل عن العشرين الف فرنك وبهذا المبلغ نكون بمامن من الفاقة فقد كنا نعيش سابقا باقل من القليل وقد قربت الساعة التي يجب ان نعمل بها فهل تريد

ـــ انني الان على استعداد لان اتبعك

ـــ اذن سوف اظهر في الاوبرا لاخر مرة هذا المساء فاودع رفاقي واقول كلمة شكر للمدير الذي كان دوما لطيفا معي وغدا اذا اردت نترك باريس

فاشرق وجه كوكوس وقال

ـــ اذهبي وانا انتظرك هنا

ـــ سوف اذهب الى الصائغ الذي باعني جواهري وارجو منه ان يستعيدها باقل خسارة ممكنة قالت ذلك وتقدمت نحو خزانة حديدية واخذت منها علبة فضية فيها جواهرها التي كانت توازي فوق الخمسين الف فرنك وقالت

ـــ اذا دفع فيها عشرين الف فرنك اكون مسرورة لاننا بهذه القيمة نقدر ان نكون سعداء نحن الذين اعتدنا الفاقة والفنا الفقر وان مجرد وجودي معك ينسيني عيشة البذخ والرخاء هذه

ـــ وهلا تتاسفين على تركها ؟

ـــ كلا ، انني اقسم لك بذلك

ـــ ولا تتاسفين على ترك باريس ؟

ـــ وكيف اندم على ترك مدينة ترانا معرضين فيها بكل دقيقة

الى مقابلة فنطوش وفظاظة بوادو · نعم انني قد طردت فنطوش من هنا ولكنه سوف يعود غدا ومن يعلم انه لا يكمن لك في احد الشوارع المقفرة ويقتلك من دون شفقة ولا حنان —

— انني اسخر من الحياة يا اماه

فتبسمت كازال ابتسامة الكآبة

اما هو فقال

— اخشى ان لا تروقك الحياة الجديدة ولا يعود من سبيل للعودة الى مثل حالتك الحاضرة

— ولد

— اصغي ياوالدتي وهل تسمحين لي برأي ؟

— قل ما تريد ياولدي

— وهل تعملين ما ارتاي

— اعدك بذلك

— اطلبي رخصة من المدير دون ان تستعفي ، قولي لـه انك مريضة وانه يقتضي لك رخصة ثلاثة اشهر فيمنحك اياها

— وبعد هذا

— بعد انقضاء هذه الثلاثة اشهر اذا وجدت انك غير نادمة على ترك باريس تقطعين علاقتك تماما بالاوبرا

— رأيك هو الصواب ياولدي وسوف اجري بموجبه

وللحال قامت فارتدت اثوابا بسيطة واخذت جواهرها وخرجت وهي تقول لكوكوس

ــ سوف اعود قريبا فانتظرني هنا ولا تنس ان تقفل الباب فقد يحضر فنطوش

ــ لا يمكن لاحد ان يدخل الى هنا سواء كان فنطوش اوروسكوف الجميل . قال ذلك واقفل الباب

اما كازال فتقدمت في طريقها الى محل بائع المجوهرات في حال دخولها نظرت صاحبه وقالت له

انني احضر لك جواهري

ــ لاصلاحها ؟

ــ لا بل لبيعها

ــ وهل انت بحاجة الى الدراهم ؟

ــ نعم ، قالت ذلك واخرجت حقيبة صغيرة فيها جواهرها قائلة

ــ ان هذه الجواهر مشتراة من محلك بخمسين الف فرنك

ــ نعم ، ولكن من ذاك الوقت قد سقطت قيمة الحلى وبعضها قد تغير رسمه فلا تنتظري مني ان استعيدها بذات الثمن

ــ اعرف ذلك قالت كازال ببرودة فما هو احسن ما تقدر على صنعه ؟

ــ اعطيك ثلاثين الف فرنك

فاشرق وجه كازال

ــ انني ادفع لك ثمنا فاحشا بهذه الجواهر قال وهو نادم على تسرعه على رجاء ان تعودي الى هنا حينما تريدين خلافها

ــ ليس هذا بمستحيل ، انما الضرورة تقضي علي الان بايجاد المال لذلك تراني اعرض هذه الجواهر للبيع

فاخرج الرجل من صندوقه ثلاثين الف فرنك ونقدها الى كازال وهو يقول

ــ اي وقت اردت شيئا من الجواهر فانا لخدمتك

اما كازال فقد سدلت قناعها على وجهها وعادت مسرعة الى باسي

ــ ماذا جد ؟ قال كوكوس ــ

ــ اصبحنا اغنياء وهذه ثلاثون الف فرنك تكفل لنا معيشة عشرات السنين بهناء ونقدر ان نبيع بعض التحف هنا ايضا

ــ ثلاثون الف فرنك ؟ قال كوكوس مذهولا ، ثلاثون الف فرنك ، انها لسعادة ياوالدتي

وفي ذات المساء ظهرت كازال في الاوبرا للمرة الاخيرة ولما كانت تعود بين الفصل والاخر للظهور اجابة لرغائب الحضور الظاهرة بتصفيقهم الحاد لها كانت العبرات تترقرق في عينيها حين افتكارها بانها سوف تظهر امامهم للمرة الاخيرة وكانت قد دعت رفيقاتها فودعتهن ووعدتهن بالعودة بعد ثلاثة اشهر لانها تذهب انتجاعا للعافية وقد صدقت فيما قالت لان اهوال الايام الاخيرة كانت وحدها كافية لتحط من قواها ولما وقفت امام مدير المسرح الذي كان بانتظار حضورها قال

لها وهو يقدم لها مقعدا بقربه

ــ انت اذن مريضة على ما اعلمني رفيقاتك وتريدين فرصة للراحة

ــ نعم

ــ وكم مدتها ؟

ــ ثلاثة اشهر

ــ انا لا اتأخر عن مرضاتك واعطائك المدة المطلوبة دون ان اسألك ايقافي على شهادة الطبيب

ــ اشكرك ياسيدي

ــ انك تنظرين كيف اني اعاملك بكل اعتبار واخلاص ، قال وهو ممسك بيديها غير ملتفت الى ما يتقوله عنك بعض الحساد ، ثم انك لا تجهلين ان رجلا قد اغضبته يشيع عنك امورا كثيرة

ــ وماذا يهمني مما يقولون ؟ قالت كازال وقد اصفر لونها ، يقولون انني ابنة رجل مشعوذ ، هذا حقيقي وليست هي المرة الاولى التي جرحت فيها بهذا السلاح

ــ ارجو الا يكون هذا سبب طلبك المطلة

ــ كلا

ــ وهل تبقين في باريس ؟

ــ لا اعلم الا انني سوف اترك باسي غدا لانني بحاجة الى الهواء والخلاء ثم ودعته وانصرفت الى حيث كان كوكوس بانتظارها

ــ لقد تم كل شيء قالت وهي تضمه بين ذراعيها ، ان معنا

الدراهم لسنين عديدة وغدا سوف نترك هذا النزل الفخم فارغا

ــ قد تعودين اليه ياوالدتي

ــ لا اعتقد ذلك وعلى كل حال سوف نذهب لثلاثة اشهر واذا وجدت في خلالها ان حظي يقودني للرجوع الى هنا اعود لان مشيئة الله تكون قاضية بذلك

انها بالرغم من سقطتها التي ارغمت عليها وتسليمها نفسها لرجل لم تكن تحبه كان ايمانها بالله قويا واعتقادها متينا فكثيرا ما قضت الساعات الطوال تفكر في الحوادث المؤلمة والاسباب التي اضطرتها الى السقوط وتجد من تلك الاسباب الكفارة التي اتتها باعطائها كل المال الذي اخذته من ذاك الظالم الى الفقراء واسطة للتعزية وسبيلا للمغفرة

ولكن رجوع كوكوس الى قربها اعاد الى فكرها ذكرى تلك الحوادث المؤلمة فلم تكن لتجسر ان تملأ نظرها من عينيه الصافيتين رغما عن نقاوة ضميرها وشرف نفسها وبينما هي تنظر بدون افتكار الى الثلاثين الف فرنك المطروحة على الطاولة امامها قال لها كوكوس

ــ اننا نقدر ان نشتري بيتا بعشرة الاف فرنك ويكفينا الباقي دريعه سنين طويلة

ــ افعل ما تريد ياولدي ، قالت ضاحكة ، وان اردت ان نذهب في هذا النهار نذهب

ــ والى اين ؟

ــ ماذا تفضل ؟ الجبال بعزلتها وجمالها ، ام البحر بمياهه ورماله؟ وهلا نذكر من كل اسفارنا التي قمنا بها مستمطيين محلا تفضله على غيره؟

ــ دعينا يا اماه نذهب الى جهة البحر

ــ حسن ولنبتعد كثيرا حتى لا يرانا احد ولا يعرف من نحن ولنختر محلا منفردا في الجنوب حيث نعيش بين بسطاء القلوب كبار النفوس صائدي الاسماك التي لا تعرف شرا ولا نكرا ، فنذهب الى ارجال على ساحل البحر ذاك المكان البعيد عن ضوضاء البـاريسيين وتمدنهم فيكون البحر بزرقته الطاهرة مسرحا لنواظرنا ورماله بنعومتها موطئا لاقدامنا ، قالت ذلك واخذت لائحة سفر القطرات واكبت واياه عليها لتعرف موعد سفر القطار الى بلاد الاحلام الجميلة وفي المساء صرفت الخدم واغلقت قصر باسي وسافرا

الفصل الثامن عشر

بعد مضي يومين على هذه الحوادث وصل كوكوس وكازال الى بلدة ارجال في سفح جبال البيراناه الشرقية ولم تكن هذه البلدة في ذلك الوقت الا عبارة عن شاطىء طويل يفترش البحر تحت قدميه وينظر الى امواجه المتلاطمة من نوافذ البيوت القائمة هناك مصونة بالجنائن الغناء والازهار النضرة هناك الى ذاك الفردوس المنفرد كان كوكوس وكازال قد حولا نظريهما وحرصا على الوقت قالت كازال

ــ دعنا نذهب الى محرر المقاولات فيهدينا الى ما نريد قالت ذلك وذهبا في النهار نفسه لمقابلة الرجل الذي استوى واقفــا حين دخولهما عليه

ــ اننا حضرنا لنسكن في بلدتكم الجميلة ، قالت كازال ،واحب ان اجد لنا مسكنا

فانحنى الرجل وقال

ــ لدي بيوت عديدة

ــ وارغب ان يكون مع البيت حديقة نلهو بها ونستفيد من اثمارها وبقولها

ــ وهل سيدي معك ? قال الرجل وهو ينظر الى كوكوس

ــ هو ولدي ، قالت كازال ببرودة

ــ ولدك ? انك ولا شك ولدته في زمن الرضاعة ياسيدتي

ــ هل لديك ياسيدي البيت الذي نريده ? قالت كازال بصوتها العذب

ــ نعم سيدتي ، لدي بيت جميل محاط بحديقة غناء فيها عدد من الاشجار المثمرة ودوالي العنب الجميلة وهو مشرف من الجهة الواحدة على البحر الواسع ومن الجهة الاخرى على الجبال الشامخة وبقربه اناس قدموا موءخرا بعد اعتزال الاشغال وهم على غاية الهدوء والسكينة

ــ ان الجهة لا تهمنا لان لنــا من امواج البحر ومنظر الجبــال وتقليب صفحات الكتب ودرس الطبيعة والعمل بالحديقة ما يغني

عن كل انيس

اذا اردت ياسيدتي نذهب حالا لروية البيت ، قال ذلك وخرج بهما وكان الهواء يهب بليلا والفلك صافيا والغزالة قد البست تلك القرية الجميلة حلة من الذهب تمايلت فيها على امواج البحر المتدفقة وصدى الجبال الشامخة وكان البيت المقصود قائما في ذلك المكان تتصل به من جهة الجبال غابة من السرو باسقة الاشجار ومن جهة البحر حديقة تتهادى اغصانها بالنسيم البليل والهواء العليل

فابرقت اسرة كوكوس وكازال لمرأى هذا الفردوس الارضي وزاد سرورهما لما قال لهما محرر المقاولات ان ثمنه سبعة الاف فرنك فقط فنقدته كازال القيمة وفي خلال ثمانية ايام سكنت فيه هي وكوكوس

اما البيت فقد كان موءلفا من اربع غرف وذلك فوق ما يحتاجان وكانت غرفة كازال بلونها الازرق مطلة من الجهة الواحدة على البحر ومن الجهة الاخرى على الجبال وكذلك كانت غرفة كوكوس اما الحديقة فباعتنائهما بها قد جاءت باكثر مما يريدان من الاثمار والبقول

وفي ساعات الحر كانا ينصبان ارجوحتين في غابة السرو وتهزهما النسمات الرطبة وتقيهما الاغصان من حرارة الشمس هناك كانت تقضي كازال ساعاتها وهي لا تصدق ان حلمها الذهبي صار يقظة وهكذا انقضت مدة العطلة

— ان عطلتك قد انقضت ، قال كوكوس في صبيحة يوم فماذا

تريدين ان تفعلي ؟

ـ ابقى واموت هنا ، قالت وهي تمد يدها النحيفة فوق جبينها الوضاح

ـ وهلا تندمين على شيء ؟ الا تندمين على ترك باريس ؟

ـ كلا لا اندم على شيء ، اولسنا سعداء هنا ؟ فعلي اي شيء من حياتنا الماضية تريد ان اتاسف ؟ ان المدة القليلة التي قضيتها في المسارح لم ابق من ذكرها شيئا، وهل تريد ان اترك هذا الحلم الذهبي الذي لا اجسر ان ادعوه حقيقة للتاسف على ايام قضيتها في الاستعطاء والفقر والشقاء ، الا تذكر ياولدي شقاء الماضي ؟ او هل نسيت حياتنا في مولان كالات وهربنا من سان سافان ؟ وماوانا في تلك الخرائب قرب تارب حيث كانت الكلاب ارأف بنا من الانسان وحيث كدنا نموت من التعب والشقاء والجوع ؟اه يا كوكوس ياكوكوس ، انني لم انس شيئا ،قالت ذلك وتدفقت الدموع سخينة من عينيها لدى هذه التذكارات

غير انك عدت فعرفت السعادة والشهرة ، قال كوكوس ، ولكنك تضحين الان هذه الشهرة والسعادة لتقاسميني شقائي

ـ دعني من هذا المجد الفارغ الذي لا يدوم الا وانا على المسارح ماذا كنت غير راقصة تسلي الناس وتلهيهم ، وانت تدعو ذلك مجدا ؟ دعني من الملاهي ولا تعد ذكرها امامي

ـ ولكنك كنت خلابة فتانة

— ولكن ذلك مع الشباب ولا بد من يوم تهرم فيه المرأة وتموت شهرتها اذ تقفل في وجهها المسارح ، وانني قد قضيت صباي في الشقاء ولم يعد لي منه الا الذكرى المؤلمة ، قالت ذلك وتقدمت معه الى شاطىء البحر تنظر الى امواجه المتلاطمة وزرقته الجميلة ، وكان صيادو الاسماك ينظرون اليها ويقولون هـذه اميرة البيت الابيض فينحنون امامها احتراما وينظرون باسف الى كوكوس لدلائل المرض البادية عليه اما هي فكانت تقضي الساعات الطوال ونظرها جامد وافكارها متشتتة يخيفها الماضي فلا تجسر ان تفتكر فيه ويروقها الحاضر فلا تأمل دوامه وتخشى المستقبل لانها لا تعلم ما هومخبوء لها بين طياته وبقربها كوكوس بضعفه ونحوله فتضطرب لدى النظر اليه وتجتنب مطالعة الجرائد لئلا تقع عيناها على بعض الجرائم التي يكون لفنطوش دخل فيها

وفي صبيحة يوم نهضت كازال باكرا على صوت نفير عسكري يعلن قدوم فرقة من العساكر الى تلك الجهة وكذلك كوكوس فقد كان نهض مسرعا من على فراشه وخرج يستطلع الخبر ثم عاد ليخبر كازال بقدوم فرقة من المشاة اتية للتمرين هناك ، فاكمد وجه كازال لهذا الخبر اما كوكوس فكان قد وجد بقدوم العساكر مسرة كبيرة لانهم سوف يوجدون حياة في ذاك المكان المنفرد ، وحقا ان وجود هذه الفرقة بموسيقاها وخيامها على ذاك الشاطىء الجميل اوجد في صدور القرويين مسرة وحبورا ، وكان كوكوس يختلط مثل بقية

السكان مع العساكر يحادثهم ويلهو معهم ، اما كازال فكانت قد انحجبت في البيت ولم تخرج الا بالحاح كوكوس في ذات يوم الى غابة قريبة هناك وجلسا في ظل شجرة غضة يتحدثان

ــ اننا هنا بمأمن يا اماه ، قال كوكوس من ذاك الشرير الذي كان الدافع الاكبر لتركك باريس

ــ انك على صواب ياولدي فهربا من ملاحقة ذاك اللئيمروسكوف ومن شاكله من الناس حضرت الى هنا وارجو ان اقضي بقية ايامي في هذا المكان

ــ ما اجمل هذا الكلام ، قال كوكوس وهو يضم كازال اليه اذن سوف تكتبين الى مدير الاوبرا وتشعرينهبعدم رجوعك

ــ نعم سوف اكتب اليه في هذين اليومين

وبينما هما يتحدثان بدون تحذر كان رجل متمدد بالقرب منهما بين الاعشاب يسمع كل ما يقولانه دون ان يرياه ، فاجفل لما سمع اسم روسكوف الا انه حبس انفاسه ليسمع كل ما يقال

فمن هو هذا الغريب

هو احد جنود الفرقة وكان خادما لكلاديس وهو على معرفة من عشق روسكوف وغيرة الدوقة دوبان الجميلة

فابتسم ابتسامة الغادر وعرف لماذا تركت كازال باريس دون ان يعلم احد مقرها وقال في نفسه ، اذا اطلعت روسكوف على هذا السر فهو ولا شك يكافئني مكافأة جزيلة ، لذلك بقي في مكانه ملازما

الهدوء الى ان ذهبت كازال و كوكوس فعاد الى مضربه و كتب في ذاك المساء الى روسكوف التحرير الاتي

« سيدي · لدي خبر سار انقلــه اليك فقد عرفت مقر كازال ورفيقها كوكوس ، انهما هنا في الجنوب في بيت جميل في قريــة ارجال على البحر ولمعرفتي برغبتك في الوقوف على ذلك اسرعت بنقل الخبر اليك على رجاء ان يسرك وان تتكرم على الجنــدي الان وخادم مدام روسكوف سابقا بما يساعده على السرور مع رفاقه

الامضاء

جوزف فيــنو ، الفرقة الثانية عشرة ، في ارجال على البحر

ولما تناول روسكوف التحرير كاد يطير فرحا لانه كان يستعلم عن كازال ولا يهتدي الى مقرها فاشعر كلاديس بانه سوف يتغيب بضعة ايام

الى اين تذهب ؟ قالت كلاديس بصوت كانت تجتهد لاخفاء اضطرابه

ــ وماذا يهمك ؟

ــ سابقى وحدي

ــ ولماذا لا ؟

ولما كانت هذه المجادلات وما شاكلها تعاد بينهما في كل يوم استشاط روسكوف غضبا وقال

ــ ساذهب لمشاهدة امراة احبها

ــ كازال ؟ ،

ــ نعم كازال

ــ ابنة المشعوذ ، قالت كلاديس بكبرياء وعظمة ، لقد تسفلت كثيرا ، اتهوى ابنة فنطوش ذاك الشقي الذي سرقنا في سان سافان ؟ اترى كيف انني اعرف كل شيء ؟ نعم لا يوجد حاجز يقف في وجه ما تريد ان تعرفه المراة ، وانا اعرف فوق ذلك انك لكي تسلو هذه الراقصة التي ردتك ذليلا تقضي اوقاتك بالمقامرة والعهارة

ــ انك على بينة من جميع اموري

ــ فنظرت اليه كلاديس بغضب وقالت ، ان القحة قد قادتك الى عدم المبالاة فاظهرت كل نقائصك امامي فاحذر

ــ ومن اي شيء اخاف ؟ انك قد كبرت حتى لم تعودي قادرة على وجود عشاق لك ، وان الذين كانوا يعجبون بك سابقا يشيرون اليك الان بتاسف ونفور ، ثم انك لم تعودي قادرة على الانتقام وانا السيد المطلق اتصرف كما اريد

فارتجفت كلاديس وجمدت عيناها وتصبب العرق من جبينها وسمعت في اذنيها صوتا يقول لها

« ان هذا الحب سيكون ويلا عليك فاحذري يا كلاديس »

انه كان صوت والدتها يصرخ في ضميرها تلك النبوءة المخيفة وكانت قد جرعت كاس المصائب طافحة وجاء انقضاء حب هذا الرجل الذي ضحت امامه كل شرف وسعادة خاتما لربيع حياتها

ومنذرا بقدوم خريف مكفهر متلبد جوه بالهموم والمصائب فالقت راسها بين ذراعيها واستخرطت في البكاء ، ولما رفعت راسها كان روسكوف قد ذهب فبقيت وحدها في الغرفة تبكي مصائبها ، ولم يكن احد ليجفف لها دمعة او ليقول لها كلمة تعزية او سلوى

ان روسكوف كان قد فقد حبه لها وابنتها تركتها حاملة معها سرا مخيفا وهي لا تعرف مقرها فالهاوية امامها كانت عميقة وترى نفسها انها تزيد فيها سقوطا . وبينما هي منفردة تبكي مصائبها كان روسكوف يجهز حوائج السفر ، ثم دخل عليها كأن لم يكن شيء مما جرى وقال لها انه مسافر في قطار الساعة الثامنة ونصف

الفصل التاسع عشر

وبعد مضي يومين اخذ جوزف فينو علما بموافاته الى المحطة

— ان سيدي يعذرني ولا شك قال الجندي عند مقابلته روسكوف لتطفلي في الكتابة اليه على انني كنت على يقين من ان سيدي يسر لدى معرفته مقر الراقصة خصوصا وقد فهمت انها لم تطلع سيدي على مقرها

— وكخادم ذكي عرفت انك تقدر ان تربح بعض الذهبات جزاء أعلامي

— نعم سيدي

فاخذ روسكوف من جيبه ورقتي بنك واعطاهما الى فينو قائلا

بهذه القيمة تقدر ان تسر ورفاقك ، بقي ان ترشدني الى بيت كازال

ـــ هي تسكن في ذاك البيت الابيض

ـــ وحدها ؟

ـــ كلا

فقطب روسكوف حاجبيه

ـــ ان كازال تسكن مع ولدها وهو شاب هزيل يسمى كوكوس

ـــ اه كوكوس هنا ؟

ـــ نعم وهما دائما سوية ويشك رفاقي في كونها اما لهذا الولد

اما روسكوف فكان يعرف ان كازال هي ام لكوكوس بالتربية لذلك لم يذهله وجوده معها

ـــ وهل البيت الابيض بعيد من هنا .

ـــ اذا احب سيدي ارافقه

قال ذلك ومشى الاثنان قاصدين القرية وكان الرجال والنساء على الابواب ينظرون الى هذا الغريب دون ان يعرفوا قصده ، اما هو فكان بافكاره ونظره حوالى البيت الابيض هناك حيث يقدر ان يرى كازال وقد شغلته هذه الافكار عن تسريح نظره في المناظر الجميلة والانتعاش بالهواء العليل وما زالا متقدمين الى ان وصلا امام البيت فقال الجندي

ـــ هنا

فارتجف روسكوف لدى وقوفه امام ذاك البيت المنحجب وراء

الاشجار والازهار وخانته الشجاعة فوقف امام شجرة ينظر الى نوافذ البيت واذا بسيدة تميل بقدها الرشيق وتنظر بعينيها الجميلتين الى زرقة البحر

هي كازال وقد زادت جمالا بما اكتسبته من العافية البادية علائمها في تورد خديها وراحة البال الظاهرة في نور عينيها اما روسكوف فوقف لا يجسر على التقدم ثم راته كازال فارتعدت واقفلت النافذة وتقدمت مسرعة غضبى الى الباب الخارجي

— انت ؟

— نعم انا الذي قضيت هذه المدة باحثا عنك بصبر وشوق ، انا الذي اعبدك ، انا الذي كدت اموت لفراقك ، اما الان وقد وجدتك فقد انتهت اتعابي ، اه لا تعلمين كم احبك ، لقد حاولت ان انساك ولم افلح والان وقد وجدتك فساكون اتبع لك من ظلك ، اعيش حيث تعيشين واذهب حيث تذهبين ولا يكون لك سبيل الى الفرار مني

— انني لم احضر لهنا فرارا منك ، قالت بكبرياء ، لانك لو حاولت بوقاحتك الحضور الى منزلي في باسي لعرفت كيف اطردك منه حتى لا تعود ، فانني لا اخافك ، ولكن هنالك اسبابا دعتني ان اهجر باريس واصدقاء الملاهي واحضر الى هنا ، وكانا قد تقدما الى غرفة في الطبق الارضي فاتمت كلامها قائلة

— تزعم انك تحبني ، ولكنني لا احبك ولا يمكن ان احبك ، فكن على يقين من ذلك وابحث عن غيري ولا تزعجني في منفاي

ــ انك سوف تحبيني يوما ما

ــ لقد اخطأت فانني سوف ازداد كرها لك ، قالت بحدة وضربت بيدها على طاولة امامها

ــ انا احبك وسوف تكونين لي ، لانه لم يكن في وسع امراة ان تقاوم ارادتي ولا يمكن ان تكوني انت المرأة المستثناة ، اه اراك تعتقدين بانك تقدرين على مقاومتي ، انك على خطأ في ذلك لانني انغلب عليك واذلك كما اذللت الدوقة دوبان وكما اذللت غيرها

فضحكت لهذا الكلام وقالت ، ان قصاص الدوقة دوبان كان صارما ، وانا ارثي لحالها لانها علقت بحب رجل نظيرك عديم المروءة والشهامة والضمير ، انني اذا احببت فسوف لا احب من اخجل به ومن هو مضغة في الافواه ، فاذهب من هنا واتركني في خلوتي هادئة البال مع من احب

ــ ومن تحبين ؟ من هو هذا الحبيب لاقتله

ــ هو ولد تعرفه قالت بهدوء وقد نظرته في سان سافان

ــ كوكوس ؟

ــ نعم هو بعينه

ــ هذا المشعوذ ؟

فقطبت حاجبيها وقالت ، انك تتكلم عن ولدي بعبارة لا اطيق سماعها فاياك ان تجرح عواطفي بمثل ذلك

ــ اصغي لما اقول ، انني احبك واقسم لك بذلك والويل لك اذا

قاومت ارادتي

ــ انني لا اخافك

ــ انك تضطرين الى ترك هذا المكان طردا بعد ان يعرف جميع القرويين انك ابنة قاطع طرق ، اه ان ساعة انتقــامي قد قربت ، فاما ان اكون المحب المطاع الغيور او فاحذري

ــ شقي لئيم ، اخرج من هنا

ــ لا اخرج ، قال ذلك وتقدم نحوها ممسكا بذراعها

ــ الي يا كوكوس ، المعونة

فظهر كوكوس شاهرا بيده مسدسا وصوبه نحو روسكوف قائلا

ــ اتريدين ان اقتله يا اماه ؟ هل اقتله ؟

ــ لا ولكن اطرده خارجا ، قالت ذلك وهوت الى الارض مغمياً عليها ، ولما افاقت من اغمائها لم يكن روسكوف هناك وكان كوكوس واقفا بقربها ينظر اليها فقال لها مطمئنا

ــ اننا منفردان الان ياوالدتي وقد ذهب هذا الرجل فــكوني مطمئنة ، اما هي فكانت قد ارتمت على مقعد قريب واطبقت عينيها واخذت تفكر كيف ان سعادتها لم تدم لوقت طويل وانها لا بد ان تعرض نفسها لانتقام روسكوف وان تعود الى حياة المسارح وسكنى نزل باسي في باريس حيث تخشى من يوم ان يدعوها الناس ابنة قاطع طرق ، وكانت الدموع قد سالت من عينيها فمالت نحو كوكوس وقالت

ــ قد نضطر للرجوع الى باريس ياعزيزي

ــ دعينا ياوالدتي نبقى متمتعين بسعادتنا هنا لانني لا اقدر ان اكون بقربك هناك وانت عائشة بالرفاه والغنى

ومضت بضعة ايام دون أن يحدث بخلالها شيء فاطمانت كازال ان روسكوف قد انصرف ولاول مرة بعد انصرافه خرجت مع كوكوس يتمشيان على الشاطىء الذي كان قد اقفر بعد ذهاب الفرقة العسكرية من الليلة الماضية فجلسا ينظران الى الافق البعيد ويتأملان الطيور الحائمة فوق الامواج ويتنصتان لاصوات القطعان في الاودية والجبال وكانت الشمس بدات تلامس الافق وتذهب باشعتها الامواج فنظرت كازال الى تلك المناظر الخلابة وتنهدت تنهدا عميقا وقالت

ــ اه ، كم كنا سعيدين هنا ، نعم ان من السعادة ما هو كثير فلا يدوم وعبثا نطلب دوامها في هذا العالم فما السعادة التامة الا جزء من الله

قالت ذلك وتقدما في طريقهما الى البيت صامتين يتاملان ما حواليهما من جمال الطبيعة وكــان في كوخ على الشاطىء بعض صائدي الاسماك ينظران اليهما فقال الواحد

ــ هذه ابنة قاطع طريق يدعي فنطوش

فقال الثاني

ــ وهل يجب ان يبقيا في قريتنا ؟

ــ لا نعرف بعد ماذا نعمل · فلا بد لنا من انتظار شيخ البلدة

الى ان يعود فهو الآن متغيب لبضعة ايام

ــ والشاب الذي معها من هو ؟

ــ مشعوذ وعاشق لها

وكانت كازال وكوكوس قد سمعا هذه المحاورة فاسرعا الى البيت مرتجفين خائفين وقالت له

ــ دعنا نموت هنا دون ان يرانا احد

ــ ان روسكوف قد قرن وعيده بالفعل

وقضيا ليلا مزعجا لم يعرفا فيه الرقاد وفي الصباح قالت كازال

ــ اسمع ما اقوله لك ياولدي ، كنت اود ان نموت هنا سوية ولكنني عدت فافتكرت ان الانتحار جريمة لا تغتفر لان حياتنا ليست لنا وعليه هاك ما قررته

ــ سوف نترك هذا الفردوس الارضي الذي وجدنا فيه السعادة وسلونا احزاننا

ــ اما انا فلم انس شيئا من احزاني

ــ انك سوف تعود الى حياتك السابقة متجولا في العالم لاكتساب معاشك ، اما انا فسوف اعود الى الملاهي لاجدد ذاك العراك الهائل مع طبقات البشر على تفاوت ادابهم واخلاقهم الى ان تنحل مني القوى ولا اعود قادرة على المقاومة فاذهب اليك لاموت بين ذراعيك ، نعم ياولدي العزيز اننا قد افقنا من حلمنا الذهبي على حقيقة رهيبة وسوف نضطر الى ترك هذا المكان لنعود الى لجة العالم

حيث نعارك المفاسد ونقاوم الشرور

ــ ان الموت يجمعنا حتى لا نفترق ، قال كوكوس ، انه يخلصنا من الشقاء والعذاب ، فاذا اردت فاننا نموت في هذه الغرفة التي قضينا فيها اسعد ايام حياتنا ، اه قولي نعم ، فنموت سوية ، هذا هو المسدس الذي ارعب روسكوف ولكن لا يجب ان يرعبنا ، ان فيه كفاية لاكثر من اثنين

ــ الانتحار اثم ياعزيزي وحياتنا ليست لنا قالت كازال

ــ ولكنك لا تمنعيني من ان اضع رصاصة في فوءادي ، قال بحدة ، ان الله لم يعطني الا الشقاء والعذاب ، فعلى م اشكره ٠ لم يصنع مني الا فقيرا تعسا مريضا ، وانت تعلمين كل مصائبي وكل شقائي، واني عديم الاب ، عديم الام ، عديم الصحة ، عديم المعارف ، عديم المال ، او تجهلين شيئا من هذه الامور ؟

ــ لا ٠٠٠لا ٠٠٠ لا اجهل ذلك

ــ اذن ، لماذا لا تريدين ان نموت الان ؟

ــ انك ولد ، قالت وهي تضع راسه على صدرها ؛ نم الان قليلا وخذ بعض الراحة ، قالت ذلك ووضعت راسها على كتفه ونام الاثنان ولم يفيقا الا على جلبة امام النافذة وصياح الاولاد يقولون

ــ ابنة قاطع طرق ٠ ابنة فنطوش

ــ انهض، انهض ، قالت لكوكوس ولنذهب حالا لانه لم يبق لنا

نصيب للسكن في هذا الفردوس الارضي ، قالت ذلك واخذت ما معهما من الدراهم وذهبا في ذلك المساء

الفصل العشرون

عادت كازال وكوكوس الى باريس وعادت هي الى منزل باسي وعاد هو الى حرفته القديمة وكان مدير الاوبرا لا يزال بانتظارها فسر بعودتها ولم يمض الا ثمانية ايام على تركها ارجال حتى ظهرت في الاوبرا في رواية فوست

وكأ نما الايام صافتهما والشقاء فارقهما لمدة فبدأا يشعران ثانية بلذة الحياة وفي صباح يوم وهما منفردان دخل الخادم معلنا حضور راهبة تطلب الاحسان

فترددت كازال اولا عن السماح لها بالدخول غير انها وجدت ن الاحسان الى المعوز اكبر فضيلة امام الله فمالت الى الخادم وقالت دعها تدخل

فذهب الخادم ليسمح لملاك الرحمة بالدخول ، ومن لا يعرف ملائكة الرحمة هذه ، هن اللواتي كرسن اوقاتهن لاسعاف العاجز واشباع الجائع ، وتسلية الحزين واغاثة الملهوف ، وكانت كازال قد تقدمت نحو الباب تنتظر دخول الراهبة بينما كوكوس دخل الى غرفة ثانية وتوارى وراء سجف مخملي

تدخلت الراهبة المستعطية وهي تدوس بقدميها الطنافس الحريرية الثمينة ، وتفوح الروائح العطرية بانفها ويبهر نظرها التماثيل والصور الجميلة في تلك الدار وامامها كازال باثوابها الحريرية ، ان هذه الراهبة لم تكن غير روجينا ، فاستقبلت كازال زائرتها بصوتها الموسيقي الجميل قائلة

ــ انك ايتها الاخت الحنونة في بيت فقراء رغماً عن دلائل البذخ البادية فيه على انني ارجو الا يكون دخولك بدون جدوى ، وكانا وهما واقفتان ينظران الى بعضهما بتعجب لا يحاولان كتمانه

ــ انني اشكرك ياسيدتي على التلطف الذي تبدينه نحوي ،قالت الراهبة ، فقد كنت غير متوقعة مثل هذه المقابلة،وما اتيت الا لاستعطي لاولادي الكهول الذين هم بحاجة الى العطاء ، نعم اقول اولادي الكهول لانهم على قدر ما يهرمون تزداد الحاجة الى الاعتناء بهم والتصدق عليهم لانهم وقد قطعوا مراحل الحياة العديدة لم يبق لهم مقدرة على العمل

ــ اه هذا الصوت ، قالت كازال ، يخيل الي انني اعرفه ، قالت ذلك وتقدمت الى الراهبة علها تتحقق وجهها المحتجب تحت القناع الرهباني وهي تقول ، ان ملامحك ليست بغريبة عني ولكن اين رايتك لا اعلم ، على انني متاكدة من رويتي اياك ، انني لم اكن كل حياتي راقصة كما انا الان ، لانك في بيت راقصة ، ثم انني احب

التعساء واشفق على الفقراء لانني عرفت ما هي التعاسة وذقت ما هو طعم الفقر

— يخيل الي انا ايضا انني اعرفك ولكنني قد اكون على خطا الم تذهبي الى سانسافان

— نعم ولستِ على خطا ، صرخت كازال ، والحيرة اخذت منها كل ماخذ ، الست روجينا ذاك الملاك الارضي الذي كان يحضر في كل مساء لتسليتنا انا وكوكوس حيثما كنت تنحنين فوق وسادته وتتاملينه الساعات الطوال وكنت ارى الدموع تجول في عينيك ، فوضعت روجينا يدها فوق فوءادها لتسكن ضرباته وقالت

— كوكوس ، مارسل الصغير ، اين هو ، يا الهي ، اين هو ؟

— هو هنا ياعزيزتي وسيحضر حالا قالت متهللة وقد نسيت في تلك الساعة جميع احزانها ورفعت سجفا مخمليا وهي تقول

— هذه هي روجينا تلك الفتاة الشريفة التي كانت تحضر في كل مساء لتعزيتنا وموءانستنا وكثيرا ما رايتها متكئة فوق وسادتك وعيناها مغرورقتان بالدموع

اما روجينا التي نسيت في تلك الساعة جميع اتعابها واحزانها وذهلت عن كونها راهبة فانها بسطت ذراعيها وضمت كوكوس الى صدرها وهي تعد نفسها سعيدة لانها ستتمكن من ان ترد الى جوست ولده العزيز الذي كان يندبه منذ سنين عديدة ، وبصوت تخنقه العبرات اخذت تخبر الولد عن السعادة التي سيصادفها بقرب والده وهي لا تقدر

ان تحول نظرها عنه وتسكب دموع الفرح لوجوده والاسف على حالته اما كوكوس الذي كان مدهوشا من كل ذلك فقد ظل صامتا ولكنه شارك روجينا وكازال في البكاء واخيرا مالت اليه كازال وقالت بحزن شديد

ــ ستفارقني اذن ياعزيزي كوكوس ، فهل تنساني ياترى وتغلق فوءادك دون محبتي

ــ اه ياوالدتي انا اعبدك دائما ولا اتركك ابدا فاينما اسكن تسكني معي

ــ سيكون لك عائلة حقيقية لانني لست منك بشيء ياعزيزي ، نعم ما كنت الا رفيقة لك قاسمتني الشقاء والتعاسة فبخسارتي اياك اخسر كل عضد ومعين

وهكذا فانهما لدى ذكر الفراق ذهلا عن روجينا التي كانت لا تزال واقفة تسكب الدموع

ــ نعم ان الله قد دبر كل ذلك ، قالت كازال ، ورب شر ياتي منه الخير فلولا اضطرارنا الى مغادرة ارجال ، ذاك المنفى الجميل ، لما كان قدر لك ان تجد والدك ياعزيزي كوكوس ، فلا يجب ان تعترض فيما بعد على احكامه تعالى ولا على ما يحصل لك بارادته

ــ انك دائما مصيبة ياوالدتي

ــ هو الان لك قالت كازال وهي تمد يد كوكوس الى روجينا

ــ طالما سعيت للاهتداء اليك ياولدي ، قالت روجينا ، لاضعك

بين ذراعي والدك ولما ابصرت تلك الذخيرة التي كنت قد وضعتها في عنقك كدت اطير من الفرح والسرور ولكن سعادتي لم تطل الا قليلا لانك عدت فغبت عن نظري ، اما الان فان ذاك الوالد العزيز الذي يود ان ينفق كل ثروته في سبيل وجودك يكون سعيدا بمكافاءة هذه السيدة الشريفة التي اعتنت بك منذ طفوليتك ،ثم امسكت كوكوس من يده قائلة

ــ تعال ياولدي تعال

ورغما عن الحاح كازال التي كانت تريد ان تبقيهما لوقت تركت روجينا منزل باسي غير منتبهة الى الراهبة رفيقتها التي كانت على ميعاد معها للالتقاء

ولكن الى اين كانت مزمعة ان تاخذ كوكوس ؟

ان فكرا مصيبا خطر لها فاوقفت عربة مارة من هناك وصعدت اليها مع كوكوس وقالت للسائق

الى عدد ١٧ شارع فولتار وبسرعة

وبعد قليل وقفت العربة امام منزل الدكتور برامون فتقدمت منه روجينا نحو الباب وبيد مرتجفة قرعت الجرس وللحال سمع وقع اقدام خفيف في ممشى الدار ثم فتح الباب وظهرت منه مادلين

ــ اه هذا انت ياروجينا ايتها الاخت الغيورة قالت مادلين وهي تمد يدها اليها ، اه كم انا سعيدة برؤيتك واذ ذاك ابصرت كوكوس يتقدم وراء روجينا فبهتت اذ رات اصفرار وجهه ونحوله ثم تقدمت

امامهما وادخلتهما الى غرفة فسيحة تشرف نوافذهــا على قسم من باريس ويرى منها نهر السين يخترق قلب تلك المدينة الزاهرة ، هناك في تلك الغرفة كانت مادلين تقضي الساعات الطوال فيها اقرب اسبارنس التي كانت تتقدم رويدا نحو الشفاء وهي مضطجعة امام نافذة تخترقها الشمس ويدخل منها الهواء نقيا ، هناك في تلك الغرفة كانت تفكر فيما يمكن اجراؤه من الاعمال الخيرية وتندب والدهــا الذي قضى نحبه بعد انعقاد الصلح بوقت قصير تاركا من الاعمال الحسان والمبادىء الشريفة طريقا تجري عليه وتنظره مرة بعد الاخرى الى صورة جوست مسمر التي كانت موضوعة في اطار ثمين في صدر القاعة ، ولما صار الثلاثة في وسط الغرفة امسكت روجينا يد كوكوس وقالت

ـــ هذا هو ابن جوست

فصرخت مادلين صرخة الفرح والسرور ، صرخة التعجب والاندهاش ولم تقدر ان تتلفظ بكلمة ثم رفعت يدها نحو السماء وقالت

ـــ ان الله قد اشفق اخيرا على جوست واراد ان يكلل اعماله الشريفة بالجزاء الحسن ، اه ايتها العزيزة روجينا ان العناية قد وكلت اليك امر وجود هذا الولد التعس

ـــ واليك وجهت افكاري حينما وجدته ، اجابت روجينا ؛ فانك انت يامادلين التي ستعيدين الى جوست ولده الذي يبكيه منذ سنين عديدة ، انت يامادلين التي ستحصلين على السعادة بالنظر الى تلك المقابلة اذ تسمعين كلمات المحبة والانعطاف والحنو ، وكانت الدموع

الغزيرة التي كان يسكبها الفرح كافية وجدها للدلالة على عزة نفس تلك الفتاة

— اما كوكوس الذي ظل ساكتا الى تلك الساعة لا ينبس ببنت شفة فقد مال نحو مادلين وقال

— انا اعرفك ياسيدتي

— تعرفني ? فاين رايتني

— الا تذكرين ذلك الولد التعس الذي اسعفته ايام الحصار في شارع الامبراتريس حيثما كنت تعتنين بالمرضى والجرحى ، نعم ان ذكر رافتك وحنوك لا يزال محفورا في فوءادي

— نعم تذكرت ياولدي

— لقد كنت وقتئذ متكئة فوق وسادة مريض بحالة النزع تسكبين الدموع وقد قلت لي وانت تشيرين بيدك الى ذلك الرجل « صل ياولدي لاجل هذا المريض فان صلوات الاولاد تجلب السعادة وتتصاعد توا الى قلب الله » وهناك بقرب ذلـك الفراش ركعت وصليت بحرارة طالبا له الشفاء

— انك صليت لانقاذ والدك ، ، قالت مادلين ، والله قد اقتبل صلواتك

— لنتكلم بهدوء ائلا نوقظ اسبارنس ، قالت روجينا وهي تشير بيدها الى الابنة ، ثم مالت نحو كوكوس وقالت بصوت خافت

— حبها ما قدرت واحمها بكل قواك فهي شقيقتك واحفظ هذا سرا لك

الفصل الحادي والعشرون

وبعد مضي ثمانية ايام على هذه الحوادث وصل الى محطة مرفاجول في السافان رجلان مرتديان حلة صيد كاملة ونزلا من الدرجة الثالثة وكانت هيئتهما تدل على انهما اتيا ليقضيا بعض الوقت في الصيد والقنص وبنزولهما تقدما نحو فندق صغير بقرب المحطة وبعد ان ترددا قليلا في الدخول وهما يسمعان ضجة القرويين الذين كانوا قد حضروا من جهات عديدة لبيع محصولاتهم قرر فنطوش وبوادو الدخول وكانت الجلبة قوية في ذاك الفندق بين النساء والرجال وهم يتحدثون ويغنون وامامهم زجاجات الخمر فدخلا وجلسا الى طاولة منفردة امام نافذة وقبالتهما جبال السافان الشاهقة

— هل يريد اسيادي العشاء ? قالت خادمة فتية وقد تقدمت الى امام طاولتهما

— بكل تاكيد، قال فنطوش وهو ينزع رداءة ويعلقه مع بندقيته بالقرب منه

— وماذا عندك من الطعام ? قال بوادو

— عندنا اليوم ارانب مقلية وبقول مع الزبدة

ــ الا يوجد غير هذا ؟

ــ جبنة جيدة واثمار

ــ حسن ، قال الاثنان سوية

وكان فنطوش طروبا ضحوكا لان رنة الدراهم في جيبهوالعشاء اللذيذ الذي ذكرته له الخادمة ومنظرها الجميل الذي استوقف انظاره كل ذلك قاده الى المسرة والحبور

ــ وهل يروق هذا لرفيقك ؟ قالت الخادمة ، والا فاننا نقدر ان نقدم له خلاف ذلك

ــ قدمي كل ما هو جيد ، قال بوادو ، فاننا قادمان من باريس وشهيتنا للطعام قوية ولا يسهى عن بالك ان تحضري لنا زجاجتي خمر جيدة

ــ من السهل علينا ارضاء اسيادي ، قالت الخادمة ، ولاسيما ان لدينا بعض زجاجات الشمبانيا التي نبيعها باسعار رخيصة اذا اردتم شيئا منها

ــ سوف ننظر في ذلك وقت الحلوى ، قال فنطوش ، احضري اولا النبيذ والارانب والخضر وكانا وهما ياكلان وقد افرغا عدةقناني نبيذ قال بوادو

ــ ان الغنى نعيم ياصديقي ففي اوقات كثيرة نضطر ان نبيت دون عشاء ولا نشرب الا من المياه الجارية ، اما الان فاننا ناكل اللحوم اللذيذة ونشرب الخمور المعتقة

ــ المهم الان هو ان تقود سفينتنا بحكمة

ــ الق اتكالك علي ايها الصديق

ــ حسنا فعلنا بنزولنا في مرفاجول

ــ وهل تعرف الطريق المؤدي الى موناسيتاه

ــ بكل تاكيد ، انها ليست المرة الاولى التي حضرت فيها الى هذا المكان فقد كنت هنا من مدة طويلة وقد نجد طريقا جديدةاقصر من الاولى فسوف نستعلم عن ذلك

ــ فاوماً بوادو الى الخادمة وقال

ــ ما هي المسافة الى موناسيتاه ؟ واية طريق هي الاقصر ؟

ــ ان هذه الطريق التي امامكما توصل الى موناسيتاه وهي طريق جميلة محاطة بالغياض والجبـال واذا كنتما تعبين فبعد نصف ساعة يمر القطار فتأخذانه

ــ اما ونحن اتيان للنزهة والصيد فاننا نفضل الذهاب مشيا على الاقدام ، خصوصا اذا كانت الطريق جميلة تستلفت الانظار

ــ لديكما جبال السافان الشهيرة بمناظرها والوهاد الخصيبة والانهار الجميلة التي طالما اعجب بها السياح وقصدها المتفرجون وحسنـا تفعلان ان عرجتما في طريقكما على قصر اربواز ونظرتما ملجأ العجزة الجديد الذي شاده حديثا جوست مسمر

ــ جوست مسمر ؟ قال فنطوش

ــ وهلا تعرفان جوست مسمر هذا الغني الروءوف الشهير قالت الخادمة

ــ كلا

ــ عجبا كيف لم تسمعا بهذا المحسن الشهير الذي يملأ اسمه باريس وهو الاب الشفوق لهذه الاماكن التي اصبحت بفضله واحسانه فردوسا ارضيا ، ان جبالنا منذ وجوده فيها لا تعرف الشقاء وقصره في اربواز على الدوام ملجأ التاعس ومأوى البائس ومسعف المعوز واذا قدر وغاب عنه مدة فان عبده الامين زمبا يقوم مقامه بعمل الاحسان فلا يقصده احد الا ويجد الرأفة والحنان ، فلو كنتما من الفقراء لوجدتما هناك المعونة والاسعاف اما وانتم من الاسياد فزمبا لا يفتح الباب في وجهكم لانه يحاذر الغرباء

ــ نحن سائحان ولا اظنهم يمنعوننا من مشاهدة القصر قال بوادو وهو يملأ كاسه ، والذي يذهلني من هوءلاء الاغنياء انهم يحافظون على الخرائب القديمة ويحسبونها من المخاطر ويمنعون الناس من النظر اليها

ــ انك على خطأ ياسيدي اذا اعتقدت ان قصر اربواز من الخرائب فهو والمستشفى آية في الهندسة وفخامة البنيان ، وقد نظرنا كم مر هنا من المهندسين والبنائين وكم نقل اليهما من التحف والآثار ، والجرائد قد كتبت عن ذلك الشيء الكثير والسياح اعجبوا بعظمته وفخامته وبديع هندسته ورياشه الثمين

— علنا لا نحرم واسطة للدخول ، قال بوادو

وبعد ان دفعا ما عليهما خرجا من الفندق بطريق موتاستياه

كان الليل بدأ يرخي سدوله وترصعت القبة الزرقاء بالنجوم بينها القمر ليلة تمه جالسا على عرش كماله والدراري حوله كالجواري وكأنما قوائم العرش قائمة على قمم السافان وبينها الرياض والغياض بانهارها وجداولها واشجارها وازاهرها والسكون سائد لا يقلقه الا خرير الماء الجاري بين الوهاد والنجاد وحفيف الاشجار يلاعبها النسيم البليل

وكانا وهما سائران في طريق موحشة لا يقولان شيئا الى ان خرق بوادو السكوت قائلا

— انفاتحة امورنا تسفر عن رضى واذا جرت الامور على هذا المنوال فان حاجتنا مقضية بسهولة وهذه هي خطتي — ان نذهب في هذا المساء وندرس الارض حوالى قصر اربواز ولا اسهل من ذلك لان القمر في تمه وضوءه كالنهار وينتهي عملنا في المساء نفسه عند هذا الحد وبعد ان نعرف طبيعة الارض وندرس كل الامور حوالى القصر نعود ونفتكر في الخطة التي يجب اتخاذها وقد يقع لنا ان تقابل بعض الخدم ونعرف منهم عادات رب القصر اي وقت يكون في الحديقة او خارج القصر بين هذا الغياض فيكون الامر اسهل والخطر اقل

— لما كسرنا صندوق الدوق دوبان الحديدي لم نتخذ كل هذه الحيطة ،

— نعم وماذا كانت النتيجة ؟ كنا نسابق في ركضنا الارانب

هاربين من وجه الحرس وفوق ذلك ان الامر لم يكن على هذه الاهمية

ــ ارى انك خائف

ــ ومن اي شيء اخاف وفي جيبي ما يكفي لقتل عدد من الناس وسوف ترى كيف اتمم الامر واحصل على غايتي ، ان هنالك عشرة آلاف فرنك لكل منا وفوق ذلك الفدية ، فهل تظن انني اكتفي بالقيمة التي يدفعها روسكوف عاجلا ? انا اعمل للحصول على ما يكفي كل ايام حياتنا ويكون لنا عونا في شيخوختنا واي وقت قضي الامر اجبر روسكوف ان يدفع لنا مبلغا في كل سنة او لا فانني افضح امره

وكانا وهما يتقدمان قد وصلا الى محطة موناستيراه فقطعاها صامتين وتقدما منها الى المقبرة القائمة في وسط ذلك الوادي وصلبانها ظاهرة على ضوء القمر فعرف فنطوش هذه الاماكن وتذكر الطريق التي التقط منها مارسل ذلك الطفل الصغير الذي يعرف الان بـاسم كوكوس تحت تلك الزوبعة القوية التي كانت ثائرة وقتئذ وهو مغطى بالثلوج وملقى على ذراعي رجل في حشرجة الموت فتصبب العرق البارد من جبينه لدى هذه التذكارات وتامل كيف انه كان مع كل شقائه حينئذ اسعد حالا منه الان حيث كانت كازال تساعده على كسب معاشه وتطربه بصوتها الرخيم في اسفاره ، ولاول مرة منذ ذاك الوقت افتكر ماذا حل بوالد كوكوس

ماذا حل بذاك التعس الذي تركه من غير ما شفقة ولا حنان على تلك الحالة يصارع الموت والدم يتدفق من جراحه والعاصفة بقوتها

نخمد تدريجا بقية الرمق فيه

تذكر كل هذه الاشياء دون ان يشعر بتوبيخ ضميره او باقل ندامة وكانا وهما يسيران في ذلك الليل الهادىء يفكر كل منهما بماضيه فيرتجف لما فيه من النقائص ويتامل مستقبله فيخيفه ما يعده له من الجرائم ، وكانت الساعة الكبيرة فوق ملجأ العجزة تعلن انتصاف الليل والحديقة بسورها الضخم البارزة من اعلاه قطع الزجاج تمتد امامها فلا يدرك الطرف اخرها والقصر بفخامته وضخامته قائم في وسطها ونوافذه كلها مغلقة ولا حركة فيه وظلا متقدمين حتى وصلا الى حرج صغير فنظرا السور ينخفض تدريجا وينتهي بباب حديدي فمال فنطوش نحو بوادو وقال

ــ ندخل الى القصر من هنا فانه لا يقتضي عناء كثير لذلك وامامنا هذا الحرج نقدر ان نختفي فيه نهارا وتتحين الوقت المناسب

ــ فسكت الاثنان هنيهة ثم قال بوادو

ــ والان ماذا يجب ان نعمل ؟ ان الليالي باردة هنا وكلانا نرتجف والسماء متلبدة بالغيوم واذا تساقط الثلج فما لنا الا العودة حالا الى كوخنا في جسر النهار

ــ ولكن ــ ولكن

ــ ماذا تعني بقولك ولكن ؟

ــ اعني ان الوقت قد حان للعمل فلنعمل لانني لا اعتقد بالتاجيل لانه اذا قدر وسقط الثلج تفوتنا الفرصة لقضاء المهمة

ــ لا خوف من ذلك لان فصل الشتاء لا يزال بعيدا

ــ ولكنك تجهل اننا لسنا في باريس وان الثلج في هذه الجبال يسقط باكرا

فتقدما يتحذر لجهة القصر الذي كان امامهما بفخامته وسكونه وابصرا

ــ ولكن ، قال فنطوش

ــ ايضا ، ولكن ، ولكن ماذا ؟

ــ لندخل اولا في هذا الحرج فقد نجد فيه موضعا نلجأ اليه في وقت الحاجة

ــ انه فكر حسن اذا وجدنا موضعا تقدر ان نتخذه لنا مقرا

وكانا وهما يتحدثان قد وجدا بعض الصعوبة في دخول الحديقة فتقدما يتحذر الى القصر الذي كان امامهما بفخامته وسكونه وأبصرا النور في احدى نوافذه فتقدما نحوها علهما ينظران شيئا وهاك ما نظرا

كان رجلان جالسين امام طاولة في وسط قاعة فسيحة تتاجج النار في موقدها وامامهما مصباح عليه ستر حريري وكان بيد الواحد منهما تحرير يعيد قراءته وامامه عبد ينظر اليه

في صباح ذاك النهار كان جوست وهو في قصره في اربواز قد اخذ كتابا من مادلين تنبئه فيه عن عزمها على زيارته وانه يكون بصحبتها شاب تود كثيرا ان تقدمه اليه وكانت طريقة كتابة الكتاب قد شغلت فكر جوست كل ذلك النهار وهو ينتظر بفروغ صبر حلول الوقت المعين ليذهب الى استقبال مادلين ويعرف من هو ذاك الشاب

وكان لا يقدر الا ان يعيد قراءة تلك الكلمات التي كانت تخال له انها مكتوبة باحرف من نار فاعاد قراءتها مرارا امام عبده الامين زمبا وهذا نص كتاب مادلين

« ان هذا الزائر لا يزال باول صباه وهو بعمر ذلك الولد الذي تبكيه ، وتعس يستحق الرأفة والشفقة ، وبما انني اعرف حنوك ورأفتك فانا ساخذ لك هذا المسكين الذي كان يود ان يتخلص من الحياة ، فانه سوف تعزيه وتجبر قلبه الكسير والمملوء من مرارة الشقاء ، انا اخذه اليك ولي كل الثقة بانك ستبسط له ذراعيك لان له الحق بكل محبتك فهو شريف النفس حتى ان كل ذله السابق لم يوءثر في فطرته الطيبة

« نحن نصل غدا في قطار الساعة الرابعة ونصف صباحا فارسل عربة لتلاقينا الى موناستياه »

اما جوست فقد صمم النية على ان يذهب بنفسه لملاقاة مادلين وتولاه السهاد كل تلك الليلة وكان يعيد قراءة الكتاب ويحس بان يده تكاد تشتعل من الورقة المكتوبة عليها

ـ من هو هذا الشاب الذي تذكره مادلين بكل حرارة ؟ من هو؟

وكان زمبا واقفا امام جوست بكل هدوء يتامل حالة سيده ويقدر بفكره ان جوست كان يظن ان هذا الشاب المجهول الذي تعلم عنه مادلين ربما كان ولده العزيز مارسل الذي كان يبكيه منذ ثماني عشرة سنة ولكي يتخلص من نظرات جوست اغمض عينيه

ــ لماذا انت نائم الان ؟ كانك لا تراني بغاية القلق والاضطراب انك تقرأ ما يجول في خاطري ومع ذلك لا تقول لي كلمة تزيدني املا وتهدىء بالي ، ان سكوتك يزعجني فما معنى هذا السكوت ؟ انا اشعر بصوت داخلي يقول لي · ان هذا الولد ولدي وان سعادتي اصبحت قريبة المنال وان الله اعاد الي ولدي وانت يازمبا اراك مشككا في ذلك ان امالك قد فقدت واصبحت لا تعتقد بالسعادة

ــ اه ياسيدي انا لا اعتقد بانك ستجدولدك العزيز مارسل

ــ ولكن هذا الولد التعس الذي ستحضره مادلين اليناهو بعمر ولدي ، فلماذا تقول لي ذلك ، لماذا تحرك احزاني اذن ؟ لا شك ان لذلك سببا فانت لا تعرف مادلين جيدا ولا تعرف رقة شعورها

ــ انا اعرفها واعتبرها

ــ انا اعتقد انها حين وصولها ستضع بين يدي ولدي مارسل

وكان وهو يقول ذلك يتمشى في عرض الغرفة وعيناه محدقتان بالحائط ترافقان عقرب الساعة الذي كان يتقدم بكل بطء مع ان الوقت كان يمر سراعا ليقرب تلك الساعة المعينة لموافاة مادلين ثم وقف وقال

ــ قل للسائق ان يحضر عربة بثلاثة افراس

ــ ان البرد قارس والافضل ان تبقى هنا لاذهب انا الى المحطة واستقبل القادمين

ــ هل تظن ايها الصديق انني اقوى على الانتظار ؟ لا · لا · فساذهب معك · قال ذلك وارتمى على كرسي كبير واضعا راسه بين

يديه وزمبا الذي كان بقربه قد سمع صوت بكائه و نظر دموعه المنسكبة

هذا الرجل الذي كانت امواله لا ياخذها عد واعماله الشريفة كثيرة وحسناته عديدة كان في تلك الساعة يبكي لانه مع كل هذا الغنى يحسب نفسه اتعس الناس اولا انه كان يوءمل ان يرى مادلين بعد مدة قصيرة جالبة اليه السعادة وينتظر منها ان تذكر له اسم فتى غريب و كان لا يشك في انها ستذكر له اسم مارسل

بينما كانت ساعة قصر اربواز تدق الثالثة ونصف من الصباح كانت عربة يقودها ثلاثة من جياد الخيل قد وقفت امام محطة موناستياه ونزل منها رجلان ، جوست وزمبا

و كان الليل صافيا هادئا واشعة النجوم تنير قمم الجبال والروابي وكانت المحطة خالية من كل انيس ما عدا الوكيل الذي كان ينام فوق مكتبه وجوست وزمبا اللذين كانا يقطعان الوقت بالتامل والتفكر دون ان يكلم احدهما الآخر منتظرين القطار الذي يمر عند الساعة الرابعة ونصف في طريقه الى اسبانيا وما زالت الحال كذلك الى ان بدأت غياهب الظلام تتسارع هاربة من امام حراب الصباح التي ابتدأت تنير الافق وانبثق الفجر ثم سمع صفير القطار ودمدمته وهو يقترب من المحطة فاحس جوست بانقباض فوءاده وكاد يغمى عليه وعبثا كان يتنشق نسيم السحر عليلا ليبرد به حرارة قلبه فوقف ينظر الى القطار الذي كان يقترب من المحطة بكل سرعة ويحسب تلك الدقائق اجيالا اذ عند انقضائها يكون وصول القطار ، يكون وصول مادلين ، وكان

يعيد قراءة كلمات مادلين

ــ ان القطار بيصل الى المحطة ، نادى المحافظ

فتقدم جوست بكل سرعة الى قرب الخطوط فنظر شخصين قد نزلا من الدرجة الاولى ، شابا وامرأة

ــ مادلين ، قال جوست ، مادلين

اما هي فوقفت امامه وبنظر جامد وحركة لطيفة اشارت نحو كوكوس وقالت بصوت تقطعه دموع الفرح التي كانت لا تحاول امساكها

ــ اعيده اليك ، هذا هو ، هذا مارسل

ــ ولدي !

ولم يقدر ان يلفظ اكثر من هذه الكلمة التي وضع فيها كل قوى فؤاده ثم ضمه بين ذراعيه واقتاده الى العربة وتبعهما مادلين وزمبا وساروا في طريق اربواز وعيون الجميع تجود بالدموع دون ان يتلفظ احد بكلمة

وكان جوست ينظر الى ولده نظرات القلق ويفكر في نفسه قائلا « انني لم اجد الشاب الـذي كنت اتوقع ان اراه في عنفوان الصبوة وقوة الشباب ، اه لم اجد الا شبحا لا اثر للحياة الا في عينيه » وبيد مرتجفة من القلق امسك يد الولد التي كانت تلتهب من الحمى

ــ حمى خفيفة ، وسعال جاف ، واصفرار زائد ، وضعف شامل ، اه يا الهي ان هذه اعراض السل ، كان يقول جوست في نفسه

وهو لا يقدر ان يحول نظره عن وجه كوكوس ولا ان يمنع دموعه من الانسكاب ، ولكن الم يكن غنيا الى درجة تمكنه ان ياخذ الولد الى الاماكن الجميلة ، الى الشواطىء الايطالية حيث صفاء الشمس النقية والهواء العليل الذي يتطهر بمروره فوق البحر الجميل مع العناية الزائدة وسن الشباب مما يساعد في تجديد قوى هذا الولد ويعيد اليه السلامة والعافية

اه نعم ، كل هذا الشقاء وهذه التعاسة المبتلى بها مارسل ، كل ذلك سببه كلاديس سببه الدوقة دوبان التي كان قد احبها في الماضي حبا مبرحا واصبح الان يكرهها كرها شديدا في الماضي كان يشعر نحوها بشيء من الشفقة والرافة اما الان بعد مشاهدة ولده العزيز مارسل في هذه الحال وتفكيره في اصل شقائه فقد صار يحتقر الام ويكرهها ويلعنها ولم يجسر ان يسال كوكوس عن شيء مخافة ان يسمع منه ما لا يحب ان يعرفه وان يحرك احزان الولد ، انه كان وحده وهذا كل ما كان يبتغيه وفي خلال هذه التاملات كان يضم مارسل بين ذراعيه بلهفة ووجد ، عدد من السنوات كان قد مضى على تلك الليلة التي اختطفه فيها من بين يدي مربيته والان كان يخيل اليه ان ذلك لم يكن الا من يوم او يومين وان هذا الشاب الذي يراه الان لا يزال صغيرا كما كان وهو هو الطفل الملائكي مارسل ، وعند مروره على الطريق التي سلكها قبلا كان يذكر تلك الحوادث وذلك كان يزيده كرها واحتقارا لكلاديس ، ومضت الايام وجومت يكاد لا يفارق مارسل دقيقة

ومادلين كانت تظهر للولد من المحبة والانعطاف ما جعله يتناسى شيئا من شقائه وتعاسته الماضيين الا ان ذلك الشقاء وتلك التعاسة كانا قد اورثاه مرضا عضالا يسري في جسمه تدريجا حتى قلقت افكار جوست واعتقد ان من المستصعب انقاذه من بين مخالب ذلك المرض

اما الولد فمع سروره الزائد باجتماعه بوالده كان يؤلمه بعده عن كازال وكيف انه لا يقدر ان يراها كل يوم ويضمها بين ذراعيه وهي والدته ومربيته وشقيقته ورفيقته وكل من عرف واحب في زمن طفولته ، وكان يريد ان يخلصها من عيشة المسارح ، كان يود ان يعيش بقربها في ذاك القصر الجميل ، كان يرغب ان يفي بعض ما لها عليه من الافضال في كل تلك السنين الطوال ، ففي صبيحة يوم مال نحو جوست وقال

— انني افتكر ياوالدي في امرأة احبها واحب ان اجعلها سعيدة فارتجف جوست وبقي يصغي الى كوكوس الذي تابع الحديث قائلا

— ان المرأة التي احبها يا ابتي والتي يؤلمني بعادها كانت بمثابة والدة لي فاننا قد عرفنا الشقاء معا وذقنا كل انواع العذاب ولولاها ولولا اعتناؤها بي لفقدت الحياة من زمن بعيد ولسقطت في وهدة الرذائل والنقائص فهي التي حافظت على حياتي وغرست في نفسي الفضائل ، وبصوت خافت قال ايضا ، كازال هي والدتي ، وهـذه الوالدة هي التي ارغب في ان اراها ، انها بصبرها وشجاعتها قد حمت نفسي من النقائص وبحنوها داوت اسقامي

ـ كازال ؟ قال جوست ، تلك الراقصة التي تخلب الالباب في الاوبرا كل مساء

ـ نعم هي نفسها يا ابت ولكنها اذا كانت ترقص في الاوبرا فعن اضطرار ولقد قصدت الابتعاد عن هذه الحياة لنعيش سويةوذهبنا بعيدا عن باريس واتخذنا لنا مسكنا جميلا على شاطىء البحر في الجنوب حيث عرفت طعم السعادة لوقت قصير اذ كدر صفو حياتنا حضور رجل لئيم قال لسكان ذلك المكان اننا لصوص واولاد قاطع طرق فاضطررنا ان نغادر المكان

ـ وهل تعرف اسم هذا الرجل ؟

ـ نعم

ـ من هو ؟

ـ روسكوف

ـ اه قال جوست والشرر يتطاير من عينيه اهذا الشقي وقف في طريقك ايضا ؟ اما كازال فكن براحة بال لنحوها ياولدي فاننا سوف نأتي بها الى هنا حتى لا تفارقك ابدا وحتى تحبها وتكرمها كوالدةلك

فاحدثت هذه الكلمات من جوست طمأنينة وراحة في قلب الولد ظهرت علاماتها بضعة ايام فوق وجنتيه و كتب اليها يقول

« انني وجدت في قصر اربواز والدا يتفانى في حبي وانا اقابله على ذلك ولا ينقصني لاتمام سعادتي الا اجتماعي بكِ وهذا سوف يتم قريبا اذ تحضرين الى هنا ولا اعود افترق عنك » (كوكوس)

الا ان هذا الفرح الوقتي لم يكن ليوقف سير الداء الذي كان يزداد من يوم الى يوم رغما عن العناية الزائدة والملاجات الكثيرة فكان اصفرار وجهه يزداد وعيناه تغوران وشفتاه تفقدان لونهما وكانت هذه الدلائل تقلق جوست وتزيد في بلباله فسأله المرة تلو المرة

ــ هل تتألم من شيء؟

ــ كلا يا ابت ، فانني بسعادة وعافية لم اعرفهما من قبل وكل ما احتاج اليه لاتمام سروري هو حضور كازال

ان ذكر كازال كان كل ما يشغل افكار كوكوس فقد كان يلهج باسمها في نهاره ويحلم بها في ليله وعلى هذا الفكر والامل بحضورها كان يكتب اليها كل يوم ويسر بقراءة تحاريرها التي تقول في كل واحد منها انها ستحضر في وقت قريب وتجتمع به ، وكان يطلع جوست على هذه التحارير ويسر باعادة قراءتها له على انه لم يجسر على ان يذكر له او يسأله عن والدته الحقيقية لانه كان يعتقد ان بين والده وهذه الوالدة الغير معروفة التي كانت اظهرته الى الوجود سرا قديما منعه معرفته على انه كان لا يقدر الا اظهار فرحه وسروره حينما يرى مادلين ووالده يتحدثان وكثيرا ما كان يمسك بيد مادلين ويقول لها بمحبة وحنو

ــ كم كنت اود ان يكون لي والدة نظيرك

وكان جوست ومادلين عند سماعهما هذا الكلام يصفر وجهاهما وفي يوم كان الاثنان جالسين في غرفة من الطبق الاسفل وصامتين لا

يقولان شيئا وهما ينظران الى نار متأججة في الموقد وكوكوس معهما وقد امسك بيد مادلين واعاد عبارته لها « كم كنت اود ان يكون لي والدة نظيرك »

وفيما هما يتبادلان النظرات وقد امتلأ فوءادهما من كلمات كوكوس شعرا بان الوقت قد حان للتأمل في ما كان يقول

ودخل خادم يحضر الانوار فنهضت مادلين

ـ اذاهبة ? قال جوست

ـ نعم ، فقد حان وقت العشاء ولم ابدل اثوابي

ـ ارجو منك البقاء

فتراجعت بضع خطوات وبهتت

ـ لدي اشياء كثيرة اريد ان اقولها لك يامادلين ، اشياء احملها فوءادي وهي تحرقه من زمن بعيد ، سر لم اجسر ان ابوح به لك قبل الان ، انت التي تعلمين كل مصائب ماضي وشقاء شبابي ، اما كيف تقبلين هذا السر ، هل تدخلينه في فوءادك او ترفضينه بقسوة ? لا اعلم

ولما حاولت الخروج امسكها من يدها واعادها الى المقعد بقرب النار وجلس امامها وقلبه طافح بالعواطف وهو لا يقوى على الكلام واخيرا نظر اليها وقال

ـ لقد سمعت الان يامادلين كلمات ولدي والشيء الذي يتمناه وان محامدك وفضائلك يامادلين قد انطقته بهذا التمني

ـ جوست ، جوست

فاخذ يدها وضمها بين يديه ثم وضعها فوق شفتيه وقال

ـ اننا لم نكن سعداء «اليس الامر كذلك ياصديقتي ؟ انحداثتك قد تقضت بعمل الخير والاحسان وانا قضيت حداثتي بالشقاء والعذاب، والثروة التي ارتع بها الان لم تجلب الي السعادة التي كنت احلم بها بل بالعكس فانها حمل ثقيل اضفته الى اتعابي الماضية التي لم اقدر على قهرها ، وقد ذاق قلبك يامادلين ايضا طعم المصائب فصبرت دون تضجر ولا شكوى ، انني كنت ارقب دوما كل ذلك فاجد منك الفتاة الفاضلة الصبورة الشجاعة ، غير انك لم تكوني سعيدة

ـ نعم كنت تعسة ياجوست ، كنت في خلال السنين الطوال منفردة في منزلنا في شارع فولتار وكنت اقضي الساعات في تلك الغرفة الصغيرة التي تعرفها اعيش بافكاري الماضية فقط ـ في ذاك الماضي البعيد حيث كنت اجد السرور والفرح ـ ذاك السرور كان لوقت قصير ، وذلك الماضي هو انت ياجوست ، هو زيـارتك مرة بالاسبوع ، هو محادثتك وروءيتك ، اما الان فان ذلك الماضي صار ماضيا ذهب وذهب معه صباي واماليي واحلامي الذهبية

فانقبض فوءاد جوست وقال

ـ اذن ان ذلك الحبالذي كنت تحفظينه لي في المـاضي قد اضمحل ولم يبق له من اثر ؟

فاحمر وجه مادلين وتكسرت اجفانها وقالت

ـ انني لم انس حبك ياجوست ، انني قد وهبتك فؤادي سابقا ولم استرجعه

فركع امامها وقال

ـ اشفقي علي واحفظي هذا الحب وكوني رفيقة حياتي انك الوحيدة التي تقدرين على تعزيتي وتسليتي ، انني سوف احتاج قريبا الى يد شفوقة تمسح دموعي والى قلب رؤوف يسع مصائبي

فتساقطت عبراتها وعرفت احزان قلبه وقالت

ـ انا اعلم ان حالة مارسل تقلقك ، انك تخاف ان يأخذه الله منك ، فساكون والدته ونجتهد كلانا بمعونة الله لانقاذه ، ان الوالدة لا تدع ولدها يموت ، وساحمي مارسل واضرع الى الله ليهبني اياه وان الله يستجيب دعاء الوالدة

ـ ان انقاذه لا يكون الا باعجوبة وانا لا اعتقد بالعجائب يامادلين فالمرض قد تقدم كثيرا وهو يسرع الخطى لاختطاف فريسته ثم استخرط في البكاء وقال

ـ ان كوكوس سيموت قريبا يامادلين ، اننا سنفقده

ـ جوست ، جوست

ـ مادلين .

وضم ذراعيه اذ القت مادلين نفسها بينهما

الفصل الثاني والعشرون

ــ اذن لهذا المساء ، قال بوادو وهو ياكل قطعة لحم مقدد

ــ ارجو ذلك ، قال فنطوش ، فقد كفانا انتظارا

ــ وقد مللت انا الانتظار ايضا ، فقد مضى ثلاثة اسابيع ونحن هنا ولا يمضي وقت طويل حتى يتساقط الثلج ويتصعب الامر علينا ، ولو لم نجد هذا الكوخ نلتجيء اليه في الليل ليقينا برد الخريف لكنا ولا شك قد اصبنا بامراض قوية ، ثلاثة اسابيع كانت قد مضت على هذين الشقيين وهما ينتظران في ذاك الحرج القفر فرصة سانحة يتمكنان بها من تحقيق قصدهما وكانا حذرين حتى لا يذهبا الى ذات الموضع لشراء لوازمهما وكثيرا ما كان يلحظ بوادو علائم الخوف في وجه فنطوش فيقول له انه قادر على اتمام الامر وحده وانه يفضل ذلك لان دراهم روسكوف تكون كلها له وكان هذا يشجع فنطوش ففي ذات يوم ذهب بوادو الى احدى المزارع القريبة ليشتري لوازمهما وبقي فنطوش في الكوخ يدخن غليونه ويتامل دخانه المتصاعد وهو جالس امام الباب وينظر الى اوراق الاشجار التي كانت تتساقط بنسمات الخريف واذا بوقع اقدام خفيفة بقربه فظن اولا ان بوادو قد عاد وصفر له ليعلمه بانتظاره ولما توقفت الخطى لدى الصفير ارتجف وتصبب العرق البارد فوق جبينه وارتمى وراء غيضة من الاشجار يتنصت لاي

حركة وهو لا يعلم من هو القادم الى ذلك المكان المقفر واخيرا ازاح الاغصان من امامه واجال نظره فاذا في احدى المنعطفات شاب عرفه وهو كوكوس

ـ ايمكن ان يكون كوكوس هنا ؟ قال في نفسه، ان ذلك من المستحيل ، ولكن الشاب كان امامه ، فخرج من مخبأه وتقدم نحو الشاب الذي ارتجف لمرآه وقال

ـ اهذا انت ؟

ـ وكيف حالك ؟ قال فنطوش ووضع يده على كتف كوكوس الذي بقي جامدا في موضعه

ـ وماذا تعمل هنا ؟ قال كوكوس وظهرت في عينيه الجميلتين دلائل الغضب

ـ كنت بانتظارك

ـ لم تكن بانتظاري لانه لا يمكن ان يمر في بالك انني ضيف في قصر اربواز فلماذا لا تقول الحقيقة وهي انك حاضر مع بوادو لارتكاب بعض الجرائم ؟

ـ قد يكون ذلك

ـ السرقة ايضا ؟ السرقة دائما ؟ قال كوكوس وهو ينظر الى فنطوش نظرة الاحتقار ، وهل تظن ان الجرائم تبقى دوما مستورة ؟ اولا تخشى يوم العقاب ؟

ـ وانت ماذا تصنع هنا ؟

ـ انني اسكن في اربواز

ـ لعل المسيو مسمر قد احتضنك

ـ نعم انني كنت مريضا فاخذني المسيو مسمر الى مستشفاه وهو يعتني بي ، قال ذلك مفضلا ان يحافظ على سره من انه ابن جوست وان الله اعاده لابيه

ـ انك بظواهرك هذه الحسنة لا يمكن ان تخلو من الدراهم التي يجب ان تعطيني اياها

ـ لا يوجد معي شيء قال كوكوس الذي كان حقيقة لا يحمل دراهم

ـ ان ذلك من سوء حظي فانظر كيف وانت ضيف في قصر اربواز اراني مضطرا الى اتخاذ هذا الكوخ الحقير في هذا الغاب مسكنا لي مع بوادو الذي حضرت واياه للتامل في محاسن الطبيعة

ـ ولكن لا تقدران على سكنى هذا الكوخ لوقت طويل فان الثلج سيتساقط قريبا ولا يعود البقاء فيه ممكنا ، قال ذلك وهو يفكر انهما ربما حضرا لارتكاب بعض الجرائم وقد يكون قصدهما قتل والده

اما فنطوش الذي كان يفهم ما يجول في فكر كوكوس فتقدم منه ووضع يده فوق راسه قائلا

ـ لولا خوفي من ان يحضروا للتفتيش عليك لربطتك في جذع شجرة هنا الى الغد

فبقي كوكوس في مكانه وقال

ليس من الصعوبة تقييدي وانت ترى انني لا اكاد اقوى على الوقوف ولم تعد لي القوة للمدافعة او الهرب ، وانني اذا كنت خرجت في هذا الصباح فما ذلك الا لتنشق الهواء العليل المعطر باوراق السرو. فاقتلني اذا كنت تريد فانني لا امانع

فتراجع فنطوش الى الوراء –

– انني لا اتمسك بالحياة لانني لا اجد فيها السعادة ، والماضي لا يزال لدي حاضرا والهوة التي تفصلني عن كازال عميقة جدا ،

– كازال ؟ قال فنطوش

– انني لاجلها ارجو منك ان تذهب من هنا وتقلع عن المقاصد الشريرة التي ستقودك الى المهالك وانا اعدك اذا عدلت عن خطتك هذه التي يقودك اليها بوادو بان كازال لا تهملك

– انك تهينني وتهين بوادو وسوف انتقم منك لي وله

– افتكر بكازال ، قال كوكوس ، فانني لاجلها ارجو منك العدول عما انت عازم عليه وكانت هيئته الهادئة ولفظه الجلي الصادر عن فوءاد مخلص قد اثر في فنطوش فتراجع مرتجفا امام هذا الهيكل الذي كان ينازع الموت وينفض عرق الندم في ضميره وقال

– نعم انك وكازال قد ذقتما طعم الشقاء والتعاسة واذا كنت انا قد ارتكبت بعض الجرائم فما ذلك الا لانني كنت مضطرا الى اكتساب معاشكم ، ان الاغنياء يزاحموننا على قوت يومنا ويسلبوننا حقنا في الحياة ولا بد من السعي لاكتساب الرزق باية طريقة ممكنة

ــ انك على خطأ في ذلك فقد كنت فيما مضى على هــذا الاعتقاد ،وكنت اشجع ثورة الفقير على الغني ، ولكن كازال العاقلة الحكيمة كانت تبين لي دوما خطأ ي فاتبعت تعاليمها واعتقدت اعتقادها

ــ كازال ، كازال ، قال فنطوش بصوت خافت ثم سمع وقع اقدام فارتجف وقال

ــ ان بوادو قادم فاذهب حالا والا فسيقتلك

ــ لا اذهب قبل ان تعدني بانك سوف تترك هذا المكان في هذا النهار وان تحلف لي بانك لا ترتكب ولا جريمة في قصر اربواز

ــ احلف لك بذلك

وبينما كان كوكوس يسرع الخطى عائدا نحو القصر كان فنطوش يتامل كلامه ويجد الصواب فيما قاله له وانــه اذا اقلع عن ارتكاب الجرائم والنقائص فان كازال تسعفه وتنشله من وهدة الفاقة والعوز وكان يسمع خطى كوكوس تتباعد وخطى بوادو تقترب الى ان وصل وقال

ــ في هذا المساء

فسكت فنطوش لحظة ثم قال

ــ انني سوف اترك قريبا هذا الحرج واركب اول قطار الى باريس

ــ ماذا تقول ؟

ــ اقول انني ارفض ان اساعدك على ارتكاب الجريمة

ــ ماذا تقول ايضا ؟ صرخ بوادو والشرر يتطاير من عينيه وتقدم

بحدة نحو فنطوش شاهرا بيده خنجرا ماضيا

ــ سكن من حدتك

ــ اه انك تعلم بانني لا اتردد ، انك قد قبلت بان نقوم بالعمل سوية وها قد مضى عشرون يوما ونحن نسكن هذا الحرج كالوحوش لا نأكل حتى الشبع ولا نتقي البرد ، نترقب حلول الفرص المناسبةولما قربت الساعة اراك تتقاعس ، انك جبان خائن

ــ لم اخف من شيء

ــ انك كنت تخاف حتى من كازال

ــ اه ان كازال ابنة شريفة

ــقد يكون ذلك ولكنني كنت مستحقا هذا الطرد . فباي حق ذهبت اطلب منها مالا انا الذي لم اعاملها في كل حياتها الا بالقسوة والفظاعة ، وفوق ذلك فهل تعلم من صادفت الان

انك لا تقدر ان تظن انني صادفت كوكوس

ــ كوكوس ؟

ــ بلحمه وعظمه

ــ وهل تركته حيا

ــ نعم ، وقص عليه باختصار ما توقع معه

ــ اذن قد حلفت بان تترك هذا الحرج في هذا المساء

ــ نعم

ــ ليكن ذلك ، فان هذا هو قصدي ايضا سنتركه سوية ، ولكن بعد قضاء المهمة

ــ ولكنني قد حلفت بان لا ارتكب اية جريمة

ــ احذر مخالفتي ، وكن كما اريد ، وسوف تكون، وانا افيدك بانني صادفت في موناستياه رجلا اعطاني كل المعلومات الضرورية

فوجد فنطوش ان لا بد له من طاعة رفيقه فاشعل غليونه وقال

ــ اذن لديك معلومات جديدة تساعدك على قضاء المهمة

ــ معلومات على غاية الاهمية

ــ واين ينام الرجل المقصود

ــ في الطبق الارضي

ــ ان كل ما علينا هو اقتلاع القفل

ــ هذا على غاية السهولة

ــ ومعك العدة اللازمة

ــ معي كل ما يلزم وانا اتكفل بذلك وكل ما يطلب منك هو ان تكون الحارس

ــ اذن هذا المساء

ــ نعم

ــ وهلا تخاف ان يفضح كوكوس امرنا ؟

ــ لو لم تكن والد كازال لكان يسلمنا الى العدالة اما وانت والد

من يدعوها امه فسيسكت عنا وبعد هذا نصبح من الاغنياء ونغنى عن السرقة

ــ واذا لم ننجح ؟

ــ نعود حالا الى باريس ونجبر روسكوف على ان يدفع لنا

ــ انه لئيم واخاف ان يسلمنا الى العدالة

ــ انك جبان واراك تحاول العدول عما عزمنا عليه ،

ــ انا لست بجبان ، ولكنني لا احب مرأى الدم وارتكاب القتل

ــ اما انا فانني مصمم على العمل لان العشرين الف فرنك تهبني القوة على ذلك

ــ وانا ثابت معك

وعلى هذا قضيا سحابة النهار يستعدان ويرسمان الخطط لقضاء الامر وفي ذات المساء دخلا حديقة قصر اربوازمن قرب الباب الحديدي

ان القمر بضوئه الساطع سوف ينم بنا ، قالا ذلك ولكن بقيا يتقدمان بحذر لئلا يراهما احد الخدم الا ان القصر كان بسكوت عميق ولا ضوء ولا حركة فيه وهو متحجب وسط الاغصان الغضة والاشجار الكثيفة ، فقال فنطوش ، قد يكون كوكوس مستيقظا الى الان فيقدر بصوت منه ان يوقظ كل ساكني القصر على انني لا اسمع حركة ولا ارى نورا فلنتقدم على حذر

ــ يخال لي انني سمعت فتح نافذة ، قال بوادو وهو ينظر بحذر الى جهة القصر ليتحقق الامر وقد خاف ان يكون كوكوس فضح امرهما

فيهلكان لا محالة وكانا يرتجفان رهبة حتى من الاغصان التي كانت تتمايل بنسمات الخريف القارصة ويخيفهما القمر المنير بضوئه الساطع على تلك البطاح

ــ انني لست بخائف من شيء ، قال فنطوش ، وقد نسي قسمه وما هذه الحركة التي سمعتها الا ان احد الخدم نسي سهوا احدى النوافذ وابقاها غير مقفلة فتحركت بنسيم الهوا فلنتقدم

وكان بوادو الذي اصدر هذا الامر الى فنطوش واقفا في مكانه والاثنان لا يبديان حركة لانهما كانا يخلفان هذا السكوت ، وضوء القمر ويرتجفان لحفيف الاشجار

ــ انني اشعر بشيء داخلي يذكرني بمحاولتنا الدخول الى منزل شارع الامبراتريس فانك ولا شك لم تنس ما صنعه معنا كوكوس

ــ انني اذكر ذلك

ــ واذا كان ينوي اليوم ان يعيد الامثولة نفسها ؟

ــ ومن يعلم

ــ هل تخافه ؟

ــ نعم ، اذا كان يظن اننا نحاول اغتيال جوست مسمر فهو ولا شك يفضح امرنا ونكون من الخاسرين

ــ انني اراك تتشاءم

ــ ان الامر فوق طاقتي واشعر بالعرق البارد يتصبب فوق جبيني

ــ فلنعد اذن من حيث اتينا ، وقد قبضنا اثني عشر الف فرنك

وهي كافية لمصاريفها

ـ انها حماقة ان نعود الان وليس بيننا وبين الغنى سوى شجاعة بضع ساعات فلنتشجع قال ذلك وتقدم الى جهة القصر الذي كان يظهر امامهما بوضوح

وكان كوكوس قد اتعبه السعال ففتح نافذة غرفته فراهما وهو جالس بقربها يتنشق الهواء العليل ويتامل الحياة التي كان يجدها في الماضي حملا ثقيلا لا يعرف كيف يقدر على القيام به وهو ينظرها الان حلما لذيذا يخاف اليقظة الغريبة منه ويطير بافكاره الى تلك التي يدعوها والدته ، الى كازال ويرجو حضورها قريبا ليجعلها براحةوسعادة معه ، الا ان المقدر كان قد كتب والمرض جرى سريعا في احشائه منذرا بقرب الاجل

ولكن من الشباب وما لديه من وسائط الوقاية والمعالجة وما يحيط به من الراقة والحنو والتامل في ان له شقيقة يجب عليه محبتها والاهتمام بامرها كانت توجد فيه قوة ورغبة في الحياة فيرفع نظره الى الفضاء غير المتناهي مفكرا في القوة الالهية المحجوبة متوسلا اليها لتخفف الامه ثم يزعجه السعال فيطرق بنظره الى الارض ، واذ ذاك تراءى له انه رأى شبح شخصين في الحديقة فانحنى بهدوء من النافذة ثم قال بصوت خافت

ـ بوادو وفنطوش، والد كازال ـ يا الهي ، انهما اتيان لسرقة قصر والدي وربما لقتله لان بوادو شقي يقدم على ارتكاب اية جريمة

كانت او انهما عرفا باهتدائه الى ولده فحضرا لاختطافه رغبة الفدية ، وكان وهو يفكر بذلك يزيد تحديقا في الحديقة ويرقب حركاتهما فنظرهما وقد وصلا الى القصر ووقفا امام نافذة غرفة في الطبق الارضي يحاولا نفتحها هي غرفة جوست

فخطر له ان يصرخ باعلى صوته غير انه ملك روعه ونزل مسرعا الى غرفة ابيه الذي افاق لدخوله مضطربا

— ها انا ياوالدي ، قال كوكوس بصوت مرتجف

— انت ياولدي ؟ اتشعر بشيء ؟

— لا ، ولكنك معرض لخطر ، فانهض حالا

فاراد جوست ان يضيء شمعة الا ان كوكوس منعه وازاح الستائر عن النافذة فدخل ضوء القمر وانار الغرفة فارتدى جوست ثيابه وهو لا يعرف سببا لايقاظه الا انه اجاب رغبة كوكوس الذي قال

— اتسمع ؟

— انهم يحاولون فتح النافذة

— لقد نظرت شخصين في الحديقة

فتقدم جوست الى النافذة ليفتحها الا ان كوكوس اوقفه قائلا ،

— لا ياوالدي لا يجوز ان يفر هذان الشقيان

— سادعو زمبا

— لا موجب لذلك فاننا قادران على امساكهما بسهولة

— ولماذا لا تريد ان ادعو زمبا

ــ يجب ان ندع هذين الشقيين يدخلان الى الغرفة ، وقد يهربان اذا سمعا اقل حركة

ان جوست الذي كان لا يعلم سببا لمقاومة كوكوس بقي مبهوتا فاتم الولد قائلا

ــ سيتمكنان بعد هنيهة من فتح النافذة ودخول الغرفة ولا اريد يا ابت ان يعلم احد سوانا عن امرهما شيئا ، ان احد هذين الشقيين يدعى فنطوش وهو والد التي ربتني ودعوتها اما لي وهو الذي احتضنني

ــ والثاني ، من هو ؟

ــ يدعى بوادو وهو رفيق فنطوش

ــ اه يا ولدي العزيز ، انني اقرأ فكرك الان ، انك تريد الا يمسك هذان الشقيان ويقادا الى المحاكمة فانت تريد ان تنقذهما

فاحنى كوكوس رأسه

ــ الا تعتقد انك غير مصيب ، افتكر بالامر قبل فوات الوقت فادعو زميا وهو يتكفل بهما

ــ لقد افتكرت مليا ياوالدي ورأيت من الواجب انقاذهما اريد ذلك لانني افتكر بكازال والكدر الذي يستولي عليها اذا عرفت ان والدها محكوم عليه بجريمة كهذه ، انني لا اريد ان ارى دموع من احبها بعدك اكثر من كل مخلوق منحدرة فوق خديها تحسرا على شقاء والدها ، قال ذلك والدموع تهطل من عينيه

اما جوست فنظر الى ابنه برافة وقال

ــ اذا كنت تريد ذلك فلتنتظر وتقدم الى خزانــة اخذ منهــا مسدسين واعطى كوكوس واحدا منهما قائلا

ــ خذهذا واحم نفسك عند الاقتضاء ، وما كاد يتلفظ بذلك حتى سمع كسر زجاج وفتحت النافذة وصار الشقيان في وسط الغرفة الا انهما ارتجفا لرو،يتهما على الضوء الضئيل الــذي اشعلــه جوست رجلين بيد كل منهما مسدس مصوب نحوهما وكان جوست قد اسرع واقفل النافذة حتى لا يتمكنا من الفرار وقال لهما

ــ قفا مكانكما ولا تبديا اقل حركة والا فانني قاتلكما

ــ لقد فشلنا ، قال فنطوش ، وهو يتقدم نحو الباب وبقربه شبح تفرسه فاذا به كوكوس

ــ هو ، هو ، هو دائما ، انت تبيعنا الان ثانية ايها الشقي ؟

ــ انني اخلصك مرة اخرى بمنعك عن ارتكاب جريمة قال ابن جوست ، اما فنطوش فكان يرتجف من الخوف والغضب ، انه كان يخاف نظرات كوكوس الحادة ، يخاف ضعفه ولا يرجو الرأفةوالحلم منه فمال نحو بوادو وقال

ــ هو ايضا ، فاترك سلاحك لقد خسرنا

وكان بوادو لا يجسر على الحركة ومسدس جوست مصوب الى صدره فوقع خنجره من يده وارتجف من الرعب

ــ انكما شقيان قصدتما قتلنا ، قال جوست

ــ قد يكون ذلك ياسيدي ، قال بوادو وهو يحاول اخفاء رعبه ،

لقد فشلنا الان ولا شك في انكما متسلمانا الى العدالة غير ان الايام بيننا طويلة وقد تساعدنا الظروف على اعادة العمل ومن يعش ير ، غير ان هذا لا يمنع من الاقرار باننا كنا جهلاء لتركنا في قيد الحياة هذا الولد اللقيط الذي آويناه سنين طويلة ليخوننا الان

اما جوست فكان قد تقدم بغضب نحو بوادو فامسكه كوكوس من يده قائلا

ــ دعه يتكلم انه احمق لا يدري ما يقول

ــ اتريد ان اعفو ؟ قال جوست

ــ نعم ياوالدي اعف وان يكن غير مستحق

ــ كما تريد ، قال جوست ، ومال نحو بوادو وفنطوش

ــ اننا لا نسلمكما الى العدالة بل نترك لكما حريتكما اذاعملتما بما اشترط عليكما ، ان كوكوس يريد ذلك وهو يشفع بكما وانا لا ارفض شفاعة ولدي الذي اعاده الي الله

ــ اه المسيو كوكوس ، قال فنطوش ، انه رؤوف يغفر زلتنا نعم اننا اشقياء ولكن ما العمل ولا بد من حرفة نحترفها لاكتساب رزقنا ولا نقدر ان نرفض ما يعرض علينا ، فتبادل جوست وكوكوس النظرات كأنما يقصدان ان يستفهما ما يعنيه فنطوش بقوله « ولا نقدر ان نرفض ما يعرض علينا »

ــ انتما اذن مستأجران لقتلي قال مسمر ، وعادت الى مخيلته ما كانت قد حذرته منه روجينا

ــ نعم ياسيدي كنا مستأجرين ، قال فنطوش

ــ شقي ، قال مسمر

ــ ارحمهما ياوالدي ، قال كوكوس وهو يضم يديه ، ارحم والد كازال التي انا مديون لها بكل شيء ، انها والدتي التي حفظت حياتي ، وهي التي بحنوها نشفت دموعي ، ولولاها لما قدر لي ان اراك يا ابت ، انني لانقاذها من الموت قد سرقت رغيف خبز وهي لانقاذ شخص مشرف على الموت من الجوع ضحت اشرف عواطفها ، اقول لك ذلك لابين مقدار حبي لهذه الابنة التي كانت لي صديقة وشقيقة ووالدة ، ان نظري اليها وهي تتالم من الجوع جعلني مجرما ، ونظرها الي مقودا الى المحاكمة جعلها تسقط ، انني لا انسى ذلك ولا انسى ظلم الانسان ، كلا ولا انسى هربي بين تلك الجبال ، ان الرجال والكلاب كانت تجد في اثري ومجرد الافتكار بحالة كازال والرغبة في انقاذها يزيد في الرغبة للوصول الى الكوخ الذي كادت تموت فيه من الجوع ومع ذلك فقد لحقني القوم ، ان الكلاب لدى نظرها الى تعاستنا وشقائنا وقفت حزينة كئيبة واما الرجال فقد اقتادوني ذليلا وساقوني كاكبر لص الى امام العدالة لانني سرقت ذاك الرغيف وما حييت لا انسى رأفة الكلاب وظلم الانسان ولا انسى الثمن الذي دفعته كازال الى ذاك القاضي الغاشم الذي كانت بيده سعادة وشقاء الافراد لخلاصي ، نعم انها لاجلي ، لاجل انقاذي من قساوة البشر وظلم القانون قد ضحت ذاتها ، قال ذلك وارتج الكلام عليه وسالت الدموع

من عينيه وارتمى على قدمي جوست قائلا

ــ ان فنطوش يجب ان يكون مقدسا عندنا ، لانه والد كازال وهذا يكفي لغفران ذنوبه

ــ انا اعلم انك عشت مع هذا الرجل ولذلك تريد ان تنقذه وانا اعمل بارادتك على انني احفظ لذاتي الحق بمحاكمته ومحاكمة رفيقه ثم تقدم نحو بوادو الذي كان لا يزال يحاول الهرب وقال

ــ من دفعك لقتلي ؟

ــ هذا من اسرارنا ، قال بوادو

ــ تكلما لتكونا احرارا قال جوست ، انني لا اهبكما الحرية والمسامحة الا بعد اقراركما وفوق ذلك ساعطف عليكما وادعكما تتركان فرنسا حالا الى بلاد تدر ذهبا وفضة ، انني ارسل زمبالير افقكما الى مرسيليا ومنها تركبان البحر الى اوستراليا حيث تعيشان براحة وطمأنينة

ــ الى اوستراليا ؟ صرخ فنطوش

ــ اصغ لما اريد ان اقول

ــ ان جوازات السفر تدفع عنكما الى مدني حيث لي املاك واسعة وهناك اعطيكما ارضا تحرثانها وبيتا تأويان اليه وتكونان دوما بمأمن من الفاقة

ــ انك لا تندم على صنيعك ياسيدي ؟ قال بوادو ، ومن يعلم فقد نصير من الصالحين ، انني وفنطوش سارقان ولا ننكر هذا ولكننا

لم تقدم لنكون قاتلين لو لم يحرضنا روسكوف على ذلك

— روسكوف ؟ قال جوسب ، روسكوف ؟

وفي الغد باكرا ركب القطار على طريق مرسيليا ثلاثة رجال، زمبا وبوادو وفنطوش ، ولم يمض على وصولهم يومان حتى كانت الباخرة التي تسافر الى اوستراليا ماخرة في عباب البحر وعلى ظهرها بوادو وفنطوش

الفصل الثالث والعشرون

هناك في قصر اربواز لم يعلم بالخطر الذي نجا منه جوست الا مادلين وزمبا وفي اليوم الثاني لسفر فنطوش وبوادو الى اوستراليا كتب جوست الى كلاديس التحرير التالي

« سيدتي

« في هذا المساء حضر شقيان مستأجران من زوجك بقصد قتلي وبفضل شخص لا موجب لذكر اسمه الآن قد نجوت من الموت . وهذان الشقيان فنطوش وبوادو قد اقرا وهما مستعدان للشهادة في اي وقت اردت ان اقوده الى امام العدالة

« ان ليونال روسكوف قد اخبرك ولا محالة باننا تقابلنا وانني مطلع على سر موت الاميرال دوبان وما هو الشرط الذي اطلبه لقاء كتمان هذا السر

« انني امهلته ثلاثة اشهر للافتكار واعطاء الجواب الصريح ووعد بكل ما اردت ، ولكنه كان مقررا موتي ومعتقدا بنجاح مكيدته »

« ان زوجك ياسيدتي خسيس لئيم ، والمثل المشهور القائل — ان الطيور على اشكالها تقع — لا يجد مطابقة احسن من اجتماعكما . فقد سعى روسكوف جهده للوصول الى الغاية التي يقصدها ولماوجدني عقبة في سبيله استحل قتلي . ان حياة الانسان شيء زهيد لديه ،أليس كذلك يا سيدتي وانت التي قد رايته في ساعة العمل ?

في لياليك الموحشة وهي عديدة هل لا تمر في مخيلتك صورة تلك الحوادث التي وقعت في حديقة سان سافان ، انني كثيرا مـا تساءلت كيف تقدرين ان تحتملي عذاب الضمير ، انك امرأة قوية لا تقدر الندامة ان تخرق قلبك المتحجر ، اترين كيف انني اعرف كل خفايا امورك وبكلمة واحدة اقدر ان اقودك الى المحاكم ذليلة صاغرة

« والشيء المخيف هو ان ابنتك تعرف كل خفايا الجرم الهائل الذي ارتكبته مع ليونال روسكوف وتعرف ايضا ان ارادة الواحد منكما كانت ارادة الاخر فانت بنظرها كما انك بنظري مجرمـة مثله ، وقصاص الواحد يجب ان يكون قصاص الاثنين ، ثم انكما بالاتفاق ايضا قررتما موتي ولكن القدرة الالهية التي لم تتخل عني سابقا قد حرستني الان ايضا . فقولي لزوجك ياسيدتي انني بصحة لم يكن لي احسن منها قبلا ان هذا يكدره لان موتي يسلطه على كوتياه وقد يعتقد انه يقدر حينئذ ان يدفع الشاب الى المطالبة بارث هو يعلم انه ليس

من حقه

هو يعلم ان ليس لـه حق ادبي بهذه الثروة المتروكة من رجل يحمل اسمه ولكنه غير والده ومع ذلك فالشريعة تساعده لاخذ هذا الارث الا انه سوف لا يطالب به لانه يعرف كرمي وانعطافي نحوه وانني لا اريد ان اراه الا سعيدا ، كل ذلك ياسيدتي مقدمة لاقول لك انه اذا لم يصلني في خلال ثمانية ايام مصادقتك على زفاف ابنتك اسبارنس الى كوتياه دكسون فانياقودك مع زوجك الى امام العدالة الافرنسية « جوست مسمر »

قرات كلاديس هذا التحرير وهي ترتجف من الخوف واسرعت الى غرفة روسكوف الذي كان لا يزال في فراشه وقالت له

— ان مصيبة دهماء قد وقعت علينا ،وناولته التحرير

— ان هياتك الراعبة تزيد في هرمك ولن يمضي عليك سنـة حتى تصيري عجوزا شمطاء

— اقرا هذا التحرير ، قالت كلاديس وهي ترتجف من الرعب وتصر على اسنانها ووجهها يزداد اصفرارا ح ثم ترى اذا كنت تقدر بعده ان تحافظ على هيأة الشباب التي تفتخر بها والتي لاجلهـا تسمعني كل يوم من قوارص الكلام ما لايطاق . نعم كنت اعتقدت بانني شربت الكاس حتى الثمالة ولم يبق في خزانة المصائب ما تداهمني به ولكنني بعد قراءة هذا التحرير وجدت انه لا يزال امامنا ايام سوداء وليالي حالكة

ــ تصبري ياعزيزتي فساكون بين يديك بعد بضع دقائق وامهليني قليلا لارتداء حوائجي ، قال ضاحكا

ــ انك سوف تمتنع عن الضحك لدى وقوفك على هذا التحرير قالت وهي تهز كتفيها وعسى ان يحقق الله اعتقادك واهرم ، ان الهرم هو الذهول عن الاشياء وهو غالبا بداية الجنون ، واود ان اكون كذلك لانني لا اعود حينئذ اشعر بمثل الالام التي احتملها من يوم حملت اسمك ولما كنت اشعر بالمرارة التي اشعر بها في كل يوم للماتي التي تاتيها والمهاوي التي تقود نفسك اليها لانك تسقط من نقيصة الى نقيصة لتسلو امراة ردتك خائبا ، نعم انك لاجل تلك الكازال تضحي كل شرف ومروءة ولكنها ترفضك باحتقار وتردك بكبرياء

ــ ارى انك واقفة على دقائق الامور ، قال وهو يرتدي حوائجه ولما عقد ربطة الرقبة مال نحو كلاديس واخذ التحرير منها وبسرعة مر نظره عليه فاصفر لونه ووقع التحرير من يده

ــ والان ماذا تفتكر ؟ قالت بعظمة ، ارى انك لا تضحك ، ان هذه الكتابة واضحة اليس كذلك ؟ انها ليست تهديدا فارغا فانا اعرف مسمر ؛ واعرف انه يسلمنا كلينا من دون ما شفقة ولا رحمة ، وانت تعتقد بانك تقدر ان تصل الى مطامعك على جثث الناس وتنجو من دون قصاص

ــ ان فنطوش وبوادو قد خانا ، فسوف التقي بهما

ــ هذا بعض ما ينتظرك من القصاص

ـ وماذا تعتقدين انك ستفعلين ؟

ـ سارسل غدا صباحا المصادقة التي يطلبها مسمر

ـ ان كل مساعينا تحبط وكل اعمالنا تخيب قال روسكوف وقد قطب حاجبيه واحمرت عيناه من الغضب

ـ هذا قصاص لكل منا وهنا بداية الدينونة

ـ اي وقت تزوجت اسبارنس تصبح حرة بثروتها وينقطع عنا مدخولها ونضطر ان نقابل الفاقة وجها لوجه ويرتفع هذا الغطاء الذي يحجب حقيقة امرنا عن الابصار ، انني اعرف عذاب العوز ومصائب الفقر ، اعرف هذا المرض الاليم الذي يرعى الفوءاد ويـذيب الجسم ويجمد الفكر ، نعم اعرف كل ذلك ولهذا ترينني اقاوم وقوعه باية وسيلة كانت

فارتجفت كلاديس وامتلأت عيناها بالدموع شفقة على حالة هذا الرجل الذي لا تزال تحبه ثم تقدمت نحوه قائلة

ـ ان اسبارنس لا تتركنا ياليونال ، فانا اعرف قلب ولـدي واعرف انها لا تتخلى عناء انني كنت غنية وكان لدي الجواهر العديدة وكان هذا المنزل مملوءا بالتحف النادرة والاثار الثمينة فصرفت كل ذلك واضعته في المغامرة وبين الراقصات والغواني ثم اخذت تبـذر ثروة اسبارنس ولو لم تفر من هذا البيت لاضعت ثروتها بوقت قصير، الا ان كل ذلك هو الماضي فلا اطالبك به ولا اسالك عنه وكل مـا اطلبه منك هو ان تتناساه وتعود الي

ــ اعود اليك ? اهذا ممكن ? قد كان ذلك لو بقي لك شبابك ع
اما الان فانني اعيد لك ما قلته سابقا من انك اصبحت هرمة ، يربك
انظري الى مراتك واعيدي ما قال الشاعر

كانت سليمى تنادي يا اخي وقد   صارت سليمى تنادي الان يا ابتا

انظري كيف ان عينيك فقدتا لمعانهما و كيف ان جبينك تجعد وبرزت الاحناك واختفت حمرة الخدين و كبر الانف وغلظت الشفاه وتحدبت قامتك تلك التي كنت فيما مضى تفتخرين بهـا ، بحقك انظري الى مرآتك ، الا تخافين ذلك ?

اعود اليك ? انني لم احبك الا زمنا قصيرا ، ولم تكوني الاسلما اصعد عليها الى غايتي . اعود اليك ? كأ نما انت تعلمين بانني لا احبك منذ زمن طويل

اما هي فكانت جامدة امامه تسمع كل ما يقوله لها باحتقـار وازدراء دون ان تبدي حركة او تلفظ كلمة، ثم رفعت يديها المهزولتين بحنق فوق جبينها وصرخت فيه قائلة

ــ لئيم، شقي ، وركضت مسرعة وانحجبت في غرفتها وقد خيل اليها ان الخدم جميعهم سمعوا كلامه الذي كان يتردد صداه في اذنيها وهي تسمع خفقان قلبها وترى الكابة مخيمة في نفسها وارتمت تلك المراة ، التي طالما سحرت الباب الرجال واماتت غيرة اكباد النساء ، على مقعد واستخرطت في البكاء

ان ساعة القصاص قد دنت وبدات الهاوية تتسع تحت قدميها وهي

منقادة اليها ، لم يبق لها شيء على هذه الارض ، هذا الرجل الذي كانت احبته حبا مبرحا يضحيها الان بكل قساوة وفظاعة وابنتها تركتها حاملة معها اعمق اسرارها ومنذ صارت زوجة روسكوف تحملت كل ما يقدر القلب على احتماله

لقد سهرت الليالي الطوال في نافذتها تنتظر قدومه وترقب النجوم هاربة امام طلائع الفجر وقدراته وهو يتمايل من السكر والتعب يدخل القصر متمسكا بالجدران لئلا يسقط الى الارض وكانت كلمات والدتها وهي على سرير الموت تتردد في اذنيها وهي تسمعها في تلك الساعة وتعيدها من العالم الاخر قائلة

« ان هذا الحب سيكون وبالا عليك فاحذري يا كلاديس »

الفصل الرابع والعشرون

بعد مضي يومين على هذه الحوادث اذ كان جوست وكوكوس يتمشيان في حديقة قصر اربواز اخذ جوست من محرر مقاولات الدوق دوبان اقرارا برضى كلاديس عن زواج ابنتها اسبارنس من كوتياه فقرا ذلك بسرور ثم دفع التحرير الى كوكوس قائلا

— اه ، انني ساتمكن اخيرا من جلب المسرة الى قلب اسبارنس

— او تسمح لي ان انقل اليها هذه البشرى

— ليس لي ما امنعه عنك ياولدي العزيز ، ولكن لا يجوز ان تنقل

اليها هذا الخبر فجأة لئلا يوءثر فيها فهي الان بحالة النقه واقل تأثير فجائي يضر بها ويوءخر شفاءها

كانت اسبارنس قد حضرت منذ ثمانية ايام برفقة مادلين برامون انتجاعا للعافية الى قصر اربواز وكان الهواء النقي والعناية الزائدة ورقة جوست وموءانسة كوكوس وتفاني الخدم في سبيل مرضاتها قد ساعد على تقدمها نحو العافية وكانت وجنتاها بداتا تتوردان وعيناها تضيئان وفمها تطبع فوقه ابتسامة العافية وكان الخريف باوراقه المتساقطة وريحه الباردة قد توقف فجاة ليعطها وكوكوس فرصة يتمتعان فيها بالنسيم البليل والهواء العليل بين ادغال تلك الجهات وهضابها فصعد كوكوس الى غرفة اسبارنس التي كانت برياشها الوردي ونوافذها المطلة على قمم السافان تروق بعيني الابنة وتزيدها سرورا وبعد ان رفع سجفا مخمليا عن الباب قرعه بلطف

— ادخل . اجاب صوت عذب من الداخل وفتحت الباب ووجهها يطفح سرورا وثغرها يبتسم حبورا وقالت

لقد حلمت حلما لذيذا وتوقفت قليلا ثم قالت ، قد حلمت بكوتياه

— اه ، نعم حلمت بكوتياه وساقص عليك هذا الحلم ولكنني ارجو منك ان تمهلني قليلا لانني لا ازال غير مسرحة شعري وكنت نائمة نوما عميقا افقت منه على قرع الجرس الخارجي

— ان موزع البريد قرعه

— وهل من تحرير له تعلق بي ?

ــ نعم · ولكن ليس في الامر ما يدعو الى القلق · قال كو كوس·

فوضعت شعرها الذهبي فوق جبينها وقالت

ــ دعنا نتمشى في الحديقة تنشق نسيم الصباح ونستقبل الشمس وهي ترخي حبالها على الارض فتذيب نقط الندى المعلقة على الازهار قالت ذلك وهي تحاول ان تعيد الى مخيلتها ذكرى حلمها اللذيذ

اما كو كوس فكان من شدة الفرح قد نسي في تلك الساعة مرضه وكاد سروره يدفعه الى اعلان نفسه انه شقيقها ويضمها الى صدره قائلا انظري في وجهي تري ملامحنا متقاربة وضعي يدك فوق قلبي تعرفي من نبضاته ان دمنا واحد ، كاد يفوه بذلك لولا وعده لروجينا بكتمان الامر

وكانا وهما يدوسان اوراق الاشجار المتناثرة تنظر اليه وفؤادها يخفق وترجو منه ان يطلعها على التحرير الذي قال انه متعلق بها

اما كو كوس الذي كان قرأ افكارها فقال

ــ ان جوست مسمر قد استلم في هذا النهــار تحريرا من محرر مقاولات عائلة الدوق دوبان ·

وما فحواه ؟

ــ هذا التحرير يجلب لك السعادة يجلب رضى والــدتك عن زواجك بكوتياه دكسون

فارتجفت اسبارنس وكادت تقع الى الارض لولا استنادها على ساعد كو كوس وقالت

ــ اه ارى حلمي قد تحقق

ــ انك بزواجك سوف تذهبين من هنا وقد تنسين اصدقاءك

ــ وهل ممكن ان انسى اصدقائي ؟ هل انسى جوست مسمر الذي يجلب لي السعادة ؟ او هل انسى مادلين تلك الصديقة المخلصة؟ او انسى ما تظهره انت نحوي من المودة والانعطاف ؟ وهل ممكن ان اكون ناكرة الجميل وانسى من هم سبب سعادتي وهنائي؟ وكانت في وسط هذا السرور يمر في مخيلتها ذاك الماضي الرهيب الحوادث وتنجلي لها اسرار ذاك الليل المظلم الذي سمعت في ظلامه اسرار روسكوف ووالدتها وهي محجوبة عنهما وراء ستر حريري وعرفت حقيقة موت والدها ، تلك الحقيقة التي بقيت سرا غامضا عليها الى ذلك الوقت والتي اوجدت الشكوك والظنون في افكار روجيناوجوست فقطبّت حاجبيها وانطبعت علامات الكآبة فوق شفتيها وهطلت الدموع سخينة من عينيها وهي لا تحاول اخفاءها . ولما سالها كوكوس وهو متعجب من هيئتها هذه قالت له

ــ انني ابكي على حداثتي . ابكي لكثرة ما مر علي من المصائب ان حياتي كما تعلم روجينا لم تكن كلها رغدا وسرورا

ــ ومع ذلك فقد كان لك عائلة ، كان لك اب ، كان لك ام ، اما انا فلم يكن لي شيء من ذلك ، وكان لك ثروة وبها تشترين الراحة والسعادة ، اما انا يا اسبارنس فقد كنت لا املك قوت يومي وكثيرا ما كانت الكلاب تشبع فوق شبعي ، وكنت اذهب في الصباح وانا لا

اعلم اين يكون مسائي ، ومع ذلك فقد قاومت الدهر واريته كيف يكون الصبر

ــ نعم انا اعرف هذا وكان يجب الا اذكر شقائي امامك لئلا اثير اشجانك ، نعم كان لي ام وهذا وحده كان يكفي لسعادتي وتخفيف مصائبي ولكن اعذرني ياصديقي اذا شكوت امامك همومي وافرغت فوق مصائبك سهام الامي ، ان الام التي تتصورها لم يكن لي شيء من عطفها وحبها ، فقد تركتني منذ حداثتي لاعتناء روجينا وحنوها فهي وحدها التي ملات فراغ فوءادي واعاضتني بحنوها عن قساوة والدتي

فقال كوكوس في نفسه

ــ ان تلك المراة نفسها قد حملتنا في احشائها وكانت قاسية على كلينا فما عسى ان تكون هذه الوالدة ؟

بعد مضي شهر على هذه الحوادث دعي كوتياه على عجل من ايطاليا ليتكلل في كنيسة قصر اربواز على الابنة التي احبها وهي مدموازال اسبارنس دوبان وفي صبيحة اليوم الثاني عاد مع عروسته تحتٌ سماء ايطاليا الجميلة يقضيان شهر العسل وكان جوست فرحا لاعتقاده بان السعادة اصبحت قريبة منه فانه كان قد عاد فاكتسب فوءاد مادلين ثانية وقرب وقت تكليله عليها وكان قد اتم وصية دكسون ووجد كوتياه واعد له مستقبلا مجيدا وازوجه بمن احب واخيرا كان قد وجد ولده مارسل الذي كان يعتقد بشفائه رغما عن

سرعة سريان المرض فيه ورغما عن كونه كان طبيبا يعرف هول الحالة التي وصل اليها المرض

ان طريقة حديثة لشفاء المصدورين كانت معلنة وقتئذ فهي مع العلاجات الوافية والهواء والشمس والراحة ورغبته الزائدة بشفاء ولده كل ذلك كان يدفعه للاعتقاد بشفائه الا ان هـذا الامل كان لا يمر بخاطره الا ليحل اليأس محله رغما عما كان يظهر من التحسن في صحة كوكوس وكثيرا ما سمعته مادلين يقول لذاته « وجدت ولدي شبحا لاسلمه الى الموت »

نعم ان هواء الجبال النقي والعلاجات الدائمة والمعيشة الهنيئة قد اعادت الى وجه الولد بعض دلائل العافية ولكن عينيه لا يزال فيهما ذلك الجمود الذي اقلق جوست والسعال يتزايد عليه في الليل الا انه لكي لا يزيد اضطراب بال والده كان يقضي معظم لياليه جالسا بقرب النافذة يحمل النسيم صوت سعاله ولما كان يساله والده في الصباح عما اذا كان نام براحة او ازعجه السعال كان يقول له

— نمت بكل راحة ولم اسعل ابدا

وكانت هذه الكلمات تحدث طمأنينة في نفس جوست وهو يتحاشى زيادة السوءال لئلا يكون في جواب الولد ما يزيد في قلق باله الا ان هذه الحالة لم تستمر وقتا طويلا لان الداء كان يسير من سيء الى اسوأ وقد تمكنت مخالبه في احشاء الفتى فكان كزهرة نضرة بدأت تذبل بلفحات البرد الشديد وكانت الحمى الخفيفة والعرق لا

يفارقانه في كل مساء وهما يزيدان في ضعفه فيرى ليله طويلا موءلما ونهاره متعبا مزعجا ، نعم ان زواج اسبارنس وكوتياه كان قد جلب الى قلبه السرور لانه كان سعيدا بان يكون له شقيقة كاسبارنس واخ محب مثل كوتياه وكلاهما كانا قد طارا الى تحت سماء ايطاليا النقية يتمتعان بشمسها الجميلة وهوائها المنشط وكثيرا ما طلب اليه جوست ان يذهبا لموافاتهما وان يرافقه ومادلين الى هايس المشهورة بطيب هوائها الا ان كوكوس قد فضل البقاء في اربواز ومن غرفته الجميلة هناك كان ينظر من نوافذها الى جبال السافان

وفي صبيحة يوم كان جوست يعيد عليه راي السفر الى ايطاليا او الى هايس فتبسم الولد ابتسامة مملوءة غما ومرارة وفتح عينيه الملتهبتين من الحمى وقال بصوت خافت

دعني اموت هنا ياوالدي لانك لو اخذتني الى ايطاليا او الى الجنوب فانني احرم من مراى هذه الجبال الشامخة واحرم من هذا المأوى الذي عرفت فيه السعادة ، هذه الغابة الغضة والحديقة الجميلة التي ترتفع اغصانها الى نافذة غرفتي ، نعم انني لا اعود اشاهد كل ما احب روءيته فدعني اموت هنا

فوقعت هذه الكلمات الموءثرة على فوءاد جوست وقوع الصاعقة واغمض عينيه حتى لا يعود ينظر الى عيني ولده ثم تقدم نحوه وقال

— لماذا هذا الكلام وحالتك على تحسن مستمر وانت تتقدم للعافية من يوم الى يوم اننا سوف نبذل الجهد في الاعتناء بك وانت

في سن الشباب فاعقل ولا تتكلم عن الموت ، ان سعالك قد خف وصحتك تتقدم او على الاقل انك تقول لي ذلك وانا اصدقك لانني بحاجة لتصديق هذا القول ، ان كلماتك كانت بلسما لفؤادي فهل كنت تخفي عني الحقيقة ؟

فبقي كوكوس صامتا ، فقال جوست

ـ قد تكون اخفيت الحقيقة عني لتريح بالي وبهذه الحالة تكون قد اخطأت لان الحقيقة يجب ان تقال للوالد والطبيب وانا كلا الاثنين

فاجاب كوكوس برصانة وقال

ـ انك رجل وفيك شجاعة الرجال ، وانت طبيب تعرف ما هو الموت ، نعم قد اخفيت الحقيقة ولكنني لست قادرا على اخفائها بعد الان فالنهاية قد قربت

فصرخ جوست صرخة اليأس ووضع اذنه في صدر الولد ثم رفع راسه مرعوبا وابعده عنه لانه لم يعد يجسر ان يعيد سمعه ثانية الى صدره

فهل كان وجد ولده ليفقده ويفقد معه الامل بالاجتماع به الى الابد ؟

نعم ان التعاسة وكل انواع الشقاء كانا قد تملكا من جسم كوكوس فاذبلا نضارته وكانت كلاديس دلابوميار دوقة دوبان الجميلة اصل هذا البلاء وسبب هذا الشقاء

كان الخريف يتقدم بسرعة والنسيم يزداد هبوبا ويحمل من عالي السافان قرصات الثلج الذي كان قد بدأ يتساقط فوق القمم الا

ان الشمس ارادت ان تجعل اخر ايام كوكوس مضيئة منيرة فكانت تظهر بلونها الذهبي من نافذة غرفته وهو جالس امامها يودع تلـك المناظر الجميلة وكان جوست يقضي الوقت بقربه ويتـأمل شحوب وجهه ونحوله ويرى الحالة الخطرة التي اصبح فيها فامسكه كوكوس يوما من يده وقال

ـ لي لديك ياوالدي الحنون رجاء لا اخالك تبخل علي به

قل ما تريد ياولدي العزيز

ـ اريد ان ارى كازال

ـ ولا اهون من ذلك فسوف اكتب اليها لتحضر

نعم ان كوكوس كان يفكر في ذاك الوقت بكازال تلك الابنة الشريفة التي اخذ عنها المبادىء السامية والاخلاق الراقية ، تلك التي كانت له المعينة والمرشدة والمدبرة والوالدة ان تحاريرها لم تعد كافية له وهويريد ان يمتع نظره من مراها وسمعه من كلامها العذب قبل مفارقة هذا العالم

ـ نعم اكتب اليها ، لانني اريد ان ابين لها ما تقدر ان تعملـه القلوب الشريفة من الاصلاح وكيف ان العطف وكرم الاخلاق اصلحا من حالة والدها فنطوش ، واخيرا اريد ان اتاكد من راحتها بقربك وهناءها تحت عنايتك بعد موتي

ـ ساعمل كل ما تريد قال جوست والحزن يقطع فوءاده

ـ ان وجودها هنا بما من من العوز والشرور يكون اكبر تعزية لي

ـ ارادتك هي امر ياولدي فلا اعمل الا ما فيه مرضاتك يا مارسل ولكنك تتصور حالتك خطرة فوق ما هي والحقيقة ان هواء الخريف قد جعل هذا التغيير في صحتك فلو وافقتني في الذهاب الى هايس في الجنوب لرايت تحسينا في حالتك محسوسا

ـ دعني اموت هنا فلا نفع لي من تنقلي ، انني اعرف ذاتي واشعر انني سافارقكم قريبا

على ان لي تعزية وهي ان يدا كريمة سوف تبقى بقربك فتمسح دموعك وتخفف احزانك وهي يد مادلين التي كنت اود ان ابقى حيا لاجلها واكرمها كوالدة وما يزعجني هو ان كازال ستبقى بدون محب فهي التي تستوجب الشفقة والرأفة ولدى افتكاره بها اشرق وجهه وتوقدت عيناه وتجددت قواه فنهض عن كرسيه ونظر من النافذة الى تلك المناظر البهجة وكأن السماء قد زادت زرقتها في عينيه وشعر بقوة حرارة نور الشمس فنظر الى والده وقال بصوت خافت

ـ اريد ياوالدي ان اشاهد والدتي قبل موتي

ـ والدتك ?

ـ نعم ياوالدي ، اريد ان اقبلها قبل مفارقة هذا العالم

فارتجف جوست واصفر وجهه وقال

ـ سوف تراها ياولدي

وفي ذلك المساء كتب الى روجينا يسألها ان تقابل كلاديس

وتاتي معها الى اربواز وكتب ايضا الى كازال لتاخذ اول قطار الى موناستياه وتاتي الى قصر اربواز حيث ينتظرها كوكوس

الفصل الخامس والعشرون

لدى وصول تحرير جوست الى روجينا اخذت عربـة وذهبت مسرعة الى شارع ميات وطلبت من الخادم الذي كان على الباب مقابلة مدام روسكوف

ــ ان مدام روسكوف لا تقابل الان احدا

ــ اذكر لها اسمي ـ قالت روجينا وهي ترفع القناع الرهباني عن وجهها وابتسمت ابتسامة لطيفة وقالت ، الم تعرفني ياصديقي ؟

ــ اه مدموازال روجينا ، لا موجب ان اعلن حضورك لسيدتي فتقدمي الى غرفتها فانك تعرفينها

فتقدمت روجينا في ذاك القصر الذي قضت فيه قسما من حياتها هناك حيث سكبت الدموع سخينة وحيث احتملت قساوة كلاديس ومدام دالابوسيار السنين الطوال وكانت وهي تمر بين المقاصير تمر في مخيلتها ذكرى حوادث مولمة ودموع غزيرة سكبتها تلك الابنة في سنيها الماضية وهي تقابل تلك الحالة المضطربة بحالتها الحاضرة الهادئة الى ان وصلت الى غرفة كلاديس فدخلتها بهدوء

الا ان مدام روسكوف بقيت جالسة في مكانها قرب الموقد

دون ان تبدي حركة لدى دخول الراهبة وظنت انها راهبة قادمة لطلب الصدقة

فتقدمت روجينا نحوها وهي تنظر اليها وكانها لا تنظرها لان عيني كلاديس كانتا فقدتا صفاءهما ونظرها يحدق في فضاء الغرفة كمن بدأت تظهر عليه دلائل الجنون

فتقدمت روجينا نحو كلاديس وبصوت عذب قالت

ــ الم تعرفيني ؟ وهل تغيرت كثيرا ؟

ــ انت ؟ قالت كلاديس ، انت ؟

ــ نعم انا وهل يدهشك ان تريني هكذا ، الا تعلمين ان سعادتي وسروري هو ان اكون خادمة الفقراء

ــ لا اعلم شيئا ولا اهتم لشيء ، انني اعيش هنا منفردة ولا ارى احدا واذا خطر لي ان اكسر هذا القيد الاختياري فلا يكون الا لكي اتمشى في الحديقة ، وبمرارة زائدة اتمت قائلة ، ولماذا لم تحضري الي قبل الان لتخففي احزاني ؟ انك لا تعلمين تعاستي

ــ كنت اعتقد انك سعيدة

ــ سعيدة ؟ قالت وهي ترفع يديها المهزولتين ، انني متروكة ومغضوب علي

ــ وروسكوف ؟

ــ روسكوف ، روسكوف ، وقـد اضطربت وضحكت ضحكة الجنون ، ان روسكوف بعد ان امات حياتي الادبية وبدد ثروتي وباع

كل الاشياء الثمينة والتحف النادرة والجواهر والخيول والمربـات اتعلمين ماذا صنع ؟

ولما بقيت روجينا صامتة قالت

ــ انك لا تعلمين شيئا ، انك انت ايضا قد تركتني ولم تفتكري في ، انه قد ذهب ولا اعرف عنه شيئا منذ ثلاثة اشهر ، نعم انك لا تعرفين شيئا ، الم يقل لك الخادم عن حالتي وانني اعيش منفردة ؟

ــ هذا ابتداء القصاص قالت الراهبة بهدوء ، هذه هي الدينونة ، ولكنك تقدرين على الندامة ، ودعاء تعس يفارق الحياة قد يكون مقبولا لدى الله فيخفف غضبه

ــ وماذا تعنين ؟ قالت كلاديس مرتعبة

ــ ان ولدك الصغير مارسل يدعوك لقربه ، ان والـده قد وجده ولم يخجل من تعاسته وفتح له ذراعيه ، وهذا الولد الان في حالـة النزع وهو لا يعرفك غير انه في ساعة الوداع الرهيبة تذكر ان له والدة وطلب ان يضمها الى صدره قبل مفارقته الحياة ، فصرخت كلاديس وقالت مارسل ، هذا هو ولدي هذا التعس الذي اهملناه كلانا في سان سافان

ــ نعم ، هو ولدك الذي احببته وهو طفل رضيع ، الا تذكرين ذاك الحنو الذي كنت تبدينه نحوه حينما كانت تحضر المرضعة من السافان ، ولكن الكبرياء والعظمة قد اماتا فيك ذاك الحنو

ــ نعم هذا اكيد

— ان مارسل ينازع الموت وهو يدعوك لقربه افلا تحضرين لتستقبلي انفاسه الاخيرة ? الا تحضرين لتطلبي منه المغفرة عن كل الشقاء الذي سببته له . الا تحضرين ليلقي راسه بين ذراعيك ويضمك بين ذراعيه

— اه بلى ، فلنذهب

قالت ذلك وارتدت حلة سوداء وذهبت الاثنتان الى المحطة وفي صبيحة اليوم الثاني وصلتا الى موناستياه وكانت اجراس القرية تعلن قدوم جنازة

فارتجفت روجينا وسالت احد القرويين من هو الميت?

— هو رجل من موناستياه

فعاد الى الابنة روعها وخرجت الاثنتان من المحطة

وكان جوست قد علم تلغرافيا بحضورهما فارسل عربة تنتظرهما في المحطة وحين وصولهما الى اربواز ادخلتا الى غرفة كوكوس الذي كان بحالة النزع وهو ملقى على كرسي كبير بقرب النافذة وبقربه من الجهة الواحدة كازال التي كانت اسرعت في المجيء الى اربواز لدى وصول الخبر اليها وهي ممسكة باحدى يديه والى الجهة الثانية مادلين راكعة تبلل اليد الثانية بدموعها

فوقفت روجينا وكلاديس في باب الغرفة لا تجسران على التقدم

— ان لي لديك رجاء ياوالدتي قال كوكوس وهو يضع يد كازال فوق شفتيه وهو ان تعديني بالبقاء دوما هنا

ــ اعدك بذلك ياولدي

ــ انك لا تعودين الى باريس

ــ انني ابقى هنا لاعتني بالعجزة · فانا ايضا صديقة الفقراء

فابرقت أسرة الفتى وقال

ــ انك سوف تكونين هنا لتعزية والدي ايضا ولتكوني رفيقة لهذه الابنة الطاهرة مادلين التي ستكون رفيقة لحياته

ثم مال نحو جوست الذي كان مستخرطا في البكاء وقال

ــ لا موجب للبكاء ياوالدي ، انني لا اشعر بعذاب الان ولا ارى في حياتك المقبلة الا السعادة ، لا بد من تضحية لتخفيف غضب الله وقد شاءت قدرته ان اكون هذه التضحية

وكانت كلاديس قد تقدمت نحو المريض فاوماً اليها جوست قائلا

ــ انظري صنيعك

فارتجفت كلاديس وارتمت راكعة امام ولدها وقالت والدمع يتساقط من عينيها

ــ ارجو سماحك ياولدي · ارجو سماحك يامارسل

ــ نعم سامحها ، قالت روجينا التي كانت تقدمت ايضا ، انهـا والدتك ياعزيزي مارسل ومن الواجب مسامحة الام

انها والدته

انه ابن دوقة دوبان ، اه عرفها الان ، عرف انها هي التي طردته

من قصر سان سافان واتهمته بالسرقة، اذن هذه المراة التي كثيرا ما كان يلعنها كانت والدته ، فاستجمع قواه وجلس على كرسيه وقال وهو يمد الى كلاديس يده التي كانت بدات تبرد وقال

— انت ياوالدتي كنت قد لعنتك في الماضي واما الان فانني اغفر لك انني انظر دموعك واشفق عليك فتعالي لاضمك بين ذراعي ياوالدتي فانا اسامحك

مضت ساعات على ذلك وكأن روح كوكوس انتظرت قبل مفارقتها جسده البالي ان تصل والدته فيضمها الى صدره ويغفر لها زلاتها ثم صعدت تلك الروح الى مقرها السماوي

الفصل السادس والعشرون

ومضت سنين على هذه الحوادث كان جوست بخلالها قد اقترن بمادلين برامون وكانت سعادتهما تامة لولا ما يتخللها من ذكرى موت ولده ، وكان كوتياه المصور الشاب يقطن في باريس وقد اكتسب شهرة عظيمة تقاسمه الفخر فيها امراته اسبارنس دوبان ، وكانا يذهبان في كل صيف الى قصر اربواز ويزوران جوست ومادلين ويشاهدان ايضا هناك كازال التي كانت قد كرست حياتها لخدمة العجزة في ملجأ جوست ، وزمبا الساعد الايمن لها في افعالها الخيرية

اما كلاديس وروجينا فكانتا قد احتجبتا

ان راهبة المحبة الصغيرة كانت قد ذهبت الى افريقيا متطوعة لخدمة العجزة والفقراء في ملجأ كان قد اقيم من مال جوست ومادلين فماذا كان قد حل في كلاديس ؟

ان قواها قد خارت من عذاب الضمير بعد ان حضرت دفن ولدها مارسل فانقطعت في قصر سان سافان تسكنه منفردة مدة ثلاث سنوات وكل ما لديها من الخدم عجوز قروية تحضر صباحا فتعد لها غرفتها وتستجلب لوازمها وتعود فتتركها منفردة

هكذا كانت تعيش تلك المرأة التي كانت حياتها سلسلة جرائم منتظرة ساعة الانتقام

وكانت لا تخرج من القصر الا لتتمشى في الحديقة حوالي تلك المظلة التي كان قتل فيها اللوق دوبان التعس

ان الندامة ، الندامة الموءلمة ، وموت ضميرها المثقل بالجرائم كانا يقودانها دائما الى هناك حيث كانت تفسح لدموعها المجال وهي تشعر بشيء داخلي يقول لها ان روسكوف سيعود وهو يجر وراءه الشقاء والتعاسة : انه سيعود لانه يرجو ان يجد هناك ما يملأ به جوفه ويتقي الموت جوعا ، كانت تفتكر دوما بذلك وتناجي نفسها قائلة نعم سيعود ولكن ···· ولكن ··

وتنطبع فوق شفتيها المصفرتين ابتسامة الجنون والانتقام

ففي ذات صباح افاقت باكرا على قرع الجرس الخارجي وكان الوقت شتاء والثلج يتساقط بكثرة منذ يومين فارتجفت لانها في كل

مدة انفرادها لم تشاهد غير الخادمة العجوز وهذه معها مفتاح فمن يكون الطارق ؟ ثم افتكرت انه قد يكون اسبارنس ، ولكن غمامة سوداء ملأت فكرها وقالت

— او يكون ذلك ؟

— ان اسبارنس تعرف الجرم وتعرف ان والدها قد قتل ، وتعرف انني شريكة روسكوف في ذلك . انها لا تنسى ولا تسامح . ولا يمكن ان تعود الى هذا المكان وببطء خرجت من غرفتها وغاصت في الثلج لتفتح الباب الخارجي الا ان ذلك لم يكن ليوءثر فيها لانها كانت قد اعتادت معيشة الشقاء والتعاسة ولم تكن لتقوى على الحياة لولا فكر واحد كانت تفكر فيه دوما

« انه سوف يعود وانتقم »

وبقيت متقدمة وكل ما حواليها ناصع البياض وهي لا ترى ابدا الا بعض الطيور التي كانت تلتف بريشها وتتقي الهواء القارس بين جذوع الاشجار فتشفق عليها وتقول مسكينة هذه الصغار الى ان وصلت الى الباب الخارجي الذي كان قد فتح بساعد رجل قوي فتراجعت كلاديس دون ان تعرف من القادم الا ان هيأته ارعبتها فصرخت قائلة

— روسكوف ، روسكوف

— اه كم سعيت وتعبت قبل ان اجدك ياعزيزتي ، انني قادم من باريس حيث ذهبت الى قصرك على امل لقائك ولكن مسيو دكسون ومدامته امراني بالخروج حالا فحضرت الى هنا على رجاء وجودك

ــ حسنا فعلت بقدومك قالت كلاديس

ــ وهل تعيشين منفردة في هذا القصر ؟

ــ نعم ولكنها حالة لا تطاق ولا يمكن ان احتملها وانني ارى ان من متوجبات ولدينا ان يعينا لنـــا معاشا

متوجبات ولدينا ان يعينا لنا معاشا

انني قادم من امريكا حيث ذهبت على امل جمع ثروة ولكن الايام عاكستني فعدتّ خاسرا

ــ انك سوف تجد الراحة هنا قالت كلاديس ضاحكة

ــ ان مراك يدل على التقشف واذا كان لا بد من المعيشة هنا فمن الضروري السعي لان تكون مريحة فكم لديك من الخدم ؟

ــ ولا خادم ، ان امرأة عجوز تحضر من سان سافان في كل صباح لوازمي وبعد ان تعد الطعام تذهب ولا اعود اراها الا لصباح اليوم الثاني

ــ انك تعيشين هنا كمن في القبر

ــ تماما · انني لا اعيش الا على ذكر الاموات

وكانا وهما يتحدثان قد اجتازا الحديقة ولما اراد روسكوف ان يذهب لجهة القصر امسكته من يده وقالت

ــ ليس هنالك

ــ اين اذن ؟

ــ في المظلة التي اسكنها في الشتاء لان وحشة القصر ترعبني واجد بعض الطمأنينة هنا ودخلت معه الى المظلة واحكمت اقفالها ·

وكانت ستائر النوافذ لا تزال مسدولة والظلام مخيم فاشعلت قنديلا وجلست امامه يفحصان بعضهما على ضوئه الضئيل

ــ اه انني وجدتك اخيرا ايتها الدوقة قال روسكوف وهو يرتمي على مقعد هناك ، انني قد هرمت اضعاف سني وقاسيت انواع الشقاء والعذاب · نعم هذه هي الحقيقة التي يجب الاقرار بها الان وقد صممت على عدم الافتراق

ــ انك قادم من امريكا قلت لي ؟

ــ قد حضرت من مدة واضطررت بعد عودتي الى ارتكاب بعض الجرائم وادارة الشحنة جادّة في طلبي لذلك لا يجوز ان يعرفوا مقري

ــ بعض الجرائم ، قالت وهي تهز كتفيها ، فما هي هذه الجرائم؟ ولما لم يجب شيئا قالت

ــ جريمة السرقة وربما ارتكبت جريمة القتل

ــ قد ارتكبت الاثنتين لانه يجب ان اعيش

ــ اذن سلسلة نقائصك قد اكتملت ، قالت وهي تقدم له كاس نبيذ

ــ ارى انك ترطبين فمك باشياء فاخرة قال روسكوف ضاحكا فلنشرب كلانا ، فسكبت كلاديس كاسا ثانية وشربت

ــ انني سعيد ياعزيزتي لوجو دي انك غير محتاجة · ولا انكر عليك انني لم اكن لانتظر مثل هذه المعاملة واذا اردت فاننا نقدر منذ

الان ان نعيش سعداء

فضحكت كلاديس وسكبت له كأساً ثالثة قائلة

ــ اشرب من هذه فانت بحاجة الى ما يعيد لك الحرارة

وما زالت تقدم له القدح اثر القدح الى ان فعلت الخمرة مفعولها معه واصبح تحت حكمها عرفت كلاديس ذلك من عينيه ومن تقطع كلامه ولكنها لم تكتف بل ظلت تملاء له الكاس وتدعوه الى الشراب حتى لم يعد بامكانه الحراك فخرجت من المظلة واحكمت اقفال الباب وعادت الى القصر حيث كانت العجوز تحضر لها الطعام فقالت لها

ــ ان المظلة باردة وسوف ابقى هنا الان فاذهبي فلا حاجة لي بك اليوم

وكانت العجوز قد الفت منذ ثلاث سنين اطباع الدوقة دوبـان السابقة فخرجت من القصر دون اعتراض او تمرمر

ولما اصبحت كلاديس وحدها تقدمت في الطبق الاول الى مخدعها ومن بين الحوائج اخذت زجاجة صغيرة اخفتها في صدرهـا وبكل هدوء عادت الى المظلة حيث كان ليونال لا يزال تحت مفعول الشراب لا يقوى على حركة فتقدمت اليه وهي تقول في نفسها

« انه نائم الان وسوف ينام نوما دائما · ان ساعة الانتقام قد حانت ولا بد لي من ذلك · لقد قاسيت من عذاب الضمير والندم والشقاء بسببه ما لا يطاق · ولم اقو على الحياة الا رغبة في الانتقام منه

وبيد لا ترتجف افرغت كل ما في الزجاجة من السم في قدح

روسكوف الذي كان لا يزال فيه بعض الشراب

انه سوف يفيق قريبا ويشرب هذه الكأس وانتظر حينئذ نزع هذا الرجل الذي طالما احببته وضحيت لاجله كل شيء

ولم يمض من الوقت الا القليل حتى افاق روسكوف ومال نحو كلاديس قائلا :

ــ اعطني ما اشرب

فقدمت له الكأس الذي شربها دفعة واحدة

فوقفت كلاديس مكانها واجفة وارتجفت اعضاؤها

اما هو فشعر كأن يدا حديدية طوقت عنقه وتصبب العرق البارد فوق جبينه وكان الضوء بعد انطفاء المصباح يدخل ضئيلا الى الغرفة فتراجعت كلاديس الى الوراء وهي تنتظر نتيجة عملها .

وانقضت ساعة وروسكوف لا يبدي حراكا · ثم نهض بسرعة ونظر حوله نظرة راعبة وقال

ــ ان كبدي تشتعل وانني اشعر بيد حديدية قابضة على عنقي ان نفسي يضيق واحشائي تتمزق · اه انني اموت

ــ نعم انك ستموت قالت كلاديس · لقد كنت انتظرك منذ ثلاث سنين في هذا المكان لاذيقك الموت بذات الموضع الذي وقع فيه الدوق دوبان صريع شرورك ومفاسدك · انظر ايها الشقي الى البساط تر انه لا يزال ملطخا بدمه · ان دم البريء يصرخ طالبا الانتقام · ان عذاب الضمير قد قادني لهذا المكان وشكرا لهذا العذاب الذي لم يفارقني منذ

ارتكبت بمشورتك وبرأيك وبمساعدتك جريمة قتل الدوق لانـه دفعني الى الانتقام الان

ــ انك ستموتين ايضا ايتها الشقية · وانني لا اموت وحدي ·

قال ذلك ووثب عليها ليقتلها ولكن قواه خانته ووقع على الارض وهو يصرخ ويقول

ــ لقد غلبت على امري ومن الظلم ان تبقي ايتها الخائنة القاتلة في قيد الحياة ناجية من العقاب

ــ انني مائتة منذ ثلاث سنين ومعذبة من يوم عرفتك · وعذابي سيكون اطول من عذابك · ان الحكم عليَّ هو اقسى من الحكم عليك ان الموت سينهي كل عذاباتك قريبا وماذا ترتجي من حيـاة قضيتها في السرقة والقتل والجرائم والنقائص غير الحبس الشاق فالقطع · ان الموت سيغلق دونك كل هذه الامور اما انا فان حياتي الباقية ستكون سلسلة عذاب ومصائب · انني احتمل الاوجاع والشقاء · انني اشقى بذاك الماضي المخيف وارتجف من المستقبل المجهول · كان يجب ان اموت انا ايضا لولا الرغبة في ان اطيل عذابي في هذه الحياة على رجاء المغفرة والرحمة

ــ آه انني اختنق · انني اشعر بان نصلا محمىً يمزق صدري فاشفقي علي يا كلاديس

ــ لا شفقة ولا رحمة وقد فات الامر فيجب ان تموت · انني بهذا اجلب لك الهناء والسعادة · ان عذابك سينتهي في بضع دقائق واما

انا فان حياة الندم حياة عذاب الضمير · حياة المخاوف والمصائب سوف تتجدد في ويكون عذابها اليما فاسف علي ياروسكوف · قالت ذلك وتساقطت دموعها وركعت امامه وهو يلفظ النفس الاخير

ــ مسممة · قاتلة · مسممة

وكان ذلك اخر ما قدر ان يقول

اما هي فبعد ان احكمت اقفال الباب والنوافذ عادت الى القصر وهي تقول

« قد انتقمت الى الابد »

مضت سنون عديدة على هذه الحوادث وكلاديس لا تزال في قيد الحياة وكان الفلاحون في سان سافان اي وقت مروا من امام حديقة القصر سواء في الصيف والشتاء يبصرون امرأ مرتدية حلة سوداء تجول في تلك الحديقة على غير رشاد و لاهدى فيتهامسون فيما بينهم قائلين

انظروا المجنونة